حالات نادرة (3)

قصص غريبة تدور أحداثها حول مراهقات كويتيات

م. عبد الوهاب السيد الرفاعي

م. عبدالوهاب السيد الرفاعي

حالات نادرة (3)

العنوان

حالات نادرة (3)

تأليف

م. عبدالوهاب السيد الرفاعي



ردمك: 9789921737639

رقم الايداع: 1516/2019

تصميم وإخراج

نوفا بلس للنشر والتوزيع



نوفا بلس للنشر والتوزيع

NOVA PLUS FOR PUBLISHING AND DISTRIBUTING

www.novapluskw.com

مكتبة | 765
سُر مَن قرأ

حالات نادرة (3)

قصص غريبة تدور أحداثها حول مراهقات كويتيات

م . عبدالوهاب السيد الرفاعي



تنويــه

يسألني القراء باستمرار ودون توقف عن مدى واقعية القصص التي أكتبها.. ولهؤلاء الأعزاء أقول:

أعتذر بشدة عن الإجابة لأسباب لا مجال لذكرها

الفهرس

مقدمة ضرورية 9

ظلام 19

جريمة غير منطقية 67

الميت الذي عاد 111

أشياء أراها وحدي 157

حالة نادرة جدا 211

عزف على أوتار الكون 255

مقدمة ضرورية

(قصاصات عن حياتي الشخصية)

الاسم

يتذكر قرائي الأعزاء أنني لم أفصح عن اسمي حتى الآن دون أن أعرف أنا نفسي السبب.. ربما لأنني اعتدت على لقب (دكتور) الذي أسمعه من جميع الأهل والأقارب.. حتى بت لا أسمع اسمي تقريباً.



العمر

36 سنة لحظة كتابة هذه السطور.

الوظيفة

طبيب نفسي.. أعمل في مستشفى الطب النفسي منذ حوالي 7 سنوات.

أعزب بالطبع.. فكيف لمن يستمع إلى مصائب الناس بصورة شبه يومية أن يثق بأحد في هذا العالم؟!.. لكني عموما أبحث عن فتاة أحلامي منذ زمن وقد أضناني البحث عنها وأرهقني.. لذا فأنا أرجو فتاة الأحلام هذه وأتوسل إليها أن تبحث هي عني وتعثر علي.. وبما أنني أتحدث هنا عن الحالة الاجتماعية فيجب أن أذكر أنني أعيش وحيدا حاليا في شقة بمنطقة (الشامية) بعد أن قررت الخروج من بيت العائلة المزدحم الذي تكاد لا تجد فيه مكانا لتشعر بالانفراد مع نفسك.. إذ شعرت للحظة أنني عاجز عن الحياة في محيط عائلة كبيرة كهذه.. ربما السبب هو الطب النفسي الذي جعلني أكره الناس في جماعات.. وأحبهم منفردين!!!.. أشعر أننا نرى أجمل ما بالإنسان حين يكون وحيدا.. لكن.. شيئا ما يتغير عندما يتواجد مع آخرين.. شيئا ما زلت عاجزا عن فهمه.

وبالطبع أيضا كان لتصرفي هذا تبعات كارثية كونه أمرا غير مألوف في (الكويت).. فغضب أشقائي وبكت والدتي -وربما كان سيغضب والدي أيضا رحمه الله- وانتشرت الأقاويل بين أقاربي رغم محاولاتي العديدة لإرضاء الجميع ووعودي بأنني سأستمر في زيارة بيت العائلة مرتين أو أكثر أسبوعيا.. بل

إن البعض ظن أنني اخترت السكن وحيدا لأمارس ما شئت من الموبقات دون رقيب.. سامحهم الله.. فكل ما أريده هو الهدوء والوحدة فقط.. خاصة وأن حياتي تتطلب ذلك كوني أعشق البحث العلمي وتطوير ذاتي والاستماع لمشاكل الناس الذين دخلْتُ بيوتهم دون أن أدخلها فعليا.. فأصبحت شريكا في أحداث قصصهم رغما عني.. كل هذا جعل لدي تلك الرغبة المجنونة في الهرب والعيش وحيدا.

الهوايات

عملي هو هوايتي.. وحياتي عموما لا تخرج عن الذهاب إلى المستشفى والجلوس في الشقة لقراءة كتب علم النفس ومشاهدة الأفلام الوثائقية التي تثري رصيدي العلمي كثيرا.

علامات مميزة

لا أبدو طبيبا نفسيا على الإطلاق.. فأنا نحيل.. متوسط القامة.. أسود الشعر.. حليق الوجه.. طفولي الملامح.. فلا يملأ الشيب رأسي ولا تملأ التجاعيد وجهي.. أعترف أنني أثير حفيظة بعض من يزورونني في المستشفى طالبين الاستشارة.. فيظنونني

طبيبا صغيرا دون خبرة.. لذا أرتدي النظارات أحيانا لتظهرني أكبر سنا مع معطف الأطباء الشهير.. وأؤكد للجميع باستمرار أن خبرتي ومعلوماتي قد توازي خبرة طبيب نفسي (معتّق) إن صح التعبير.

أهم ما قيل بشأني

ما زلت أتذكر كلمات شقيقي قبل خروجي من بيت العائلة.. حين أخبرته أنني أشعر بالأسف لحياتي المزدحمة وأريد بعض الهدوء.. إذ رد علي بعصبية قائلا: ((أي حياة تلك التي تشعر بالأسف نحوها؟!.. إنك تعيش في مجرّة بعيدة عن العالم كي لا يلمسك أحد!.)).. قد يكون في كلامه شيء من الصحة.. لأنني أحاول باستمرار أن أكون شخصا مثاليا لا أسيء لأحد ولا أطعن بأحد.. وهو ليس بالأمر السهل.. فالإنسان كائن اجتماعي بطبعه يعشق القيل والقال.. وهذا ما أحاول تجنبه.. فقد ندمت أحيانا كثيرة على ما أقوله.. لكنني لم أندم يوما على صمتي!!!.

سبب كتابتي لمذكراتي

لأن القصص التي استمعت إليها وشاركت في أحداث بعضها غريبة بالفعل.. وتتحدى المنطق أحيانا كثيرة.. بعضها له طابع بوليسي مشوق وبعضها الآخر من عالم ما وراء الطبيعة الذي يبقيك قلقا مترقبا.. وأحيانا تمر علي قصص اجتماعية لكن لها مذاقا غريبا غير معتاد.. فعملي في المستشفى عبارة عن الغوص في مستنقع النفس البشرية الشائك بأعماقه المظلمة التي لا قرار لها.. حتى إنني لم أعد أبحث عن الوحوش تحت فراشي كما كنت أفعل في طفولتي.. لأنني أصبحت أراها في كل مكان حولي.. أنا لست مجنونا ولم أتأثر بالمرضى النفسيين الذين أعالجهم كما قد يظن بعضكم.. لكن واقعي يختلف فقط عن واقعكم!!!.

سبب الكتابة المستمرة عن المراهقات تحديدا

لأن في كل مرة تقريبا تجلس أمامي فتاة في سن المراهقة.. أجدها تروي لي أحداثا مذهلة لا تصدق عن حياتها الشخصية.. وأجد في جعبتها أسرارا سوداء يقشعر لها البدن وأحداثا مذهلة لا يعرفها عنها والداها وأفراد أسرتها.. فقررت أن أجمع تلك القصص لأنشرها لكم.

والواقع أيضا أنني شاب مرهف الحس أحمل تقديسا عميقا وقويا للأنثى.. وأراها كائناً رائعاً يحتاج دوما من يفهمه ويخدمه مهما كانت درجة جمالها.. خاصة وأنني أرى أن كل فتاة جميلة.. لكن أحيانا يتطلب الأمر الشخص المناسب ليرى هذا الجمال.. إنني أدافع باستمرار عن الجنس الناعم كما ترون.. ولا أنسى كلام أحد زملاء الدراسة يوما حين ذكر متهكما أن المرأة تمتلك مقدرة عجيبة على تصنّع الرقة والدلال.. لأرد عليه متهكما بدوري: ((والرجل يمتلك مقدرة عجيبة على تصنّع علاقة كاملة!!!)).. فخرس ولم يرد.. نعم.. أنا أشعر بأسف شديد لفتياتنا بسبب مجتمعنا الذكوري الذي يمارس فيه الرجل (وأد البنات) فكريا وعاطفيا.. الحب ممنوع.. العلاقة الشريفة ممنوعة.. الخطأ ممنوع.. إلخ.. فيحاسب الرجل شقيقته بسبب علاقة حب.. بينما هو نفسه قد يكون ارتكب نفس الجريمة ولكن لم يحاسبه أحد لأنه في مجتمع يحاسب الأنثى فقط.. وهذه التقاليد التي نعيشها نتيجتها الحتمية بكل تأكيد هي أن يكون معظم (زبائني) من النساء.. خاصة فئة المراهقات.. لهذا نشرت جزئين من مذكراتي وكل منها تحوي قصصاً وتجارب غريبة سمعتها على لسان معظم المراهقات اللاتي قمن بزيارتي.

جديدي الذي سأقدمه للقارئ

قدمت سابقا مذكراتي في إصدار حمل اسم (حالات نادرة) والذي حقق نجاحا باهرا لم أتوقعه.. لأتجرأ وأقدم (حالات نادرة 2) حيث كان أكثر نجاحا من الجزء الأول لحسن الحظ.. وهأنذا أقدم (حالات نادرة 3) بعد أن شعرت أن الاسم معبر جدا عن تلك القصص والتجارب التي تتجاوز كثيرا قصص الحب المعتادة أو الخلافات العائلية التي تحدث في كل بيت وتترك أثرها النفسي على الأبناء.. وأعتقد أن من قرأ مذكراتي السابقة يتفق معي في ذلك.. علما بأنني استمعت إلى قصص غريبة من بعض المراهقين أيضا وشاركت بعضهم في أحداثها.. ربما سأنشرها لكم لاحقا.. من يدري؟!!.

المشكلة أنني طوال حياتي أكره الروايات المجزأة.. لهذا كنت أتجنب قراءتها دوما في فترة مراهقتي.. لكني وجدت أن قصصي وحياتي بأكملها مجزأة.. فظللت أبحث عن حل وسط.. إلى أن وجدت أن الحل الأمثل هو كتابة مذكراتي في أجزاء على ألا تكون مرتبطة ببعضها.. فكما أقول دوما.. القصة ذات الأجزاء هي التي لا يكتمل معناها إلا في الجزء الثاني أو الثالث.. أما مذكراتي فلا تتطلب الاطلاع عليها كلها.. بل قد يكتفي القارئ بأي جزء منها دون اللجوء إلى التسلسل

الزمني.. فكل ما سيهمه معرفته هو أنني طبيب نفسي أسرد القصص الغريبة التي استمعت إليها على لسان المراهقات اللاتي قمن بزيارتي في المستشفى.. هل القصص حقيقية؟!.. في الغالب نعم.. ظروف القصص نفسها تجبرني على تصديقها.. ومن قرؤوا مذكراتي السابقة شعروا بذلك فعليا.

سبب نشر مذكراتي

الأفكار في رأسي كالوطاويط التي تعيش في الكهوف المظلمة.. إذ تقبع هناك نائمة بهدوء حتى يأتي أي إزعاج فيوقظها لتملأ الكهف صخبا وتطير في كل مكان.. والإزعاج الذي أصابني هو امتلاء رأسي بتلك القصص.. فأصبح كالكوب الذي تحتاج إفراغه حتى تتمكن من ملئه مجددا.

ملاحظات هامة

يجب أن أذكر هنا أن مستشفى الطب النفسي هادئ جدا في الفترة المسائية.. ويختلف فيه الحال تماما عن المستشفى الباطني الذي يكتظ بالمرضى باستمرار.. ولا أبالغ لو قلت إنك قد تسير في ممراته لفترة طويلة دون أن تصادف شخصا

واحدا.. مما يثري الخيال -وأحيانا الرعب- في نفس الزائر.. لهذا نجد أن كل من لديه قصة غريبة أو مشكلة يبحث لها عن حل يزور المستشفى ليلا بعيدا عن أعين المراجعين وخوفا من الفضيحة.. فما زال مجتمعنا يرى زيارة مستشفى الطب النفسي عارا.. وكل من يزوره هو مجنون لا شك.. أما بالنسبة للفترة الصباحية فتسير فيها الأمور بصورة طبيعية ككل المستشفيات.. وتقتصر غالبا على معالجة المشاكل المعتادة من الإدمان وحالات التخلف العقلي والاكتئاب و.. إلخ.

كلمة أخيرة

أنا لا أعدكم بشيء سوى المتعة وراحة البال والفضفضة وأمسية ساحرة لن تنسوها أبدا.. مع معلومات قد يقرؤها بعضكم للمرة الأولى في حياته.. و.. أكره أن أتأخر أكثر على قرائي.. لنبدأ الآن.. ولتقرؤوا 6 قصص تدور أحداثها حول 6 مراهقات تتراوح أعمارهن بين 14 - 20 عاماً تقريباً.. لكن كل قصة منها عالم بحد ذاته.. وحالة فريدة من نوعها.. حالة نادرة!!!.



ظلام!!!

تحكيها: مريم
العمر 19 عاماً

عزيزي القارئ..

قصتنا هذه تدور حول (مريم).. إنها واحدة من نزلاء المستشفى الذين أطلب منهم عادة كتابة قصتهم كجزء من العلاج.. لم يعد يخفى عليكم أنني ألجأ إلى هذا الأسلوب أحياناً.. خاصة مع المريض الذي أشعر أنه بحاجة ماسة لإفراغ مشاعره وأحزانه على الورق.

لقد طلبت من (مريم) أن تكتب قصتها.. وها هي بعد شيء من الإلحاح توافق.. وعندما قرأت ما كَتَبَتْه.. شعرت أنني أغوص حتى قمة رأسي في مستنقع حياتها.. فاحتبست أنفاسي وأثارت كلماتها في داخلي تساؤلات كثيرة.. لذا سأنسحب تماما تاركا لها المكان والقلم.. وستكون لي عودة بعد الانتهاء من قصتها.. قصة (مريم).

الدكتور (.........)

بما إنني نزيلة في مستشفى الطب النفسي.. فسأبدأ قصتي بما قرأته في أحد كتب علم النفس.. وهو إنه لا بد من الوصول إلى طفولة الإنسان وطريقة تربيته حتى نقوم بتحليل شخصيته بصورة دقيقة.. وهذا صحيح تماما.. فحتى القتلة والسفاحون ستجدون في بداياتهم ما دفعهم لارتكاب جرائمهم فيما بعد.. خاصة وأن شخصية الإنسان التي تتشكل شيئا فشيئا منذ طفولته ليست سوى ردة فعل لتربية والديه وتأثير محيطه وبيئته الاجتماعية عليه.

أما أنا فربما أختلف عن باقي الناس.. إذ كان العامل الرئيسي والوحيد لردود أفعالي وتكوين شخصيتي ومعاناتي في هذه الحياة هو أبي فقط!!!.. فهو رجل صارم حاد الطباع لا يمزح أبدا.. من الجيل القديم الذي يظن أن الرجولة هي القسوة والصراخ وإلقاء الأوامر التي يتوقع تنفيذها دون مناقشة.. كان دوما مقطب الجبين غليظ الأسلوب شديد اللهجة في التخاطب.. ولا أذكر أنه قبّلني يوما أو احتضنني أنا أو شقيقاتي.. بل كانت حياته معنا عبارة عن أوامر وتوجيهات علينا كلنا الاستماع لها دون نقاش.

لم تكن تصرفاته تلك تطرفا أو غلوّا في التديّن كما قد يظن البعض.. بل هي طباع اكتسبها من جيله ولم يغيرها أبدا..

إضافة إلى شخصيته الفَظّة أساسا.. هل كان رجلا عابثا إذاً؟!.. لا أعلم.. كل ما في حياته ينطق بالغموض.. وكأنه يتصنع ذلك لإضفاء المزيد من الخشونة والجمود على شخصيته!!!.

لا يمكن أن أنسى كيف كان يتفنن في عقابنا وكأنه ينتظر لحظة الخطأ.. فكم من مرة صفعني في طفولتي.. وكم من مرة ضربني وكأنه يضرب رجلا بالغا!!.. أتذكر أنني كنت أصرخ كثيرا.. ولكن صرخاتي لم تكن تتجاوز قلبي ولم يسمعها أحد سواي.. ولا أنسى أيضا المرات التي رأيته فيها وهو يذل أمي.. فكانت تجري خلفه باستمرار لتخدمه وتكسب رضاه دون أن يوجه لها كلمة شكر أو ثناء على ما تفعله من أجله.

وهنا يجب أن أذكر أن زواج أمي من أبي كان تقليديا جدا.. إذ تقدم أبي لخطبتها دون أن يراها أو تراه.. وقد وافق والدها (جدي) على الزواج دون أن يهتم لرأيها كعادة الجيل القديم.. الطريف أن أمي فرحت كثيرا حينها ولم تعترض أبدا.. إذ كان الزواج هدفا في حد ذاته بالنسبة لها ولم ترَ فيه سوى ليلة الزفاف والتفاف العائلة حولها.

لكن.. منذ أيام زواجها الأولى.. تحطمت تلك الصورة الوردية في مخيلة أمي عن الزواج.. خاصة بعد أن عرفت طباع أبي وأن مهمتها لن تتجاوز خدمته وإنجاب أكبر عدد من الأولاد له..

لكنها بالمقابل أنجبت 5 فتيات كنت أنا أصغرهن وأكثرهن بقاء في البيت بعد زواج شقيقاتي وانتقالهن جميعا لعش الزوجية بعيدا عن جحيم أبي.

وبعد أن يئس تماما من إنجاب الأولاد.. فعل ما يفعله أي رجل من الجيل القديم.. إذ تزوج أبي من امرأة أخرى.. فكانت المفارقة حين أنجبت له الزوجة الثانية 3 أولاد.. إلا أنه لم يكترث أبدا للتقريب بين أبنائه من الزوجتين.. إذ لم ألتقِ بأشقائي هؤلاء سوى مرات قليلة للغاية.. وما زلت أجهل إن كان أبي يعاملهم بذات الطريقة والقسوة.

إنني واثقة من أن أبي يكره أمي ويكرهني أنا وشقيقاتي معها.. لذا فأنا بدوري أعلنها صراحة.. أنا أكره أبي!!!.. نعم.. أكرهه كثيرا.. والكراهية كانت دوماً تمنحني القوة في غياب الأمل.. كيف لا أكره أبي؟!.. إنه الإنسان الذي اختار لي اسمي وحياتي ومستقبلي.. إنه المسؤول عن كل شيء.. هو المسؤول حتى عن دموعي التي تتساقط الآن على الورقة وتلوث بعض الحروف.. قد تصدمكم صراحتي.. لكني لن أجامل الرجل الذي كان سببا في وصولي إلى مستشفى الطب النفسي حيث وجدت السكينة والخلاص أخيرا بفضل ذلك الطبيب الشاب وشخص آخر ستعرفون هويته في نهاية قصتي.

قد يسأل أحدكم عن فترة مراهقتي التي ما زلت أعيشها كوني لم أتجاوز التاسعة عشرة من العمر.. حسنا.. لا أبالغ لو قلت أن أيام المراهقة لم تتغير أبدا عن طفولتي سوى تفاقم الشعور بالتهميش والقسوة التي تحيط بكل جدران البيت.. إذ لا أذكر يوما اتخذت فيه قرارا في أي موضوع.. فكانت كل خطواتي محسوبة.. الخروج ممنوع إلا بضوابط عديدة وتحقيقات لا تنتهي.. علما بأنني لا أخرج أبدا إلا مع أمي وخالاتي.. أما زيارات صديقاتي وزميلات المدرسة فكانت بالطبع ممنوعة تماما.

من الغريب بالفعل أنني لا أذكر حدثاً واحداً مهماً في حياتي أثناء وجودي في بيت أبي.. وهو أمر يثير علامة استفهام كبيرة!!!.. أن تمر سنوات طفولتي ومراهقتي على نفس الوتيرة المملة.. أن أقضي جل وقتي في الدراسة أو أمام شاشة التلفزيون الذي كان مصدر متعتي الوحيد كون صداقاتي كانت دوما تبدأ وتنتهي داخل حدود المدرسة.. حتى التعليم ظل تحت شروط صارمة على أن ينتهي كل شيء بعد تخرجي من المرحلة الثانوية.. فلا جامعة ولا دراسة بعد ذلك.. إنما الزواج فقط.. والعريس يكون من اختيار أبي أيضا.. تماما كحال شقيقاتي اللاتي تزوجن جميعا وابتعدن بحياتهن عن هذا الجحيم.. فلا يزرن بيت العائلة إلا من أجل أمي فقط وعلى فترات متباعدة نسبيا..

حتى إن ارتباطي بهن لم يكن وثيقا بعد أن انشغلت كل منهن بحياتها الأسرية.

ولا أنسى أبدا ذلك اليوم حين فوجئت بأبي يدخل غرفتي بعد تخرجي من المرحلة الثانوية بأسابيع قليلة لـ(يخبرني) بأمر زواجي من ذلك الشاب.. لاحظوا الكلمة التي وضعتها لكم بين قوسين!!!.. فقط لأبين أنه لم يسألني أو يطلب مني الاختيار.. بل أخبرني بصيغة آمرة أنني سأتزوج بعد أيام قليلة من رجل لم أره في حياتي ولا أعرف حتى اسمه.

لا أنكر أنني في البداية سعدت كثيرا بذلك.. ووجدت أنها قد تكون فرصة لأبتعد عن هذا الطغيان والجفاف العائلي الذي أعيشه على أمل ألا تتكرر مأساة أمي معي.. فتم كل شيء في ظرف أسبوع وكأنني عار يريد أبي التخلص منه بأسرع وقت.. تماما كما حدث مع شقيقاتي قبلي!!!.. إذ أقيم حفل الزفاف بحضور عائلي بسيط حين رأيت زوجي لأول مرة والذي تبين أنه ابن لأقرب أصدقاء أبي.. كان شابا وسيما إلى حد ما يحمل دبلوما في المحاسبة ويشغل وظيفة حكومية عادية كما علمت منه فيما بعد.

انتقلت معه بعد الزفاف إلى عش الزوجية الذي لم يكن سوى شقة صغيرة من غرفتين.. حيث عشنا فيها الأسابيع الأولى من

زواجنا قبل أن أكتشفت خلالها أن زوجي هذا لا يعرف معنى المسؤولية.. بل هو نموذج للشاب التافه الذي يخرج طوال الوقت ولا يعود للبيت إلا عند النوم دون أن يكون لديه استعدادا لبذل أي جهد لإسعادي!!!.. إذ كنت بالنسبة له مجرد فتاة موجودة في شقته فحسب.. فتاة تحول لقبها من آنسة إلى سيدة وستكون مسؤولة مستقبلا عن أولاده .. أعرف أنني أتحدث وكأنني أعيش في القرن الثامن عشر.. لكن هكذا كانت حياتي بالفعل في بيت أبي.. وهكذا أصبحت في بيت زوجي الذي لم يكن يختلف كثيرا عن أبي لسوء الحظ سوى في فارق السن.

وليت حياتي الزوجية توقفت عند هذا الحد.. بل تطورت إلى الأسوأ مع مرور الأيام.. حين اكتشفت أن زوجي ليس سوى شاب لعوب يسافر مع أصدقائه باستمرار من أجل المتعة الحرام.. كان هذا واضحا من الوجهات التي يسافر إليها.. والواقع أنني لم أكن أملك لأعترض أبدا.. فاستسلمت لمصيري كحال أي فتاة مهزوزة دمر والدها شخصيتها ولم تعد قادرة على مواجهة الحياة حين أصبحت زوجة.. لتصبح حياتي في شقة الزوجية امتدادا لحياتي في بيت أبي.. فأقضي وقتي كله في المطبخ والتنظيف ومشاهدة التلفزيون في أوقات الفراغ.. إذ لم أكن أملك خادمة بعد أن رأى زوجي أن لا حاجة لها كون

شقتنا صغيرة ولا تحتاج الكثير من الجهد لتنظيفها.. أما من ناحية الخروج.. فلم أكن أخرج إلا نادرا كوني لم أتعلم قيادة السيارات.. بل كنت أعتمد على سائق العائلة الذي أتصل به بين الحين والآخر لقضاء بعض المشاوير الضرورية بعد أن ألقى زوجي كل مسؤوليات شراء حاجيات الشقة على عاتقي.

ربما التغيير الوحيد الذي طرأ في حياتي هو القراءة.. فقد أصبحت لدي فجأة -دون سبب واضح- الرغبة في قراءة الروايات.. ربما هو الملل.. ربما هي الرغبة في بعض التغيير.. إذ رحت أطلب من سائق العائلة أن يأتي ليأخذني إلى كبرى المكتبات بين الحين والآخر لأشتري من الكتب والروايات ما يجذبني عناوينها.. أتذكر أنني كنت أقضي أسابيع طويلة في القراءة لأكتشف باستمرار أن هناك الكثير لأتعلمه.. وأنني ما زلت صغيرة في السن وسأعيش ربما 70 عاما قادما.. فلا يعقل أن أتصرف باستسلام وكأنني عجوز على وشك الموت.. أعرف أن هذه أمور بديهية.. لكن من قال أننا ننتبه دوما إلى البديهيات؟!!.. لذا فقد قررت الاستفادة من قراءاتي تلك والتصرف كفتاة عاقلة مثقفة كحال بطلات الروايات التي قرأتها.

كان هذا بعد مرور أكثر من سنة على زواجنا الجاف البارد

الخالي من الحياة.. حين قررت ذات يوم اتخاذ خطوة إيجابية لأول مرة في حياتي وتقليد بطلة إحدى رواياتي المفضلة.. عندما وقفت أمام زوجي بتردد شديد محاولة التحدث معه بطريقة عقلانية.. فطلبت منه برقة شديدة أن يعاملني كزوجة لا خادمة وأن يمنحني جزءا من اهتمامه ووقته.. إلا أنه راح يسخر مني ومن الكتب التي أقرأها والتي لوثت عقلي على حد قوله.. لكني بذلت جهدا كبيرا لأبدو متماسكة أمامه.. وقمت بالرد عليه وعلى سخريته بالمزيد من الهدوء والمنطق محاولة إثبات وجودي في حياته.. ليجد نفسه عاجزا تماما عن مواجهتي بعقليته التافهة التي لا تعرف سوى اللهو والسفر مع أصدقائه.. فلم يجد بدا من اللجوء إلى الحل الأخير.. العنف بالطبع!!!.. فتعرضت لكل ما يخطر ببالكم من صفع وضرب مبرح.. بل وقالها صراحة ذات مرة إن زواجه مني كان غلطة شنيعة لكنه لا يريد الطلاق إرضاء لوالده!!!.

ساعات وأوقات طويلة قضيتها في الحمام أبكي وأضرب الحائط بكفي قهرا وغيظا لعدم وجود من أحتمي به في هذا العالم المخيف.. أتساءل كيف سأستيقظ من هذا الكابوس إذا لم أكن نائمة أصلا!!!.. وأفكر بالقسوة التي فرضها علي أبي منذ ولادتي.. أفكر بهذا الوغد الذي تزوجته.. وعندما أشعر أن بكائي قد هدأ.. أفكر بأشياء أخرى حزينة لتهييج مشاعري.. وكأنني أجد

متعة في البكاء وتفريغ انفعالاتي.. فأذهب إلى فراشي كل ليلة يائسة آملة أن تحدث معجزة تنتشلني من هذا الضياع!!!.

المعذرة.. لقد نسيت أن أذكر أنني مصابة بداء السكري.. فأنا لست كاتبة قصصية ولا أجيد تسلسل الأفكار رغم قراءتي للعديد من الكتب.. المهم أنني ورثت هذا المرض من جدي رحمه الله.. إنها لعبة الوراثة التي أجهل كل تفاصيلها.. وقد تدربت منذ طفولتي على حقن نفسي بإبرة السكر.. حتى بت أفعلها يوميا دون الاعتماد على أحد.. وبات الأمر جزءا لا يتجزأ من حياتي.. تماما كالأكل والنوم.. إلى أن تعرضت لذلك الحادث.. لا.. لم يكن حادثا مروريا.. بل حادثا بسيطا للغاية لكنه غير تفاصيل حياتي وقلبها رأساً على عقب!!!.

كان هذا أثناء استعدادي للخروج من حوض الاستحمام بعد حمام ساخن اعتدت على أخذه يوميا قبل النوم.. تعرفون كيف يمتلئ حينها الحمام بالبخار وكيف تصبح الأرض زلقة بسبب تكثف الماء عليها.. لقد خرجت من حوض الاستحمام والمناشف تغطي جسدي وشعري.. ثم مشيت باتجاه الباب.. قبل أن تنزلق قدمي وأجد نفسي أطير في الهواء لأقع على ذراعي اليمنى وأشعر بألم شديد كاد أن يفجر أعصابي ودارت بسببه عيناي في محجريهما.

نظرت إلى يدي وأنا أتأوه فوجدتها منتفخة توحي بوجود كسر واضح.. لأول مرة في حياتي أعرف معنى الكسر.. أين زوجي اللعين؟!!.. لم يكن موجودا بالطبع.. بل كان مسافرا مع أصدقائه.. لذا لم أجد بدا من الذهاب إلى المستوصف القريب مشيا على الأقدام وأنا أبذل جهدا خارقا لمقاومة آلام الكسر.. ومن هناك تم تحويلي بسيارة الإسعاف إلى المستشفى حيث وضعت يدي في الجبيرة.. قبل أن أخرج أخيرا وأستقل سيارة أجرة لأعود إلى شقتي.. تصوروا هذه (البهدلة) التي مررت بها.. فقط لوجودي وحيدة في الشقة.. أبي؟؟!.. لم يكن ليكترث أبدا.. لقد رماني في عش الزوجية ونسي كل ما يتعلق بشأني.. لكني اتصلت بأمي -وهي بالمناسبة صديقتي الوحيدة في هذا العالم- حال عودتي لأخبرها بما حدث.. فلم تكن المسكينة تملك ما تفعل سوى الكلام المعسول والدعاء وشكر الله سبحانه وتعالى على أن الأمور انتهت عند هذا الحد.

لم يكن كسر ذراعي هو المشكلة الوحيدة.. بل كانت هناك مشكلة أكبر.. فمن سيحقنني بإبرة السكر؟!.. لا يمكن أن أفعل ذلك بيدي اليسرى.. لقد حاولت وكان الأمر مستحيلا.. لذا ظللت أذهب للمستوصف مشيا لأربعة أيام متتالية من أجل الحقنة.. قبل أن يعود زوجي من السفر ويفاجأ بالجبيرة تلتف حول يدي.. فأخبرته بما حدث.. و.. لا أدري لماذا شعرت

أن إصابتي تلك قد أثارت انتباهه كثيرا.. لقد لاحظته وهو ينظر إلي وإلى ذراعي بشرود وبطريقة غريبة للغاية!!!.. إلا أنني تجاهلت الأمر حينها ولم أعر نظراته تلك اهتماما.. فقد كان هناك أمر أهم.. إذ طلبت منه أن يتعلم كيف يحقنني بنفسه بإبرة السكر إلى أن تُفَكَّ الجبيرة من يدي بعد حوالي أسبوع.. وطمأنته بأن الأمر سهل جدا من الممكن أن يتعلمه في دقائق قليلة إذا استمع إلى تعليماتي.

لقد توقعت منه اعتراضا.. أو أن يقترح أخذي إلى المستوصف يوميا لآخذ حقنتي هناك.. لكني فوجئت به يوافق على طلبي وهو لا يزال ينظر إلي بذات الشرود الغريب!!!.. المهم أن الأمور قد سارت بصورة طبيعية في الأيام الثلاثة التالية بعد أن تعلم زوجي بسرعة تجهيز الحقنة واستخدامها.. ولم تفتني نظرات الاشمئزاز الواضحة في عينيه أثناء قيامه بذلك.. وكأنه ينتظر بفارغ الصبر أن يتم فك الجبيرة من ذراعي بعد أيام قليلة لتعود الأمور إلى طبيعتها.

متى شعرت أن هناك شيئا ليس على ما يرام؟!.. متى بدأت أفهم نظراته الغريبة تلك؟!!.. كان هذا عندما رحت أعبث بأغراضه الشخصية أثناء خروجه للسهر مع أصدقائه وقبل أن يتم فك الجبيرة من ذراعي بيومين فقط.. نعم.. أعترف أنني

أتجسس على زوجي بين الحين والآخر.. ليس من باب الحب أو الغيرة.. بل بدافع الفضول وقتل وقت الفراغ فحسب.. وقد كنت أعثر باستمرار على أمور مخزية بالفعل أثناء عمليات البحث تلك.. أدوات جنسية أشمئز من الحديث عنها.. صور مختلفة له في جهاز (IPad) الخاص به مع مجموعة من الفتيات في البلدان التي يسافر إليها مع أصدقائه.. فقط لأكتشف يوما بعد يوم مدى خيانته وسخافته وفجوره.. وأن الذين لا يعرفون قيمة الوفاء.. لا يدركون أبدا ثمن الخيانة!!!.

المهم أنني وأثناء بحثي هذه المرة في دولابه.. عثرت على شيء مختلف تماما.. قارورة زجاجية صغيرة مريبة الشكل.. طُبعت عليها كلمات انجليزية بخط منمنم دقيق جدا.. أنا لا أجيد الإنجليزية ولا أعرف منها سوى ما تعلمته في المدرسة.. لذا جلست أمام شاشة الكمبيوتر.. ورحت أبحث عن معنى الكلمات المكتوبة على القارورة في محرك البحث (جوجل).. عيناي تتسعان تدريجيا ومعاني الكلمات تتحول إلى جمل مقتضبة لكنها واضحة لا تحمل تأويلا آخر.. إلى أن تحولت دهشتي هذه إلى صدمة حقيقية حين عرفت أن القارورة تحوي مادة سائلة تحقن في الجسد.. تماما كإبرة السكر.. لكن هذه المادة -كما هو مكتوب عنها- تبطئ دقات القلب إلى أن تتسبب بموت من يُحقن بها!!!.

من أين جاء زوجي بهذه القارورة؟!.. هل.. هل يخطط لقتلي مثلا؟!!.. إنه لا يبتغي مني ورثا.. وأنا لا أشكل عليه عبئا من أي نوع كونه يعيش حياة العزاب أصلا.. كما أن مصاريف الشقة محدودة لا تتجاوز الإيجار والمستلزمات الضرورية.. أما أنا فلا أطلب منه المال أبدا.. بل تساعدني في ذلك والدتي إذا ما احتجت شيئا لنفسي.. لماذا يرغب بقتلي؟!!.. لماذا؟!.. لا أعلم.. الآن فقط فهمت نظراته الغريبة وشروده حين طلبت منه أن يتعلم حقني بإبرة السكر.. لقد طرأت في ذهنه حينها فكرة قتلي كما يبدو!!!.. أعلم أنه شاب تافه أناني لعوب.. لكن.. هل هو قاتل أيضا؟!.. هل يعقل أن يفكر بهذه الطريقة؟!.. كنت قلقة.. مرعوبة.. وذهني منشغل تماما بتلك التساؤلات.. لكني لم أطرحها عليه حين عاد إلى البيت في وقت متأخر كعادته.. بل فضلت ألا أكشف له عن علمي بذلك.. كنت أحتاج المزيد من الوقت لأفكر قبل أن أقرر ما سأفعله.

في اليوم التالي مباشرة.. وبعد عودته من العمل وتناوله الغداء.. جلس قليلا أمام شاشة التلفزيون.. ثم دخل غرفة النوم بعض الوقت.. لأسمع بعدها باب الحمام يغلق بهدوء.. لا أدري لماذا سيطر علي حينها هاجس مجهول وأشعرني أن هناك شيئا مخيفا يجري دون علمي.. لذا هرعت بدوري إلى غرفة النوم والشكوك تملأ رأسي.. لأفاجأ بزوجي وقد أعد

الحقنة قبل ذهابه للحمام!!!.. لماذا يبدو متحمسا إلى هذه الدرجة لإعداد الحقنة؟!.. ولماذا لم يجهزها أمامي؟!.. كانت تلك التساؤلات والشكوك تقود إلى استنتاج واحد لا يحتاج الكثير من الذكاء.. اتجهت إلى دولاب زوجي مباشرة.. لأجد القارورة وقد نقص محتواها قليلا.. الدلائل واضحة جدا ولا تحتمل تفسيرا آخر.. هل يعقل أن يصل الأمر إلى جريمة قتل؟!.. لماذا أيها اللعين.. لماذا؟!!!.

جلست بأعصاب مشدودة متوترة أفكر بما يجب فعله.. فاتخذت أول رد فعل تلقائي حين ذهبت إلى المطبخ بسرعة وأخذت أقل السكاكين حجما وأكثرها حدة لأخبئها في ثيابي.. لحسن الحظ أن فستان البيت يحوي جيبا صغيرا.. لكن.. شعرت أن ما فعلته سخيفا.. أحتاج أن أفكر بطريقة أكثر عملية.. هل أهرب من الشقة وأذهب بتلك الحقنة والقارورة إلى مخفر الشرطة؟!.. أطرح هذا السؤال على نفسي وأنا أقضم أظافري بتوتر شديد.. المشكلة أنني لم أجد الوقت لأتخذ القرار.. إذ خرج حينها زوجي من الحمام منتعشا مرتديا روب الاستحمام مع منشفة راح يمسح بها شعره.. قبل أن يطلب مني بطريقة باردة آمرة أن أجلس استعدادا للحقنة!!!.

نظرت إليه بذهول وكأنني لا أصدق أن شيئا كهذا يحدث لي.. ثم انتفضت فجأة.. وجاء رد فعلي الطبيعي بالرفض والتراجع إلى أن التصقت بالحائط وأنا أطلب منه -أمام نظراته المستغربة- أن يبتعد عني.. إذ لم أجد حينها بدا من مواجهته.. فأخبرته بأمر القارورة التي عثرت عليها.. وأن الأمر واضح لا يحتمل تفسيرا آخر.

الغريب أنه لم ينكر!!!.. ولم يبرر.. بل كشر عن أنيابه فجأة.. وراح يقترب مني بطريقة مرعبة وهو يمسك بالحقنة.. لذا فعلت أول ما خطر بذهني.. أخرجت سكين المطبخ من جيبي وهددته ألا يقترب مني وإلا سأطعنه!!!.. لكنه بدا واثقا أنني لن أجرؤ على فعلها.. فلست سوى فتاة هزيلة تملك يدا واحدة فحسب بسبب وجود ذراعي الأخرى في الجبيرة كما تعلمون.. لذا لم يكن من العسير أن يسيطر علي ويكبّل حركتي.. فأحاطني بذراعيه.. وأجلسني على الأرض عنوة.. وراح يحاول أن ينتزع السكين من يدي إلى أن وقعت على الأرض.. ثم أمسك بالحقنة بصعوبة بسبب مقاومتي المستمرة له.. واقتربت يده لتحقنني وأنا أصرخ بيأس عاجزة عن منعه.

لقد قرأت منذ فترة إننا حين نغضب.. تتغير معدلاتنا الحيوية بشكل واضح.. فتزداد سرعة ضربات القلب.. ويصبح تنفسنا

أسرع.. ونشعر بحرارة كبيرة تفور من داخلنا.. ويكتسى الوجه باللون الأحمر.. حسنا.. أعتقد أن هذا ما شعرت به لحظتها.. إذ يبدو أن الرعب قد تحول إلى غضب مفاجئ انفجر كالبركان في داخلي.. خاصة عندما استخدمت يدي المصابة لأمنعه من حقني.. في حين راحت يدي السليمة تبحث عن السكين التي سقطت بقربي.. إلى أن عثرت عليها.. فأمسكت بها وأحكمت قبضتي حولها بسرعة ثم طعنته في خاصرته بكل قوتي!!!.

كانت لحظات سوداء مخيفة لن أنساها أبدا.. أرمق زوجي بعينين متسعتين وخاصرته تنزف بغزارة لتملأ دماؤه الأرض وهو يرتجف ويلفظ أنفاسه الأخيرة!!!.. ليبدأ بعدها مسلسل الصراخ والبكاء والنحيب وأنا أشد شعري بيدي من القهر والظلم الذي أعيشه في حياتي.. خاصة مع مرض السكر الذي يسبب عادة المزيد من العصبية والتوتر.. فلكم أن تتخيلوا حالتي حينها!!!.

لم يكن هناك بدا من الاتصال بأبي بعد كل ما حدث.. ربما هي المرة الأولى في حياتي التي أطلبه فيها هاتفيا.. يدي ترتجف بعنف شديد وهي ممسكة بالسماعة.. هاتفه النقال يرن.. ويرن.. إلى أن سمعت صوته أخيرا على الطرف الآخر وهو يرد بصرامته المقيتة المعتادة.. فأخبرته سريعا بما حدث وأنا أشهق

وألهث من هول ما عانيته.. ولا أدري حتى الآن كيف استوعب كلامي المبعثر الذي تخلله كل هذا الصراخ والنحيب.. والواقع أنني لا أذكر ردة فعله حينها.. فقط أذكر سكوته الطويل وشهقاته.. مع الكلمات التي غمغم بها والتي لم أفهم منها حرفا.. أبي الصارم الذي كنت أظن أن لا شيء في هذا العالم يخيفه.. يصاب بصدمة كهذه؟!!.. أمر لا يصدق.

ماذا حدث بعد ذلك؟!.. المشهد المعتاد في عالم السينما وغير المعتاد في حياتنا اليومية!!!.. سيارة الإسعاف.. الشرطة.. وجود أبي في شقتي وهو الذي لم يزرني أبدا من قبل.. ولا أنسى ذهابنا جميعا بعد ذلك إلى المخفر للتحقيق المطول الذي شرحت فيه للمحقق كل ما حدث.. وكيف أنني دافعت عن حياتي ومنعت زوجي من حقني بذلك الدواء الذي كان سيتسبب بقتلي.. وأخبرته كذلك عن حياة زوجي الماجنة وخيانته وضربه المستمر لي.. في حين يجلس أبي خارج غرفة التحقيقات والذهول جعله عاجزا تماما عن التصرف.. وأكاد أقسم إنه كان يفكر بعلاقته مع صديقه أكثر مما حدث وما سيحدث لي.. لا تنسوا أن زوجي هو ابن أقرب أصدقاء أبي.. أما أهل زوجي فلن أتحدث عنهم كثيرا.. يكفي أن نعلم أنهم كانوا يشعرون بالخزي لما فعله ولدهم كما علمت من أمي.. والواقع أن مشاعرهم تلك لم تكن لتهمني كثيرا في كل الأحوال.. إذ كانت

علاقتي بهم سطحية كوني لم أزرهم يوما إلا برفقة زوجي أثناء لقاءاتهم الدورية.. حيث كنت دوما صامتة متحفظة كحال أي فتاة تربّت على العزلة وعدم الاختلاط بالآخرين.

كانت التحقيقات طويلة.. تم على إثرها إخلاء سبيلي بكفالة مالية بسيطة على أن يصدر الحكم بعد ذلك في قضيتي.. حيث طمأننا المحامي -وهو أحد أقاربي بالمناسبة- إنني ارتكبت جريمتي في حالة دفاع واضح عن النفس ومن المؤكد أن يصدر الحكم مع وقف التنفيذ أو ربما غرامة مالية بسيطة.. خاصة بعد فحص الحقنة والقارورة التي أكدت كلامي وبعد فحص الرضوض والكدمات في جسدي.. أما سبب محاولة ارتكاب زوجي لجريمة القتل فظل لغزا مبهما لم نعرف إجابته أبدا!!!.. إذ لم يكتشف رجال الشرطة الدافع وراء ذلك.

المهم أنني رجعت إلى بيت أبي مرة أخرى بعد تلك الحادثة وبعد أن أصبحت أرملة.. رجعت إلى صرامته وقسوته.. وشعرت أنه أصبح أكثر سوءا وبرودا من قبل.. وكأنني المذنبة في ما حدث.. لكني لم أكترث هذه المرة لقسوته.. فعلى الأقل كنت أدرك أنني بمأمن هنا في البيت الذي عشت فيه منذ ولادتي.. لذا حاولت أن أمارس حياتي المعتادة التي عشتها قبل الزواج حتى أنسى تلك الجريمة البشعة وكوابيسها التي ظلت

تطاردني أياما طويلة.. فكنت أقضي وقتي بأكمله أمام شاشة التلفزيون.. أو القراءة.. وأحيانا كثيرة أساعد أمي والخادمة في أعمال البيت.. ولا أنسى أيضا حنان أمي وحضنها الدافئ الذي كان له مفعول السحر على حالتي النفسية.. لكن رغم كل شيء.. ظل عقلي يطرح ذلك السؤال بين الحين والآخر.. لماذا أراد زوجي أن يقتلني؟!.. لماذا؟!.. سؤال ظل دون إجابة.

مرت قرابة السنة على تلك الحادثة لم يحدث فيها ما يستحق الذكر سوى أنني تجاوزت الأيام السوداء التي عشتها مع زوجي وما حدث فيها.. قبل أن يتقدم ذلك الشاب لخطبتي.. لم يكن العريس من اختيار أبي هذه المرة.. بل هو ابن قريبة أمي التي كانت تعلم بمأساتي.. وكانت ترى أنني فتاة طيبة القلب تعرضّت لظلم شديد في حياتي.. وأنني من الممكن أن أكون زوجة مناسبة لولدها.. حتى إن أمي سألتني رأيي قبل أن تخبر أبي بالأمر.. فوافقت بعد شيء من التفكير نظرا لسمعة الشاب الطيبة آملة أن يكون زواجي الثاني أوفر حظا.. ولحسن الحظ وافق أبي مباشرة.. وكأن وجود ابنة أرملة في بيته حمل ثقيل يريد التخلص منه بأي طريقة.. فتم كل شيء بصورة سريعة ودون حفل زفاف.. لأنتقل مباشرة إلى عش الزوجية الجديد.. وإلى الشقة الجديدة التي استأجرها زوجي لنبدأ منها حياتنا.

أعترف أنها كانت المرة الأولى التي أرى فيها الرجولة والحنان مجتمعين!!!.. فقد كان زوجي طيب القلب بالفعل.. وبدا واضحا أنه يشعر نحوي بالأسف الشديد لما عانيته.. حتى إنه ظل يسألني كثيرا عن تفاصيل قصتي مع زوجي السابق وعن محاولته قتلي وكيفية تمكني من مقاومته وقتله بالمقابل.. فكنت أعيد له القصة باستمرار وأتحدث عن مشاعري وآلامي وكيفية تجاوزي تلك المحنة.. كما أخبرته أيضا عن قسوة أبي علي وعلى شقيقاتي.. وما فعله بنا وبأمي.. ولا أنكر صدمتي المروعة حين لمحت دمعة هربت من عينيه لا شعوريا.. رجل يبكي؟!!.. لم أرَ شيئا كهذا في عالم الواقع.. ظننت أن الرجال لا يبكون إلا في القصص والأفلام!!.

حقا أن الشهور الأولى من زواجي الثاني هي أجمل أيام حياتي.. بل وأعترف أنني كنت أبتسم فيها كثيرا لوحدي.. وأكثر ابتسامات المرء صدقا هي تلك التي يطلقها حين يكون وحيدا.. لقد شعرت أنني عرفت معنى السعادة أخيرا بعد أن طويت صفحة قسوة أبي وزواجي السابق إلى الأبد.. وأن الأيام القادمة لن تأتي لي سوى بالتعويض من زوجي الحنون على كل ما قاسيته في حياتي.

هناك لحظات من حياتك تتمنى أن يقف عندها الزمن لتعيش

فيها إلى الأبد.. إلا أن هذا لا يحدث في عالم الواقع مع الأسف.. فكم كنت أتمنى أن أقف عند هذا الحد لأخبركم أن هذه هي النهاية السعيدة لقصتي بعد سنوات عشتها بين المعاناة والقسوة.. لكن هناك المزيد.. إذ لم أكن أعلم أنني موعودة بقصة جديدة هزت فترة استقراري الوحيدة في حياتي وقذفت بي إلى المجهول!!.

كان هذا بعد مرور 5 شهور على زواجي الثاني المستقر الهادئ وقد تغيرت حالتي النفسية كثيرا إلى الأفضل بسبب زوجي الذي كان له مفعول السحر على حياتي.. أتذكر أنني في تلك الليلة كنت أجلس على فراشي باسترخاء شديد أشاهد فيلما عربيا شدتني أحداثه.. في حين يجلس زوجي في صالة الشقة يشاهد بدوره مباراة في كرة القدم راح يتفاعل معها بحماس شديد.. قبل أن يتبادر إلى مسامعي فجأة صوت عميق لم أعرف مصدره يقول بحزم مخيف:

- إنك لي وحدي.. ولن أسمح لك أن تهنئي في حياتك مع رجل آخر!!!.

لا يحتاج الأمر لكثير من الذكاء لمعرفة صاحب هذا الصوت.. نعم.. كان هو.. زوجي السابق!!!.. الرجل الذي خطط لقتلي لكني قتلته بالمقابل.. إنه صوته دون أدنى شك.. كيف سيكون

شعور أحدكم لو سمع صوت شخص يدرك يقينا أنه ميت؟!!.. ما الذي سيدور في أذهانكم حينها؟!.. بكل تأكيد عالم الأشباح والجن والشياطين وكل ما هو مقزز.

لكم أن تتخيلوا ردة فعلي حينها وحالة الرعب التي أصبت بها.. والصراخ الذيَ أثار قلق زوجي.. إذ هرع إلى الغرفة ليعرف ما دهاني.. لكنه رآني متجمدة في مكاني وفي عيني دمعة على وشك النزول.. فأمسكني من كتفي وهزني برفق وهو يسألني بقلق عما دهاني.. تطلب الأمر بعض الوقت لأستدرك نفسي وأصفي ذهني من حالة الذهول والشلل الفكري الذي أصابني لأخبره بما سمعته للتو وبصوت مرتجف يقطر رعباً!!!.. نظر إلي باستغراب للحظة.. ثم لانت ملامحه وهو يقول مبتسما بحنان:

- لا يمكن يا حبيبتي.. إنها مجرد أوهام.. أنا لم أسمع شيئا.. ثم إن الموتى لا يعودون إلى الحياة.. هذا مستحيل.. لكني لن ألومك على كل حال.. فما تعرضت له لم يكن هينا أبدا.

أجهشت في البكاء فجأة مفرغة كل انفعالاتي.. وقلت والدموع تنحدر من عيني بغزارة:

- أنت لم تسمع شيئا لأن صوته لم يكن مرتفعا.. بل كان قريبا من الهمس.. أقسم لك إنني سمعته جيدا.. إنه صوت زوجي السابق.. شعرت به قادما من أعماق الجحيم..

أرجوك صدقني.. أرجوك صدقني.. أرجوك صدقني!!!.

رحت أرددها دون أن يتوقف جسدي عن الارتجاف.. فاحتضنني بقوة ليهدئ من روعي.. وأخبرني أنني -ربما- أحتاج إلى بعض التغيير في حياتي.. لذا وعدني بتقديم إجازة قريبا لنسافر معا بعض الوقت.. واقترح أيضاً بعد شيء من التفكير أن يبحث لي عن عمل يناسب شهادتي لأقتل الفراغ في حياتي والذي يجعلني عرضة للوساوس على حد قوله.. فوجدت اقتراحه هذا يستحق التفكير بعد أن أثر بي حنانه كثيرا لدرجة أنه نجح في إقناعي أن ما سمعته كان مجرد وهما.. إذ تخاذلت بالتدريج.. لأقضي الليلة ملتصقة به بعد أن أحاطني بذراعيه ليشعرني بالأمان.. و.. غرقت أخيراً في عالم الأحلام.

في اليوم التالي.. كانت ساعات الصباح الأولى كابوسية.. خاصة بعد ذهاب زوجي إلى عمله.. لا.. لم يكن الأمر متعلقا بحادثة الأمس.. بل حادثة اليوم!!!.. نعم.. فقد سمعت صوت زوجي السابق مرة أخرى بوضوح شديد وهو يتوعدني بالانتقام.. كنت حينها آخذ حماما ساخنا بعد استيقاظي من النوم.. عندما سمعت صوته فجأة وأنا مغمضة العينين بسبب الصابون الذي ملأ وجهي.. لكم أن تتخيلوا شعوري حينها!!!.. إذ غسلت وجهي بالماء كالمجنونة.. ثم خرجت من حوض

الاستحمام بهلع وارتديت ثيابي وأنا ألتفت حولي وأقرأ بعض الأدعية بصوت مرتفع.. قبل أن أخرج من الحمام أخيرا!!!.

أتذكر أنني اتصلت بزوجي مباشرة في عمله ورحت أخبره بصوت باك وجسد يرتجف أن تلك الحادثة الغريبة قد تكررت!!!.. وأنني سمعت صوت زوجي السابق في الحمام هذه المرة.. وكأن روحه تطاردني.. لكنه لم يصدقني.. وظل يكرر أن ما يحدث لي هو نتاج سنوات من الضغوط النفسية ومن تجربتي مع زوجي السابق.. الأمر الذي أوصلني لتلك المرحلة من الأوهام والتهيؤات.. فطلب مني بحنان أن أتمالك أعصابي وأن أقرأ القرآن الكريم إلى أن ينتهي من عمله ويعود.. كما أخبرني أنه قدم على إجازة بالفعل وسيقضيها بالكامل معي ليساعدني على تجاوز تلك الأوهام على حد قوله.

لم أملك ما أفعله حينها سوى أخذ نصيحته بعين الاعتبار.. خاصة مع كلماته الرقيقة التي أشعرتني بوجود شخص يهتم لأمري ويحبني.. وهو شعور لم آلفه من قبل كما تعلمون.. المهم أنني جلست في غرفتي أقرأ أجزاء من القرآن الكريم بصوت مرتفع وأنا ألتفت يمينا ويسارا بذعر شديد.. وأتساءل في قرارة نفسي.. هل ما سمعته حقيقي؟!.. أم أنني أعاني من مشكلة نفسية ما؟!.. أطرح تلك التساؤلات وعيناي تختلسان

النظر إلى الساعة المعلقة على الحائط.. أنظر إلى عقرب الثواني الذي يسير ببطء غريب منتظرة بقلب مضطرب عودة زوجي.. إلى أن عاد من عمله أخيرا في فترة الظهيرة.. فذهبت لاستقباله عند باب الشقة وارتميت في أحضانه وأنا أبكي وأرتجف.

كيف سارت الأمور بعد ذلك؟!.. سارت إلى الأسوأ بالطبع.. خاصة في اليوم التالي حين سمعت صوت زوجي السابق للمرة الثالثة!!!.. المخيف أن الصوت هذه المرة كان أثناء نومنا وفي وقت متأخر من الليل.. تخيل أن تكون نائما مطمئنا في فراشك والظلام يخفي كل معالم الغرفة.. لتسمع صوت شخص -تعلم يقينا أنه ميت- يتوعد بقتلك.. هذه الحادثة تحديدا كانت أقوى مما يمكننا احتماله.. لأن زوجي سمع الصوت أيضا!!!!.. نعم.. ولو كان هناك أي شك في قواي العقلية فإن هذا الشك قد انتفى تماما الآن.. إذ نهض زوجي وهو يبسمل ويحوقل.. ثم أنار الغرفة وهو يبحث حوله بذعر عن مصدر ذلك الصوت دون أن يجد أحدا.. لقد كانت تلك الليلة تحديدا من أكثر ليالي حياتنا سوادا.. إذ كانت المرة الأولى التي أرى فيها زوجي قلقا يشعر بالخوف لما سمعه بنفسه وقد تأكد أنني لم أكن واهمة أبدا!!!.

المشكلة أن الأيام القليلة التي تلت تلك الحادثة كانت أكثر

رعبا.. إذ بتنا نسمع صوت زوجي السابق أكثر من مرة في اليوم!!!.. حتى كاد الأمر أن يقودنا إلى حافة الجنون.. وهذا ما جعلنا نقضي معظم أوقاتنا خارج الشقة.. فكنا نتناول الغداء والعشاء في المطاعم.. ونبحث طوال الوقت عن مخالطة الناس والابتعاد عن العزلة.. بل إنني طرحت فكرة الانتقال إلى شقة أخرى.. لكن اقتراحي بدا سخيفا للغاية.. خاصة حين نبهني زوجي إلى حقائق بديهية لم أنتبه لها.. فهذه ليست نفس الشقة التي عشت فيها مع زوجي السابق بطبيعة الحال.. وهذا يعني أنه على الأرجح يطاردنا أينما كنا!!!.. فكيف تهرب من شبح؟!.. نعم.. لم يكن هناك أي تفسير لما يحدث سوى الأشباح.. هذا واضح ولا يحتاج إلى ذكاء!!!.

ظللنا نطرح كل الاحتمالات والتفسيرات دون أن نصل إلى نتيجة.. إلى أن حان موعد إجازة زوجي أخيرا.. حيث اقترح -توفيرا للمال وبدلا من السفر- أن نخرج من مستنقع الرعب هذا ونذهب إلى شاليه صغير يمتلكه أحد أصدقائه في منطقة (الجليعة) لتصفية أذهاننا والابتعاد عن شقتنا التي تسممت أجواؤها تماما بعد تلك الأصوات المخيفة.. على أن نستغل فترة وجودنا هناك ونفكر بذهن صاف عن حل للأحداث التي نمر بها.. وإن كنا لا نعلم أصلا إن كان زوجي السابق سيلاحقنا إلى هناك!!!.

وهنا يجب أن أعترف أنني مدينة لزوجي الحبيب كثيرا.. إذ لم يتذمر أو يعاملني كحمل ثقيل جاثم على قلبه بسبب ما نتعرض له.. بل -وعلى العكس تماما- كان شهما بالفعل.. وبدا واضحا أنه يحبني.. إذ تبين هذا حين وضع اقتراحه قيد التنفيذ في عطلة نهاية الأسبوع والتي سمعنا قبلها صوت زوجي السابق مرتين على الأقل وهو يهددنا بالقتل والمصير الأسود!!!.

لن أدخل في تفاصيل الاستعداد والتجهيز للذهاب إلى الشاليه.. بل سأتحدث عن شعوري حال وصولنا هناك في أول أيام إجازة زوجي.. إذ كان للمكان مفعول السحر على حالتي النفسية رغم بساطته الشديدة.. فالشاليه صغير جدا ومن طابق واحد.. يحوي غرفتين فحسب لكنه بدا لي وكأنه قصر تاريخي عظيم لم أكن لأمانع أن أقضي فيه حياتي بأكملها.. خاصة مع نظافته الواضحة وأثاثه الجميل.

والرائع في الأمر هو ذلك الهواء المالح الجميل الذي تغلغل إلى رئتي وغسل روحي نفسها وطهرها مما بات يجري لي مؤخرا.. فانعكس هذا تماما على حالتي النفسية التي تحسنت فجأة بعد وصولنا ووضع كل حاجياتنا في أماكنها المخصصة.. حيث قمنا بعدها بإعداد غداء خفيف من الساندويتشات التي

تناولناها على الشاطئ وصوت أمواج البحر يحرك خيالاتنا.. فسرح كل منا في عالمه الخاص دون أن نتحدث تقريبا.. ثم قضينا بعدها بعض الوقت في الشاليه نشاهد التلفزيون.. إلى أن جاء المساء فخرجنا مرة أخرى لنمشي على الشاطئ ونتأمل البحر الذي بدا لنا في الظلام جميلا مع بعض الإنارات البعيدة هنا وهناك من بعض القوارب.. ولا ننسى رائحة الشواء الزكية التي تنبعث من بعض الشاليهات القريبة والتي تشعرك بالجوع حتى وإن كانت معدتك ممتلئة.

عدنا في العاشرة مساء إلى الشاليه بعد ليلة جميلة لم يحدث ما يعكر صفوها سوى ما حدث عند ذهابنا إلى النوم!!!.. نعم.. فقد سمعنا صوت زوجي السابق مرة أخرى وهو يخاطب زوجي ويطلب منه بنبرة تهديد واضحة أن يطلقني ويتركني لحال سبيلي لأنني لست له!!!.

من المرعب والمؤلم بنفس الوقت أن تحاول الهرب من المصائب فتلحقك أينما تذهب.. وهذا ما جعل أجواء الشاليه تتلوث فجأة بأنفاس الخوف حتى بت أرى كل شيء فيه وكأنه كابوس!!!.. لذا فقد ارتدينا ثيابنا على عجالة لنخرج مرة أخرى ونجلس على الشاطئ.. إذ لم نحتمل بقاءنا في الشاليه بعد سماعنا لذلك الصوت.. ماذا سنفعل أمام هذه التهديدات التي

لا ينفع معها حتى الهرب لمكان آمن؟!.. أين سنذهب؟!.. بل ماذا سأفعل أنا حين تنتهي إجازة زوجي ونعود إلى الشقة؟!.. الأمر متروك لخيالكم؟!!!.

كنا تائهين تماما ونحن نجلس على الشاطئ في الظلام ونفكر بصمت بما يجب فعله.. نسمع ونرى مياه البحر تصطدم بالشاطئ وتعود.. ألتفت إلى زوجي فأجده غائب الذهن ينظر إلى البحر بقلق واضح بسبب تلك التهديدات التي لا نعرف كيف ستنتهي.. ثم.. نهض فجأة ونظرات الشرود واضحة على ملامحه ليخبرني بحاجته للذهاب إلى الحمام.. فنظرت إليه أثناء ابتعاده عني.. ولا أدري لماذا دار ذلك الخاطر في ذهني فجأة.. أن تكون لزوجي الحالي علاقة بما يحدث حولنا!!!.. هل له علاقة ما بزوجي السابق مثلا ويريد أن يثأر له؟!.. أجد هذا عسير التصديق وغير منطقي.. ولكن.. ألم يحاول زوجي السابق قتلي دون سبب منطقي أيضا؟!.. لا أعلم.. لا أعلم.. تساؤلات عديدة ظللت أطرحها على نفسي دون أن أجد لها إجابة واضحة.

لم يكن هناك الكثير لأضيفه.. فقد استمر بعدها جلوسنا على شاطيء البحر حتى الواحدة فجرا.. حيث شعرنا حينها بالإرهاق والرغبة الشديدة في النوم.. مما يعني عودتنا إلى

الشاليه بالطبع.. لم يكن هناك حل آخر.. فلا يمكن أن ننام في العراء أو على الشاطئ مثلا.. كما أن العودة إلى شقتنا لن تغير شيئا بعد أن اتضح أن زوجي السابق يطاردنا في كل مكان.. لذا ذهبنا مستسلمين إلى الشاليه وإلى غرفة النوم تحديدا والتي بدت لي لوهلة وكأنها استوديو لتصوير فيلم رعب!!!.

لقد حاولنا أن ننام بوجود إضاءة خافتة نسبيا تكشف لنا كل زوايا الغرفة تقريبا.. لكن هيهات.. خاصة بعد أن سمعت صوت زوجي السابق يتحدث بوضوح شديد في مكان ما من الغرفة ويخبرني أن موعد قتلي اقترب كثيرا!!!.. لا.. لم يكن وهما أبدا.. لأن زوجي سمع هذا الصوت أيضا.. فقد رأيت نظراته المتصلبة الخائفة التي باتت تتكرر كثيرا هذه الأيام.. ولو رأى ثعباناً على الفراش لما بدت في عينيه تلك النظرة.. لذا رحنا نتحدث -ونحن نلتفت حولنا ونقرأ المعوذات- عن الخيار الأخير الذي اقترحته على زوجي.. اللجوء إلى رجل دين عله يتمكن من مساعدتنا.. المشكلة أن هذه الفكرة تلاشت تماما من أذهاننا عندما سمعنا صوت أحدهم يطرق باب الشاليه فجأة!!!.

لا أنكر أن صوت طرقات الباب جعلني أقفز من فراشي قفزا وأنا أنظر إلى زوجي بعينين مرعوبتين.. من الذي سيزورنا في

مثل هذا الوقت؟!.. فعلى حد علمي لا أحد يعلم بوجودنا هنا سوى صاحب المكان وهو صديق زوجي كما علمنا.. هل الزائر هو أحد أقاربه ولم يكن يعلم بوجودنا هنا مثلا؟!!.

قطع زوجي تساؤلاتي تلك وهو يقول بتوتر شديد:

- سأذهب لأعرف هوية الزائر.

عندها فقط تذكرت التهديد الذي سمعناه منذ قليل.. فأمسكت بثياب زوجي بقوة.. إنه.. إنه زوجي السابق دون شك وقد جاء لينفذ تهديده أخيرا!!!.. قلتها وأنا أرتجف وشفتاي تصطكان ببعضهما بقوة.. فنظر إلي وقد شعرت أنه بدأ يفقد تماسكه وأن المنطق انهار تماما من عقله.. يا إلهي.. هل يعقل أن يكون زوجي السابق قد عاد من الموت.. هذا مستحيل.. مستحيل تماما!!!.

لاحظ زوجي ارتجافي الشديد.. فوضع يده على كتفي محاولا طمأنتي.. لكن هذا أصابني بخوف أكبر.. لأن يده كانت متعرقة مرتجفة وهو يقول بصوت يشوبه إصرار مهزوز:

- الموتى لا يعودون إلى الحياة أبدا.. ثم كيف نسمع صوته في الداخل في حين يأتي هو من الخارج ليطرق الباب.. وهل سيحتاج أن يطرق الباب أصلا؟!!!.

بدا كلامه مقنعا ومنطقيا للغاية.. لكنه لم يكن كافيا لتنتفي مخاوفي.. خاصة مع ملامحه التي تقطر رعبا!!!.. ثم.. طلب مني بتوتر أن آتي معه بعد أن أرتدي عباءتي وألا أظل في الغرفة لوحدي.. فامتثلت لكلامه.. وتوجهنا معا إلى باب الشاليه وأنا أمسك بزوجي من ثيابه وكأنني طفلة خجول ترى أناس لم تلتق بهم من قبل.. اقتربنا ناحية الباب.. و.. توقعت من زوجي أن يسأل عن هوية الطارق.. لكنه لم يفعل.. بل وضع يده على المقبض وهو يتنفس بعمق وكأنه يحاول إفراغ توتره.. ثم فتح الباب فجأة وبسرعة!!!!.

لم.. لم.. يحتمل قلبي رؤية من يقف خلف الباب.. إذ شعرت أن الأكسجين لا يذهب إلى دماغي وأن معدتي ستهضم نفسها من شدة الرعب*.. لذا فقد أغمى علي مباشرة دون أن أتمكن من معرفة هوية الزائر!!!.

* على سبيل التحذلق أقول إنه من المعروف علميا أن المعدة تهضم الطعام بفضل العصارة الهاضمة التي تفرزها.. والسؤال الذي يطرح نفسه: المعدة نفسها من لحم.. فلماذا لا تهضمها تلك العصارة الهاضمة؟!.. السبب في ذلك يعود إلى أن جدار المعدة الداخلي مغطى بغشاء مخاطي يحميها من تأثير العصارة الهاضمة.. وإذا ضعف هذا الغشاء المخاطي لأي سبب فإن العصارة الهاضمة تصل إلى جدار المعدة وتؤثر فيه.. وهذا ما يسمى بالقرحة.

كم من الوقت ظللت فاقدة الوعي؟!.. لا أعلم.. لكني استيقظت فجأة لأجد نفسي في المستشفى!!!.. حيث يجلس زوجي بجانبي وهو ينظر إلي بحنان بالغ.. التفت إليه بنظرات متسائلة وقد تذكرت فجأة أين كنت قبل أن أفقد وعيي.. فسألته بذعر وأنا أنهض من مكاني:

- ما الذي حدث؟!.. أين.. أين زوجي السابق؟!!.. ألم يكن هو الزائر؟!!.

رد بعينين دامعتين:

- حبيبتي.. إنك بخير الآن.. لن يمسّك أحد.. فقط حاولي أن تسترخي أرجوك.

ثم وضع يده على كتفي ليدفعني دفعا برقة شديدة كي أستلقي على الفراش.. لكني رحت أكرر تساؤلاتي بإصرار وخوف.. قبل أن يدخل الغرفة طبيب شاب توحي ملامحه وكأنه مثقلا بالأحزان.. وهو -بالمناسبة- الطبيب نفسه الذي طلب مني كتابة قصتي.. فقال مشجعا وهو يضع يده على كتف زوجي:

- أرجوك أن تستمعي إلي جيدا ولا تخشي شيئا.. فزوجك بجانبك ولن يتخلى عنك.. إنه إنسان رائع ويحبك بحق.. كما إنني سأكون بجانبك ولن أتخلى عنك إلى أن تتعافي..

إنك.. إنك في مستشفى الطب النفسي.. أنت مصابة بفصام في الشخصية*!!!!.

نهضت من فراشي مفزوعة وأنا أقول لزوجي متجاهلة الطبيب:

- ما الذي يقوله هذا الأحمق؟!!.. أنت تدرك جيدا أنني لست مجنونة.. لقد سمعت بنفسك صوت زوجي السابق في كل مكان حولنا.. في شقتنا.. في الشاليه.. فهل أنت مصاب بفصام الشخصية أيضا؟!!!.

---

* كلمة (فصام) (Schizophrenia) مشتقة من اللغة اليونانية.. حيث تنقسم إلى كلمتين.. (Schizo) وتعني انقسام.. و(Phrenia) وتعني العقل.. والمعنى الإجمالي هو (انقسام العقل).. وقد استخدم الكلمة لأول مرة الخبير النفسي (يوجين بلويلر) (E.Bleuler) عام 1904.. والفصام لا علاقة له إطلاقا بمرض (ازدواج الشخصية) (Multiple personality disorder) كما قد يظن الكثيرون.. بل هو مرض نفسي مختلف تماما يتمثل بميل قوي للبعد عن الواقع ومن ثم الهلوسة والاضطرابات في مجرى التفكير والسلوك.. حيث يفقد المريض القدرة على التفكير المنطقي المترابط.. فيبدأ بسماع أصوات أو رؤية أشياء غير موجودة على أرض الواقع.. وقد يقوم المريض أيضا بسلوكيات غريبة مثل تغيير تعابير وجهه بشكل دائم أو القيام بتصرفات لا معنى لها بشكل متكرر.. ويتصرف أحيانا بسلبية كاملة كالقيام بكل ما يؤمر به وكأنه بلا إرادة.. وتجده أيضا يتحدث مع نفسه منفرداً وكأنه يتحدث إلى شخص بجانبه.. لا نقصد هنا التحدث مع النفس بصوت مرتفع كما يفعل البعض أحيانا.. بل التحدث إلى شخص يتوهم وجوده كونه يسمع أصواتا غير حقيقية من حوله فيحاول أن يتحاور معها.

تنحنح الطبيب ليجيب بدلا من زوجي:

- أرجوك أن تستمعي إلي يا عزيزتي.. أنت مصابة بفصام في الشخصية بالفعل.. وهذا المرض أطلق عندك موهبة لا تعرفين أنك تمتلكينها.. وهي مقدرة التحدث من البطن (Ventriloquism)!!!.. إنها مقدرة شهيرة يستطيع كل إنسان ممارستها بالتمارين المستمرة.. بل ونرى الكثير من البرامج التلفزيونية عنها.. عندما نجد شخصا ممسكا بدمية ويتحدث من بطنه ليوهم الجمهور أن الدمية هي التي تتحدث.. علما بأن تغيير طبقات الصوت من البطن أمر سهل نسبيا وأسهل بكثير من محاولة تغييره على اللسان.. لذا لم تصعب عليك عملية تقليد صوت زوجك السابق.. ولكن.. هناك مشكلة حقيقية في الأصوات التي تنبعث من البطن.. إذ يصعب كثيرا تحديد مصدرها.. فلا يمكن أن يشعر أحد أن الصوت يخرج من أعماقك إلا لو كان قريبا للغاية منك أو ملتصقا بك*.. لهذا شعر زوجك بحيرة شديدة في البداية وهو يسمع أصواتا في الشقة وكلها تهديدات بالقتل من زوجك السابق دون أن ينتبه أن مصدرها هو أنت.. لكنه تساءل أيضا في قرارة نفسه..

---

* كل ما قاله الدكتور حقيقي تماما.

لماذا لا يسمع تلك الأصوات إلا بوجودك؟!.. ولماذا لا يهدده زوجك السابق ويطلب منه أن يطلقك كونه هو من يملك هذا القرار.. لحسن الحظ أن تفكيره لم يتجه لقصص الجن.. بل توقع أن هناك أمرا غير عادي يحيط بحالتك العقلية.. فكان أول ما طرأ في ذهنه هو زيارة مستشفى الطب النفسي لاستشارة طبيب مختص.. وقد كنت أنا الطبيب النفسي الذي قابله زوجك قبل ذهابكم إلى الشاليه بأقل من أسبوع.. أعترف أنني فوجئت كثيرا بتفاصيل القصة في بادئ الأمر.. ولم أعرف كيفية التصرف.. إذ بدت لي وكأنها قصة من عالم الجن والأشباح بالفعل.. لكني لا أترك الأمور عادة لتلك التفسيرات إلا حين تعجز كل التفسيرات الأخرى عن توضيح ما يحدث.. لذا طلبت من زوجك إخباري بكل تفاصيل حياتك علها تنير لي الطريق.. فعرفت منه كل شيء عنك.. معاملة والدك القاسية.. معاملة زوجك السابق ومحاولته قتلك.. ثم ارتكابك لجريمة القتل دفاعا عن النفس.. وظللت بعدها في الأيام القليلة التالية أبحث عن تفسير لهذه القصة الغريبة بناء على المعطيات التي لدي.. إلى أن طرأت في ذهني فكرة التحدث من البطن وقمت بربطها بمرض الفصام.. فوجدت أن هذا الاستنتاج يجيب على

كل الأسئلة.. وطلبت من زوجك أن يرهف السمع حين يكون بقربك.. فربما سيتأكد حينها أن مصدر صوت زوجك السابق هو أنت!!!.

سألته مبهوتة:

- لكن.. من الذي زارنا؟!.. من الذي طرق باب الشاليه؟!.

رد الطبيب بإشفاق:

- لقد اتصل بي زوجك من الشاليه ليخبرني أن استنتاجي صحيح تماما.. خاصة حين تمكن من تحديد مصدر صوت زوجك السابق أثناء وجودكما في غرفة النوم وعرف أنه نابعا منك أنت دون أن تدركي ذلك!!!.. فاقترحت عليه أن آتي بنفسي إلى الشاليه لأتحدث إليك وأقنعك بأنك مصابة بمرض الفصام وأن عليك زيارة مستشفى الطب النفسي في أسرع وقت ممكن.. فهذا أفضل كثيرا من أن يخبرك هو.. لأن اكتشافك للحقيقة قد يتسبب بإصابتك بانهيار عصبي أو نوبة عصبية سيعجز زوجك عن التعامل معها.. لذا فقد استحسن كثيرا اقتراحي هذا.. ووجد أنه من الأفضل أن أزوركما في الشاليه بدلا من الانتظار لحين عودتكما إلى الشقة كي لا يحدث هناك شيء قد يثير فضول المتطفلين

من الجيران.. فليس من المستحب أن يعرف الناس أنك تعانين من مشكلة نفسية.. لقد كان زوجك يريد الحفاظ على سمعتك.. كما أنه لم يرغب بأخذك للمستشفى عنوة رغم إرادتك.. ولم يرغب حتى بخداعك واستدراجك.. بل حاول أن يهون الأمر عليك قدر الإمكان.. المهم أنني عندما وصلت إلى الشاليه وطرقت الباب.. فتح لي زوجك مباشرة.. فأغمى عليك قبل أن تعرفي هوية الزائر.. ظنا منك أن القادم هو زوجك السابق.

هل.. هل يعقل أنني وراء كل ما يحدث لي ولزوجي؟!.. أنا أتحدث من البطن؟!.. أنا مصابة بفصام في الشخصية؟!.. هذا مستحيل ولم يطرأ في ذهني يوما.. راح عقلي يبحث بذعر عن تفسير آخر.. تفسير آخر.. لكن.. كل ما يحدث حولي يوحي بذلك بالفعل وكلام الطبيب النفسي يجيب على كل الأسئلة التي ظلت معلقة في ذهني لفترة ليست بالقصيرة.. لذا فقد.. فقد.. تخاذلت تماما أمام هذه التفسيرات.. وبدأت أنهار أمام نظرات زوجي الحزينة.. الدموع تنهمر من عيني بصمت.. قبل أن يخرج الغضب من حنجرتي بصورة مفاجأة.. صراخ.. وصراخ لا يتوقف.. ليطلب الطبيب من الممرضة أن تحقنني بإبرة ما.. واضح أنها حقنة مهدئة.. مشهد رأيته مرارا في الأفلام

ولم أظن أنني سأعيشه يوما.. صرخاتي بدأت تخفت تدريجيا.. وبدأت أغمض عيني وأنفصل عن عالمنا الحقيقي.. ولست أدري في الواقع ما هو العالم الحقيقي بعد كل ما حدث!!!.

ولا أنسى أبدا كلمات زوجي التي سمعتها قبل أن أفقد وعيي بفعل الحقنة.. حين قال للطبيب بصوت باك:

- لماذا تمطر السماء دوما على أكثر الناس الذين بحاجة إلى ظهور الشمس في حياتهم؟!!.

سؤال مؤلم أتمنى أن أعرف إجابته يوما.. فالشمس لم تشرق في حياتي سوى في الشهور القليلة التي قضيتها مع زوجي الحبيب.. وربما أيضا حين كنت طفلة رضيعة لا تفقه شيئا في هذا العالم.. ففي أيام الطفولة يكون البكاء هو الحل الأمثل لمشاكلك.. لكن عندما تكبر.. يصبح البكاء خيارك الوحيد رغم أنه لا يحل شيئا!!!.. لهذا أشعر أحيانا أنني عندما أموت سأذهب إلى الجنة.. لأنني أعرف يقينا أنني كنت هنا في الجحيم!!!.

لا أعرف كم مضى على وجودي في المستشفى.. لأن الوقت لم يعد له قيمة في حياتي.. حتى إنني قلت يوما بألم لذلك الطبيب الشاب الذي يتابع حالتي باستمرار:

- أنت لا تعرف الشعور أن تكون مجنونا.. الأمر شبيه بأن تخوض حربا وصراعا بين ما يقوله الناس عنك.. وما تعرفه أنت عن نفسك.. فأي الطرفين سيربح؟!.

فيستمع إلي ويربت على كتفي مشجعا.. أخبره أن العالم كله يكرهني.. ليجيب مبتسما: ((لكنك لم تلتقِ بالعالم كله!!!)).. ثم يؤكد مرة أخرى وأخرى أنه لن يتخلى عني أبدا وسيكون دوما بجانبي حتى أتجاوز محنتي تلك وأخرج من المستشفى.. لأعود إلى زوجي الذي اكتشفت أنه الرجل الوحيد الذي يحبني في هذا العالم.. أعترف أن كلام الطبيب النفسي قد أثر بي كثيراً ورفع من معنوياتي.. ماذا؟!.. تسألون عن أبي؟!.. إنه لم يأت لزيارتي يوما منذ دخولي المستشفى.. وأنا عموما لم أعد أخشاه كما كان الحال في السابق.. بل سأخبره برأيي به قريباً.. فهو من أوصلني إلى هنا.. لن أسامحه أبدا.. لن أسامحه ما حييت بعد أن أخذ مني كل شيء سوى غضبي!!!.. ولا أنسى أمي المسكينة التي تبكي دما لما حدث لي.. أعدك يا أمي أنني سأكون أقوى وسأتعافى وأخرج من هنا من أجلك.. ومن أجل زوجي الحبيب.

يقول الطبيب النفسي إننا لا نستطيع أبدا تغيير الماضي.. لكن نستطيع تغيير نتائجه مهما بدا ذلك عسيرا.. هذا ما سأحاول

فعله.. سأحاول ألا أجعل مشاعري السلبية تنسيني ما أستحقه من حياة طبيعية مستقرة مع زوجي الذي لم يتوقف عن زيارتي في المستشفى والوقوف إلى جانبي.. إنه إنسان رائع.. وربما هي المرة الأولى في حياتي التي أعترف فيها أنني أحب رجلاً.. أحب زوجي!!!.

عزيزي القارئ.. لقد كشفت لك مذكرات بطلة قصتنا كل شيء تقريبا.. ولكن.. بقي أن أكشف لك أمرا إضافيا كتبته هي بنفسها.. إلا أنني اتفقت معها على شطبه مع تغيير بعض الأحداث التي لم يطّلع أحد على حقيقتها وأبقيتها سرا دفينا.. فقد اعترفت (مريم) في مذكراتها أنها هي من قتلت زوجها الأول!!!!.. نعم.. هي التي قامت بشراء تلك القارورة.. هي التي خبأتها في الدولاب دون علمه.. وهي التي وضعت محتواها في الحقنة حتى تقوم بتلفيق التهمة له كي يبدو للجميع وكأنه كان يرغب بقتلها.. مما سيمنحها المبرر لقتله بالمقابل دفاعا عن النفس!!!.

والواقع أن يدها لم تُكسر أبدا.. فقد دفعت مبلغا من المال للمضمد في المستوصف حتى يقوم بمساعدتها وإيصالها لأحد معارفه في مستشفى (.....).. حيث سيقوم المضمد الآخر هناك بتجبير يدها لإيهام الجميع أن يدها مكسورة.. كما أن زوجها السابق لم يعتدِ عليها ولم يلتحم معها محاولا قتلها كما هو مذكور في مذكراتها.. بل ولم يتعلم حقنها بتلك الحقنة أصلا كما ذكرَت (مريم) لنا ولرجال الشرطة.. ما حدث هو أنها طعنته في خاصرته مرتين أثناء نومه ثم افتعلت مسألة الشجار تلك ومحاولته قتلها ودفاعها عن نفسها!!!.. بل وقامت بإتلاف بعض قطع الأثاث وجرحت نفسها في أكثر من موضع لتثبت للجميع أنها قتلت زوجها السابق دفاعا عن نفسها فحسب.

بالطبع كانت هناك ثغرة كبيرة ومغامرة خطيرة في خطتها.. إذ كان من الممكن جدا أن يطلب رجال الشرطة فحص يدها للتأكد من وجود كسر.. لكنهم لم يفعلوا.. فخطتها كانت محكمة وتفوق أي تصور.. خاصة مع الأدلة القوية التي وضعتها لإقناع الجميع بصدق قصتها.. والواقع أنني لا ألوم رجال الشرطة على هذا القصور.. فأنا نفسي لم أتصور للحظة أنها من الممكن أن ترسم خطة كهذه وتتخلص من زوجها الأول الذي عذبها كثيرا.

لقد عانت هذه الفتاة الكثير.. عانت قسوة والدها منذ طفولتها وحتى الآن.. إذ لم يزرها في المستشفى ولم يسأل عنها رغم مرور أكثر من شهر على وجودها هنا.. ليت هذا الأحمق يعلم أن هناك دراسات تثبت أن الطفل الذي يتعرض للقسوة.. يظهر تخطيط مخه نشاطا يشبه تماما النشاط الذي يظهر في مخ الجندي الذي خاض معارك قاسية عنيفة*.. ثم جاء زوجها الأول بعد ذلك ليزيد حياتها عذابا.. حيث أوصلها بسوء معاملته إلى تلك الصراعات النفسية التي أدت إلى انتقامها منه.. ربما لهذا قررتُ إخفاء أمر جريمتها عن زوجها الحالي.. فهو رجل شهم يحبها كثيرا.. وهي فتاة مسكينة تعرضت للظلم

---

* حقيقة

طوال حياتها إلى أن وصلت لمستشفى الطب النفسي.. لذا لن أزيد الأمور سوءا.. أقولها بضمير مستريح رغم أن بعضكم قد يخالفني الرأي.. لكنه قراري ولن أتراجع عنه.. المعذرة يا قرائي الأعزاء.

إنني أواسي (مريم) باستمرار.. وأخبرها أن الظلام الذي يحيط في حياتها لن يضرها أبدا.. لكن عليها أن تخشى الظلام النابع من قلبها.. والطريقة الوحيدة لتكون قوية في حياتها هي أن تحب نفسها.. خاصة وأن زوجها يحبها ويقف إلى جانبها باستمرار وينتظر عودتها.. أي أنها الآن لديها ما تعيش من أجله رغم أنني لا أعرف مشاعرها أصلا حيال زوجها الحالي.. بل ولن أصدقها لو قالت لي إنها تحبه.. فالهشاشة النفسية تجعلك تتشبث بأي إنسان وتجعلك تظن أنك تحبه.. إلا أن ما يهمني هو أن زوجها يحبها ويفهمها و.. يسمعها.. فلا يوجد نداء ولا بكاء ولا نحيب في العالم يصل إلى آذان الناس إلا إذا كان هناك من يستمع!!!.

أنا على ثقة أن حالة (مريم) ستتحسن كثيرا.. وأنها ستخرج من المستشفى بعد شهور قليلة لتعيش حياتها الجديدة مع زوجها.. فأحيانا يكون الألم هو ما نحتاج إليه لنصبح أفضل.. خاصة وأن النهايات السعيدة عموما لا تأتي إلا بعد الأحزان.. وبعد الظلام!!!.

جريمة غير منطقية!!!

تحكيها: (دلال)

العمر 20 عاماً

عزيزي القارئ.. هذه القصة تحديدا بدأت بطريقة مختلفة عن باقي القصص التي سردتها لكم سابقا.. إذ كانت بدايتها باتصال هاتفي.. نعم.. فتاة اتصلت بالمستشفى وطلبت تحديد موعد في ساعة متأخرة مع الطبيب النفسي المناوب!!!.. لم يكن المقصود أنا على وجه الخصوص.. بل أي طبيب نفسي يكون موجودا حينها.. علما بأنها المرة الأولى على حد علمي التي يطلب فيها أحدهم تحديد موعد في مثل هذا الوقت.. وقد أوضح لها موظف البدالة أن المستشفى هادئ جدا في الأوقات المسائية ولن تحتاج لتحديد موعد.. كل ما عليها هو المجيء فحسب.. لكنها أصرت على طلبها وأخبرته بضرورة إبلاغ الطبيب المناوب بحضورها في الحادية عشرة مساء!!!.

لذا فأنا أجزم أنها كانت المرة الأولى التي جلست فيها في مكتبي والساعة تقترب من الحادية عشرة مساء مترقبا تلك الزائرة الغامضة ومتمنيا أن تصدق بكلامها بعد أن أثارت فضولي كثيرا باتصالها.. شاعرا أنني بحاجة لبعض الوقت حتى أصفي ذهني قبل الزيارة المنتظرة.. لأكتشف فجأة أنه لا يوجد هناك ما أصفيه أصلا!!!.. إنها لحظات الانتظار فقط التي تجعلك متوترا دون سبب.

ذابت تلك الخواطر من رأسي حين سمعت طرقات رقيقة على

باب غرفتي.. نظرت إلى الساعة ووجدتها تتجاوز الحادية عشرة مساء بدقيقتين ربما.. إنها الفتاة المرتقبة دون شك.. تنحنحت وأنا أسمح للطارق بالدخول.. قبل أن يفتح الباب بهدوء شديد.. لتدخل أغرب فتاة رأيتها في حياتي!!!!.. لماذا أصفها بالغرابة؟!.. لأن وجهها يحمل ابتسامة صافية وضّاءة توحي بثقة شديدة في النفس!!!.. وكأنها في رضا تام عن العالم ولا تعاني أي مشاكل.

كانت بيضاء البشرة.. متأنقة للغاية.. قوامها ممشوق وكأنها تمارس رياضة ما بانتظام شديد لتبقي جسدها بهذه الصورة المتناسقة.. شعرها قصير نسبيا مرتبا جدا وكأنها خرجت من الحمام للتو.. فتاة بهذا الوجه البشوش والابتسامة العريضة لا يمكن أن تحتاج إلى طبيب نفسي في هذا الوقت المتأخر.. بل ولن تحتاج إلى طبيب نفسي في أي وقت أصلا.. فما الذي تفعله هنا في مكتبي؟!!.. خاصة مع ذلك الفستان الأخضر الطويل المخصّر الذي ترتديه فبدت لوهلة وكأنها من أميرات القرون الوسطى.. هل كانت جميلة؟!.. بكل تأكيد.. لم تكن أجمل من رأيت.. لكنها صافية البشرة دقيقة الملامح وتلفت انتباه أي شاب.

استقبلتها بترحاب شديد كعادتي وأنا أدعوها للدخول والجلوس

على الكرسي المقابل لمكتبي.. ثم سألتها إن كانت ترغب بشرب شيء.. فلم تغب الابتسامة عن وجهها وهي تخبرني أنها تريد فقط لقائي والتحدث معي.. لا.. ليس معي شخصيا كما علمنا.. بل مع أي طبيب نفسي.. لكنها أرادت أن يكون الطبيب متفرغا تماما للاستماع إليها.. هذا هو سر إصرارها على تحديد موعد في ساعة متأخرة كما تقول.. تريد أن تشعر أنها وحيدة مع طبيبها في هذا العالم.. أفهم هذا الشعور جيدا على كل حال.

جلست أنتظر منها أن تبدأ الحديث.. لكنها لم تقل شيئا.. بل أخرجت هاتفها النقال وعبثت بشاشته قليلا قبل أن تنبعث منه موسيقى هادئة جدا كاد قلبي أن يذوب معها.. هذه الفتاة تتصرف وكأنني أنا المريض النفسي وهي طبيبتي!!!.. وضعَت بعدها ساقا فوق ساق.. ثم قالت دون أن تختفي الابتسامة من على وجهها:

- من المؤكد أنك تتساءل في قرارة نفسك عن سبب زيارة فتاة لمستشفى الطب النفسي في مثل هذه الساعة رغم ابتسامتها التي توحي بالسعادة وتأنقها الذي يخبرك أنها تملك ثقة هائلة بنفسها.. إن ما تراه يا دكتور ليس مظهرا كاذبا.. فأنا سعيدة جدا بالفعل.. ولا يوجد ما ينغص علي حياتي أبدا.. بل إنني أعيش حاليا أجمل سنوات عمري.. ففي هذه

السنة قررت استكمال دراستي ورحت أنهل من الكتب بلا حدود.. وأنزلت وزني كثيرا من خلال الأكل الصحي وممارسة الرياضة المستمرة.. أنت تعلم بكل تأكيد أن الرياضة تفرز عندك هرمون (الإندورفين) (Endorphin).. وهذا الهرمون يزيد من الشعور بالسعادة عند الإنسان*.

نظرت إليها بإعجاب شديد وأنا أقول:

- هذا رائع بالفعل.. قلما أجد هذه الروح الإيجابية عند أحد.. أنا نفسي لا أمتلكها مع الأسف.. لكني لا أفهم.. ما هو سبب مجيئك إن كانت حياتك سعيدة إلى هذا الحد؟!.. هل الأمر يتعلق بأحد أفراد أسرتك؟!!.

هزت رأسها نفيا وهي تقول:

- بالعكس.. إنني أنتمي إلى أسرة عادية مشاكلها محدودة للغاية.. فأشقائي متزوجون وكل منهم يعيش حياة مستقرة مع زوجته.. ولدي شقيقتان إحداهما تكبرني سنا وتعيش هي الأخرى مع زوجها.. والثانية أصغر مني ولا تزال في المرحلة الثانوية.. أما أنا ففي الـ 20 من عمري.. أعيش حياتي حرة بعيدة عن أي التزامات.. وكل ما أطمح

---

* حقيقة

إليه هو تطوير ذاتي فحسب.

هذا غريب.. الابتسامة لا تفارق محيّاها أبدا.. إنها لا تتصنع ابتسامتها كما تفعل عارضات الأزياء.. بل هي سعيدة بالفعل.. كيف يمكن لإنسان أن يكون سعيدا طوال الوقت!!!.. أعرف شخصا واحدا فقط بهذه الحالة.. وهو نزيل دائم في المستشفى لا يعرف ما يدور حوله.. فلا يفعل شيئا سوى الابتسام ببلاهة.. لكن هذه الفتاة لا تبدو لي مختلة عقليا على الإطلاق.. هناك سر.. سر سأكشفه الآن دون شك.

مططت شفتي مستغربا وأنا أسألها:

- ما سبب زيارتك إذا؟!!.

ردت بشيء من المرح:

- سأخبرك بكل شيء يا دكتور.. اسمي (دلال).. والواقع أن حياتي لم تكن كما هي عليه الآن.. فمنذ عامين فقط كنت فتاة أخرى تماما.. سمينة.. ألتهم الطعام طوال الوقت.. بل إن إحدى صديقاتي قالت عني يوما إنني مثال مدرسي شديد الوضوح للإنسان الذي يعيش ليأكل.. وقد كنت مصابة بنوع من البلادة بسبب قلة الحركة.. حتى أنني أنهيت دراستي الثانوية بصعوبة وأخبرت والدي بعدها

أنني لا أريد استكمال دراستي.. إذ كنت أرغب بوظيفة تناسب مؤهل الثانوية العامة فحسب دون أي طموح للمستقبل.. حياة بسيطة تافهة بلا هدف ولا أرغب من ورائها سوى الاستمتاع بوقتي والخروج مع بنات خالاتي أو الذهاب إلى الشاليه مع الأهل والأقارب.. فما إن تنتهي إجازة.. حتى أبدأ بالتخطيط للإجازة التالية!!!.. الطريف أن أفراد العائلة يطلقون علي دوما لقب (المهندسة).. ليس لذكائي الشديد.. بل بسبب تخطيطي الدائم لإجازات العائلة والبحث المستمر عن شاليهات ومنتجعات جديدة لم نزرها من قبل.. حتى الوظيفة التي حصلت عليها في إحدى الوزارات كانت تافهة وتناسب بالفعل فتاة بمؤهلاتي.. إلى أن تغير كل هذا دفعة واحدة وتبدل حالي تماما في فترة قصيرة للغاية!!!.

سكتت وهي تنظر إلي بابتسامتها الجذابة.. فنظرت إليها بالمقابل غير مصدق أنها كانت كما تصف نفسها الآن.. بل وشعرت برغبة شديدة بمشاهدة صورة لها في تلك الأيام قبل تبدل حالها كما تقول.. لكني لم أطلب ذلك بالطبع.. المهم أنها أكملت:

- لقد أخذت حياتي فجأة منعطفا مخيفا غير متوقع.. عندما

كنت جالسة في غرفتي ذات ليلة.. ممسكة بالريموت كنترول وأمر على قنوات التلفزيون بشيء من الخمول على أمل العثور على شيء يثير اهتمامي فأشاهده إلى أن يغلبني النعاس.. قبل أن يرن هاتفي النقال فجأة.. كان رقما غريبا غير مسجل في ذاكرة هاتفي.. لذا رددت على المكالمة بطريقة رسمية.. لأسمع صوت رجولي على الطرف الآخر يتكلم بخشونة تذكرك بأفراد العصابات ويقول بصرامة شديدة: ((أنصحك ألا تغلقي الخط.. أعرف أن اسمك (دلال) وأنك في الـ 18 من العمر وقد أنهيت دراستك الثانوية للتو وبمعجزة حقيقية.. وأعرف أنك تحبين الأغاني الأجنبية كثيرا رغم أنك لا تفهمين منها حرفا.. كما أنك لم تمرِّي في حياتك سوى بتجربة عاطفية واحدة انتهت بفشل ذريع بعد أن اكتشفت أن ذلك الشاب مرتبط بعدد كبير من الفتيات.. وأعرف أنك تعشقين أكل حلوى (أم علي) الشهيرة وتحبين الاستحمام بالماء الساخن دوما وتكرهين كثيرا فصل الشتاء.. هل تريدين المزيد؟!!)).. دكتور.. كان ما يقوله ذلك المتصل المجهول مخيف للغاية.. إنه يعرف أدق خصوصياتي!!!.. من الذي سيتصل بك في وقت متأخر من الليل فقط ليخيفك ويخبرك أن حياتك بأكملها مكشوفة أمامه؟!.

نظرت إليها مستغربا وقد أثار كلامها اهتمامي كثيرا.. ثم قلت بشيء من الحيرة:

- لن أقول إن هذا مقلبا مدبرا من الشاب الذي كنت على علاقة سابقة معه.. فلو كان الأمر كذلك لما جئت لزيارتي الآن.

قالت بإعجاب واضح:

- كلام سليم تماما.. فالأمر كان يتجاوز ذلك كثيرا.. خاصة حين ظل المتصل يخبرني بأسرار أخرى يستحيل أن يجمعها عني شخص واحد.. فكيف له أن يعرف أن لي عمة مطلّقة؟!.. وأن إحدى خالاتي لديها ولد ذهب للدراسة في بريطانيا وعاد متزوجا من فتاة إنجليزية التقى بها هناك؟!.. لك أن تتخيل كيف أثارت مكالمته اهتمامي.. خاصة حين أكمل بصرامة غريبة: ((أريد أن أراك اليوم في وقت متأخر من الليل.. أعلم أنه لا يوجد ما يعيق خروجك.. فلا أحد من أشقائك يعيش معكم الآن بعد زواجهم جميعا.. ووالداك كبار في السن ينامان معظم الوقت ولن ينتبها لخروجك.. لا تحاولي التهرب)).. دكتور.. لقد كنت أعرف مؤهلاتي الجمالية جيدا آنذاك.. لذا فإن انحراف المتصل الجنسي لم يرد بذهني أبدا.. من المستحيل أن يتكبد شخص ما

كل هذا الجهد ويجمع معلومات عن فتاة مثلي فقط لإشباع غريزته.

سألتها بشيء من عدم الفهم:

- هذا غريب.. شخص يتصل في وقت متأخر من الليل ويستعرض أدق تفاصيل حياتك ليشعرك بأنك تحت أنظاره طوال الوقت.. ثم يطلب لقاءك حينها؟!.. لماذا؟!.. هناك نقاط عديدة غير مفهومة!!.

ردت باهتمام:

- تماماً.. لكن الوقت لم يكن مناسبا للتفكير بتلك التساؤلات.. فقد أصابني ذلك الوغد بحالة من الرعب.. لذا سألته بقلق عن هويته وهددته أنني سأبلغ أشقائي إذا لم يتركني في حال سبيلي.. خاصة وأن المعلومات التي يعرفها عني لا تدينني بشيء.. فهو لا يمتلك صورا فاضحة لي مثلا قد تسيء لسمعتي.. لكنه أخبرني بذات الصرامة: ((لن يفيدك أشقاؤك كثيرا.. لديك ساعتان فقط لتأتي.. يوجد مبنى قديم مهجور قريب جدا من مستشفى (الأميري) لن تجدي صعوبة في العثور عليه.. سأكون بانتظارك في ذلك المبنى.. أقسم بأنك ستدفعين الثمن غاليا إذا لم تأتي.. المكالمة القادمة لن تكون مجرد تهديد.. بل ستتجاوز

ذلك بكثير)).. قالها وأغلق السماعة فجأة!!!.. دكتور.. من المستحيل أن أترك فراشي وأخرج من البيت في وقت متأخر دون علم أسرتي للقاء شخص لا أعرفه.. مهما كان حجم تهديده وغرابة اتصاله.. لذا فقد تجاهلت الأمر تماما وحاولت السيطرة على أعصابي وأنا أفكر بهوية المتصل.. و.. أثناء تفكيري بذلك.. غالبني النعاس إلى أن نمت أخيرا وقد شعرت أنني بأمان رغم كل شيء.

أكملت وهي تسترجع تلك الذكرى بابتسامة عريضة وبصورة لا توحي أبدا بالقصة التي تخبرني إياها:

- لم تنتهِ الأمور عند هذا الحد.. فقد تكرر الاتصال في اليوم التالي أيضا في السابعة مساء.. ولكن من رقم آخر هذه المرة.. لأنني أتذكر رقم ذلك الوغد الذي اتصل في المرة الأولى وقمت بحفظه تحسبا لأي طارئ.. لذا أجبت على المكالمة.. وإذا به نفس الشخص!!!.. كان من الممكن أن أغلق الخط في وجهه.. لكني لم أفعل.. لأنني سمعته يصرخ بفتاة ما ويأمرها أن تتحدث معي.. و.. شعرت بصاعقة تسري في جسدي حين سمعت صوتا نسائيا باكيا يقول عبر الهاتف بتوسل: ((استمعي إليه أرجوك وتعالي.. أنا لم أسافر.. بل اختطفوني وجاؤوا بي إلى

هنا!!!)).. نعم يا دكتور.. كان من المفترض أن شقيقتي الكبرى قد سافرت إلى (أبوظبي) منذ يومين لحضور مؤتمر يخص جهة عملها.. لكن يبدو أنها لم تسافر.. وأن هذا المتصل المجهول قد اختطفها أثناء ذهابها إلى المطار!!!.. وقبل أن أستوعب الصدمة.. أردف المتصل بقسوة: ((أعدك أن شقيقتك ستموت إذا لم تأتي الآن إلى المكان الذي أخبرتك عنه بالأمس.. مبنى مهجور قريب جدا من مستشفى (الأميري).. لن تضيعي المكان.. فهو المبنى الوحيد المهجور هناك.. ولا تفكري بإبلاغ الشرطة.. سنعرف حينها أنك فعلت وسنقتل شقيقتك.. نتوقع حضورك في منتصف الليل دون تأخير!!!)).. قالها وأغلق السماعة دون أن ينتظر الرد.. وكأنه على ثقة تامة أنني سأستمع إليه هذه المرة!!!.. لقد كنت حينها جالسة في صالة البيت.. ففقدت السيطرة على أعصابي تماما وبدا القلق والذعر واضحين على ملامحي.. لذا انسحبت إلى غرفتي قبل أن تنتبه والدتي وشقيقتي الصغرى اللتان كانتا تجلسان بجانبي وتشاهدان التلفزيون باهتمام أشغلهما عن تجهم وجهي بهذه الصورة.. و.. ما إن دخلت غرفتي.. حتى رحت أمشي فيها كالنمر الحبيس.. لكني لم أكن نمرا.. بل مجرد قطة مذعورة قلقة.. قطة

سمينة!!!.. من هذا الشخص؟!.. كيف تمكن من اختطاف شقيقتي قبل وصولها إلى المطار وسفرها إلى (أبوظبي)؟!.. لا أعلم.. العشرات من علامات الاستفهام دون إجابة واحدة.. حتى بدا الأمر وكأنني أعيش واحدة من قصص الجاسوسية الشهيرة!!!.. ما الذي سأفعله الآن؟!!.. أتصل بالشرطة؟؟!.. لا أستطيع.. أخشى أن ينفذ المتصل تهديده.

مططت شفتي وأنا أقول:

- يخطف ذلك المتصل شقيقتك منذ يومين دون أن يفتقدها أحد من أفراد عائلتك؟!.. ألم تتصلوا بها لتطمئنوا على وصولها إلى (أبوظبي) على الأقل؟!!.. ثم ما الذي سيريده ذلك المتصل منكم؟!.. تقولين إنك تنتمين إلى أسرة عادية.. فأمر الفدية ينتفي تماما هنا.. ولا أعتقد أنه يوجد أي عسكري في عائلتكم يستحق أن يفعل أعداؤه به كل هذا.. فنحن لسنا في بلد يمتلك أسرارا عسكرية قد تتسابق الأمم لتعرف تفاصيلها.. المعذرة لكني أحاول العثور على الدافع وراء عملية الاختطاف تلك.

قالت مؤيدة:

- صدقني يا دكتور.. كل ما قلته فكرت به حينها.. فهذه أمور بديهية للغاية لا يمكن أن تفوتني.. لذا شعرت أنني

أمام لغز غريب.. شقيقتي مهددة.. وهذا الوغد قام باختطافها ويطلب مني الهرب من البيت والذهاب إلى ذلك المكان المجهول.. ثم.. تذكرت أمرا هاما.. اتصلت بهاتف شقيقتي النقال بلهفة شديدة للتأكد أن المتصل لا يتلاعب بي مثلا.. لكن.. تجمدت لهفتي حين تبين أن هاتفها مغلق!!!.. والواقع أن شقيقتي تسافر كثيرا بسبب طبيعة عملها.. لذا كان سفرها أمرا معتادا بالنسبة لنا ولها.. وهذا يجيب على سؤالك واستغرابك لعدم اتصالنا بها والاطمئنان على وصولها إلى (أبوظبي).. لا أنكر أنني فكرت بالاتصال بأحد الأقارب لطلب المساعدة.. لكني خشيت أن يكون الخط مراقبا.. فمن يعرف عني كل هذه التفاصيل لن يعجز عن مراقبة هاتفي أو حتى هاتف البيت!!.. كنت أعيش حالة شديدة من الذعر جعلتني أشك في كل شيء حتى عجزت عن اتخاذ أي قرار.. وهكذا مر الوقت بطيئا ثقيلا إلى أن وجدت الساعة تقترب من الحادية عشرة مساء وقد هدأ البيت تماما بعد أن ذهب الجميع إلى النوم.. عندها فقط فكرت بتنفيذ طلب ذلك الوغد!!!.. نعم.. سأخرج من البيت وأقابله.. سأفعلها بجسد يرتجف.. سأفعلها بذعر.. لكن لا يوجد لدي حل آخر.. فحياة شقيقتي على المحك.. لذا بحثت سريعا في

الانترنت عن شركات سيارات الأجرة كوني لم أكن أمتلك رخصة قيادة حينها.. ثم اتصلت بإحداها أطلب سيارة لتقلّني من البيت.. لم يكن البال رائقا لأفكر بما سيقوله الجيران لو رأوني أخرج في مثل هذه الساعة.. الأمر أخطر من ذلك بكثير.. و.. بعد أقل من ساعة.. كنت في سيارة الأجرة بالفعل أفكر بما يحدث.. أفكر بهذه القصة الغريبة وبمصير شقيقتي ومصيري.. أحاول أن أطمئن نفسي بحسن التصرف الذي قمت به قبل خروجي من البيت.. فقد كتبت رسالة وضعتها على فراشي أخبر فيها أفراد عائلتي بكل شيء.. وكتبت فيها الرقمين اللذين تلقيتهما على هاتفي النقال خوفا من أن يتم اختطافي أنا أيضا.. عندها سأكون قد تركت لهم طرف الخيط على الأقل للبحث عني وعن شقيقتي.. وقد ظللت طوال الطريق أطرح ذلك السؤال اللعين الذي ظل يلح في ذهني دون توقف.. ما الذي يريده هذا الوغد منا؟!.. ما الذي يريده منا؟!.. إلى أن وصلت إلى المنطقة القريبة من مستشفى (الأميري).. حيث طلبت من سائق الأجرة أن يسير في الشوارع الداخلية القريبة من المستشفى لبضع دقائق قبل أن أعثر أخيرا على ذلك المبنى القديم المهجور كما أخبرني المتصل.. إنه المبنى الوحيد المهجور في المنطقة.. لا

شك أنه هو.. نزلت هناك ونقدت السائق أجرته وسط نظرات استغرابه الواضحة.. ثم.. توقفت بعدها في مكاني أنظر بتوتر شديد إلى المبنى الذي يطل الظلام من كل ركن منه حتى بات وكأنه وحش مخيف يرقد بهدوء.. دعك من الحر الخانق الذي جثم على أنفاسي تماما.. فنحن في فترة الصيف.. مهلا.. هل.. هل ألمح ضوء خافت من إحدى نوافذ ذلك المبنى؟!!.. بكل تأكيد.. إنه ينبعث من الطابق الرابع.. وكأنه نجم بعيد بالكاد تراه بالعين المجردة.. يبدو وكأنه ضوء شمعة!!!.. هل أدخل المبنى وأصعد إلى مصدر ذلك الضوء؟!.. لا يوجد لدي حل آخر.. لقد أتيت من أجل ذلك.



سألتها بقلق:

- وهل دخلتِ؟!

ردت بابتسامة غريبة لا توحي أبدا بأجواء التوتر التي عاشتها في تلك القصة:

- لم يكن هناك بد من ذلك.. دخلت المبنى وأنا أستدل طريقي من الضوء الأبيض المنبعث من هاتفي النقال والذي كان يهتز بقوة بسبب ارتجاف يدي!!.. أمشي بهدوء شديد سوى

صوت قدميّ اللتين تدوسان على الأتربة والصخور الصغيرة التي امتلأ بها المكان.. الحر خانق والعرق بدأ يتصبب من كل مكان من جسدي.. ألتفت بتوتر شديد باحثة عن الدّرَج وأنا أوجه ضوء هاتفي النقال إلى كل مكان حولي قبل أن أجده أخيرا.. اتجهت ناحية الدّرَج وبدأت أصعده بترو شديد.. أنفاسي اللاهثة تكاد تتقطع بسبب سمنتي.. إلى أن وصلت أخيرا للطابق الرابع.. مهلا.. هناك صوت نحيب خافت للغاية.. التفت ناحيته.. إنه يأتي من تلك الغرفة المغلقة التي يهرب من تحت بابها شعاع خفيف من الضوء.. هل هي الغرفة المطلوبة؟!.. على الأرجح نعم.. أمسكت بمقبض الباب الصدئ بيد مليئة بالعرق.. ثم.. فتحت الباب لأرى مشهدا مخيفا جعلني أشهق بقوة!!!.. إذ كانت شقيقتي مقيدة وقد غطى أحدهم رأسها بقطعة قماش سوداء اللون كما يفعلون في الأفلام.. يبدو أنهم لا يريدونها أن تراهم.. لكن.. لماذا لا يمانعون أن أراهم أنا وأعرف وجوههم؟!.. ومن هم أصلا؟!.. ليتني أعلم.. كانوا 3 رجال يحيطون بشقيقتي وتبدو على ملامحهم علامات الخطورة.. تمكنت من تمييز كل هذا بسبب الشمعة الموجودة في منتصف الغرفة والتي منحت المكان ضوءا لا بأس به.. ورهبة بنفس الوقت!!!.

سكتت فجأة وهي تنظر إلى سقف الغرفة بشيء من الحنين.. وكأنها تتذكر لحظات جميلة من حياتها!!!.. ما هذا التناقض الغريب؟!!.. لتكمل دون أن تفارق عيناها السقف:

- كان موقفا مخيفا لا يصدق.. وكأنني أعيش عالم المافيا والعصابات وكل ما نشاهده في التلفزيون.. الفارق أنني كنت أجهل تماما ما يدور حولي.. هل شقيقتي متورطة في أمر ما؟!.. لو كان الأمر كذلك لاتصلوا بزوجها أو بوالدي.. لماذا يتصلون بي أنا ويطلبون قدومي؟!.. لا أعلم.. سألتهم بشفتين واضحتي الارتجاف عما يريدونه.. فأجاب أحدهم والذي بدا لي وكأنه أكبرهم مقاما.. ليخبرني بآخر ما كنت أتوقعه!!!.

سكتت قليلا وأنا أنظر إليها وكأنني أحثها على الكلام.. ثم:

- دكتور.. لا يمكن أن تصدق ما طلبه مني.. إذ قال بصوت عميق: ((لقد اختطفنا شقيقتك حتى تنفذي لنا طلبنا.. نريدك أن تذهبي لمستشفى (الأميري) -وهو على بعد خطوات من هنا كما تعلمين- تستطيعين الدخول من الباب الجانبي بعيدا عن أنظار الناس حيث سيكون أحد رجال الأمن بانتظارك.. إنه في واقع الأمر أحد رجالنا.. سيأخذك إلى غرفة العناية المركزة وإلى سرير رجل نريدك

أن تنزعي عنه جهاز التنفس.. نريده أن يموت!!!)).

اتسعت عيناي وأنا أسألها بذهول:

- هكذا بكل بساطة؟!.

أومأت برأسها إيجابا وهي تقول:

- نعم يا دكتور.. كانوا يريدونني أن أرتكب جريمة قتل!!!.. لقد صعقت من طلبهم وتردد في المكان صدى صوتي وأنا أصرخ انفعالا وأتهمهم بالجنون وأقول باكية متوسلة محاولة أن أثير شفقتهم: ((لماذا أنا؟!.. إنني مجرد فتاة ضعيفة لم أفعل شيئا كهذا من قبل.. إنكم قادرون على ارتكاب تلك الجريمة بأنفسكم.. أرجوكم دعونا نذهب لحال سبيلنا.. أتوسل إليكم)).. وانخرطت بعدها في بكاء حار غير مصدقة أنني أمر بأحداث كهذه!!!.. لكن الوغد لم يتأثر لبكائي إطلاقا.. بل قال بحزم شديد: ((نفذي أوامري وسأدعك بعدها تذهبين مع شقيقتك بأمان إلى بيتكما.. سأكون عند كلمتي)).. يقولها وشقيقتي تهَمْهم وتبكي تحت الغطاء!!!.

قلت مفكرا:

- لقد مررت بقصص وتجارب أكثر غرابة من قصتك.. لكني

أجد قصتك بالذات عسيرة التصديق.. فمن يريد أن يرتكب جريمة قتل لن يأتي بفتاة عادية مثلك لا تملك الجرأة أصلا لتنفيذها.. ثم.. لماذا يريدون قتل ذلك الرجل الموجود في غرفة العناية المركزة في المستشفى؟!.. هل الأمر متعلق بالثأر مثلا؟!.

هزت رأسها نفيا وهي تقول:

- الأمر أكبر من ذلك بكثير يا دكتور.. ستعرف كل شيء بعد قليل.. المهم.. كنت أقول إنني تسمرت في مكاني تماما وأنا أفكر بهذا المأزق الرهيب الذي جعل حياتي العادية تبدو وكأنها من عالم آخر بعيد المنال.. من يصدق أن بيتي والمكان الآمن لي هو على بعد 10 دقائق من هذا الكابوس.. فأنا أسكن في منطقة (الفيحاء) وهي ليست بعيدة عن مستشفى (الأميري) كما تعلم.. لكني شعرت للحظة أنني سأكون أسيرة هذا الظلام إلى الأبد.. فرحت أتوسل مرة أخرى وأخرى لهؤلاء الأوغاد أن يتركونا لحال سبيلنا.. كنت على وشك الانهيار.. إلا أنهم ظلوا يحدقون بي بصرامة دون مبالاة لدموعي.. وكأنهم فقط ينتظرون مني الانتهاء ومن ثم الامتثال لأوامرهم.. حسنا.. لن أطيل عليك بتوسلاتي الكثيرة.. إذ لم أجد في النهاية بدا من الانصياع لهم.. يجب علي دخول مستشفى (الأميري)

ونزع قناع الأكسجين عن رجل في غرفة العناية المركزة كما فهمت منهم.. لذا خرجت من المبنى المهجور بعد تهديد ووعيد متكرر بأنني سأعرض شقيقتي للقتل إذا أبلغت الشرطة.. خرجت وبيدي ورقة رُسِمت عليها خريطة بدائية لأحد الأبواب الجانبية للمستشفى حيث سينتظرني هناك زميلهم رجل الأمن كما علمنا والذي سيأخذني لغرفة العناية المركزة كي أنفذ الجريمة.

ما زالت (دلال) تتحدث بابتسامتها المعهودة حتى جعلتني أشك بقواها العقلية.. فمن الذي يمر بتجربة كهذه ويبتسم؟!!.. دعكم من أن القصة نفسها تحوي ثغرات واضحة لا أعرف إلى ماذا ستؤدي في النهاية.

ظل الهدوء التام والترقب يسيطران على أجواء الغرفة سوى صوت الموسيقى الهادئة التي لا تزال تنبعث من هاتفها.. فأكملت (دلال) مستمتعة باهتمامي الشديد:

- خرجت من المبنى المهجور ثم نظرت إلى الساعة عبر هاتفي النقال ووجدتها تتجاوز الواحدة فجرا بقليل.. مشيت بعدها على جانب الشارع الداخلي المؤدي إلى المستشفى وجسدي يرتجف وقد امتلأت ثيابي تماما بالعرق.. و..

أثناء سيري.. انتبهت فجأة إلى ذلك الشاب!!!.. شاب على قدر من الوسامة كان قد أوقف محرك سيارته الفارهة وجلس على مقدمتها وهو ينظر إلى النجوم بهيام.. هناك سلكين دقيقين يتدليان من أذنيه.. من الواضح أنه يستمع إلى شيء ما عبر هاتفه النقال.. وكأنه يعيش في عالمه الخاص.. دكتور.. ربما تسمع كثيرا عن غريزة الأنثى والحاسة السادسة التي تمتلكها وربما تظن أنها محض هراء.. لكن صدقني.. هي حقيقية تماما.

قلت مؤيدا:

- أنا من المؤمنين أن للأنثى شفافية لا يفهمها أبدا معشر الرجال.

رمقتني بإعجاب وأكملت ممتنة:

- رغم حرصي الشديد على حياة شقيقتي وخوفي من أن ينفذ هؤلاء الأوغاد تهديدهم إذا طلبت المساعدة من أحد.. إلا أنني شعرت فجأة أن ذلك الشاب هو أملي الوحيد وأنه سينقذني من هذا المأزق رغم وجوده المريب في مثل هذا المكان وتلك الساعة.. لذا توقفت للحظات وأنا أنظر إليه وهو على بعد أمتار قليلة مني.. ثم حسمت أمري

ومشيت ناحيته بخطوات ذليلة لينتبه إلي فجأة ويعتدل في جلسته سريعا بعد أن أعدته إلى عالم الواقع.. فعل ذلك وهو يزيح السماعتين الدقيقتين من أذنيه وينظر إلي مستغربا.. يبدو أنه عرف مباشرة أنني في مأزق ما بسبب منظري المزري.. تنحنحت وقلت له بتوتر واضح: ((أرجوك ساعدني.. أنا في ورطة حقيقية!!!)).. رد باستغراب وهو ينظر إلى ملامحي المذعورة: ((هل تواجهين مشكلة مع سيارتك؟!)).. هززت رأسي نفيا بذعر وأنا أقول: ((المشكلة أكبر بكثير.. شقيقتي تعرضت للاختطاف.. وقد قابلت مختطفيها للتو.. يريدونني أن أقتل رجلاً ما في غرفة العناية المركزة في المستشفى.. إما هذا أو يقتلون شقيقتي وربما يقتلونني معها!!!)).. ظل ينظر إلي بدهشة للحظات متوقعا أن أخبره أنني أمزح مثلا.. و.. لن أطيل عليك الكلام عن مرحلة التكذيب والإقناع.. إذ تطلب الأمر بعض الوقت لأقنعه أنني في مأزق كهذا بالفعل.. قبل أن يقول بتعاطف حقيقي وقد بانت الجدية الكاملة على ملامحه: ((حسنا.. اذهبي إلى المستشفى ونفذي ما يقولونه.. ولكن لا ترتكبي الجريمة.. حاولي أن تتأخري قليلا.. حاولي أن تماطلي.. سأتصل بدوري في الشرطة أثناء ذلك وأخبرهم بكل

شيء.. سيعرفون كيف يتصرفون بكل تأكيد)).. قالها وهو يخبرني باسمه ويطلب مني تسجيل رقم هاتفه في جهازي حتى أظل على تواصل معه رغم المخاطرة الكبيرة أن ينفذ هؤلاء الأوغاد تهديدهم كوني لجأت إلى المساعدة.. لكني قررت المخاطرة واتباع حاستي الأنثوية التي دفعتني للثقة بهذا الشاب.. نظرت إليه بعدها بامتنان شديد.. ثم تركته وأنا أتجه إلى المستشفى وإلى أحد الأبواب الجانبية حسب ما هو موضح في الخريطة -إن جاز إطلاق كلمة خريطة عليها أصلا- لأجد رجل أمن من جنسية آسيوية بدا واضحا أنه كان في انتظاري.. إذ أشار إلي بسرعة أن أتبعه دون أن ينطق بكلمة واحدة.. فتبعته إلى أن أوصلني إلى مصعد داخلي مخصص للعاملين في المستشفى.. ركبت معه المصعد والقلق يلتهم عقلي.. آملة أن يفي ذلك الشاب بوعده وينقذني وينقذ شقيقتي من هذا المأزق المرعب.. خرجنا بعدها من المصعد ورحت أمشي خلف رجل الأمن وهو يقودني إلى ممرات المستشفى الخالية تماما في هذا الوقت المتأخر.. أين باقي رجال الأمن؟!.. أين الممرضات؟!.. هل هن متورطات أيضا وقد دفع هؤلاء الأوغاد لهن المال ليتركن أماكنهن في هذه الساعة؟!.. لم أجد الوقت لأفكر

بالإجابة على تلك التساؤلات.. إذ وجدت نفسي فجأة أمام باب غرفة العناية المركزة.. ليفتحه لي رجل الأمن ويبتعد سريعا.. إنه ينفذ تعليماتهم حرفيا كما يبدو!!!.. دخلت الغرفة ودقات قلبي تزداد وتزداد.. لأجد نفسي واقفة بين مجموعة من المرضى الذين لا تفصل بينهم سوى الستائر.. حسنا.. من المفترض أن الرجل المطلوب موجود في الزاوية اليمنى البعيدة عن باب الغرفة.. مشيت خطوات قليلة وأنا أسمع أجهزة القلب تعمل بهدوء مخيف وكأنها تنذر بالموت.. إلى أن وصلت أخيرا إلى سرير ذلك المسكين.. أزحت الستارة بيد مرتجفة.. و... و....

سكتت وهي تنظر إلي مصدومة وكأنها تعيش الموقف مرة أخرى.. ثم:

- وجدت.. وجدت.. لا أعرف كيف أقولها لك يا دكتور.. أرجوك صدقني.. هذا الجزء تحديدا هو أكثر الأجزاء صعوبة في تصديقها من قصتي.. وعموما أنت لن تعرف الحقيقة إلا إذا رأيت الخيال!!!.. مقولة غريبة لكنها تنطبق بصورة رائعة على قصتي.. حسنا.. لم أجد هناك أي رجل على السرير.. بل انتبهت حينها فقط إلى أنني

لست في جناح الرجال.. بل جناح النساء.. وقد.. وقد كنت.. كنت أنا من تنام على السرير!!!!!.

نظرت إليها باستنكار شديد وبمزيج من الدهشة وخيبة الأمل لأقول:

- ماذا؟!!.. أنت كنت على السرير؟!.. هل كنت مريضة في المستشفى وكل ما مررت به هو حلم؟!!.

ردت بصوت عميق هادئ مليء بخشوع لم أفهمه:

- إنك لم تفهم القصة بعد يا دكتور!!!.. بكل تأكيد أنا لم آتِ إليك في مثل هذه الساعة لأخبرك بتفاصيل حلم سخيف.. الأمر يختلف تماما عما تظنّه.. في البداية لم أفهم أنا نفسي ما يحدث.. إذ وقفت مصدومة أنظر بفم مفتوح إلى نفسي ممددة على السرير.. فقد كانت هذه أكبر هزة أتعرض لها في حياتي.. وأقوى مفاجأة مررت بها بكل تأكيد.. حتى تطلب الأمر وقتا طويلا لأستوعب ما يحدث وأبدأ أتذكر شيئا فشيئا تفاصيل دقيقة من حياتي.. بدأت أتذكر الصمام المغلق في قلبي والذي عانيت منه بسبب سمنتي.. تذكرت بكاء والدتي ودعاءها لي.. ثم العملية

الخطيرة التي أخبرني الأطباء بضرورة إجرائها.. تذكرت اللحظات التي سبقت دخولي المستشفى والخوف الذي عشته كونها أول عملية أجريها في حياتي.

قلت بغباء:

- ما هذا اللغز؟!.. هل تريدين أن تقولي إنك ميتة ومن يجلس أمامي الآن هو شبح (دلال)؟!!.

ضحكت طويلا لسخافة استنتاجي.. من يلومني.. هل فهمتم أنتم شيئا من كلامها؟!.. لكنها اعتدلت لتقول بجدية لم تخلُ من ابتسامتها التي لم تفارق وجهها تقريبا منذ دخولها مكتبي:

- لا ألومك يا دكتور.. حتى أنا ظننت نفسي ميتة بالفعل وأنني مجرد شبح.. ولا أنكر حالة الهلع التي مررت بها.. إذ صرخت وصرخت وأنا أخرج باحثة عن الممرضات أو الطبيب المناوب.. وعندما عثرت عليهم.. انتبهت إلى أن أحدا منهم لا يراني رغم صراخي ومحاولاتي اليائسة للحديث معهم!!!.. كان الجميع يتجاهلني.. تماما كما نرى في أفلام الأشباح التي باتت تكرر تلك الثيمة كثيرا.. لكني تمالكت نفسي شيئا فشيئا.. وبدأت أدرك أنني لا

يمكن أن أكون ميتة.. إذ كان من الواضح أنني في غيبوبة*..

---

* كلمة غيبوبة باللغة الإنجليزية (Coma) مشتقة من كلمة يونانية تعني (النوم العميق).. والغيبوبة هي حالة من فقدان الوعي لا يمكن للفرد فيها التفاعل مع البيئة المحيطة به أو الاستجابة للمؤثرات الخارجية.. وتتجاوز أقل فترة غيبوبة عادة 6 ساعات وقد تستمر لعشرات السنين إلى أن يحين أجل المريض.. والواقع أن السجلات الطبية تمتلئ بقصص مذهلة لا تصدق عن حالات الغيبوبة.. منها ما حدث للبلجيكي (روم هوبين) (Rom Houben) الذي ظل في حالة غيبوبة كاملة منذ عام 1983 بسبب حادث سير كاد أن يسلبه حياته.. إلى أن اكتشف الأطباء منذ سنوات قليلة -وبالصدفة- أن دماغ (روم هوبين) يعمل بصورة طبيعية جدا!!!.. مما يعني أن الرجل يسمع ويشعر بكل ما يجري حوله رغم أن جسده في حالة شلل كامل بسبب الغيبوبة.. فأعلن الأطباء عن ذلك أمام وسائل الإعلام وسط ذهول الجميع.. وقد صرح أحد كبار أخصائيي الأمراض العصبية أن هناك -ربما- حالات غيبوبة أخرى من الممكن جدا أن تكون شبيهة بحالة (روم هوبين).. ولكن من العسير اكتشاف ذلك كون الأمر يحتاج أجهزة متطورة جدا لا تمتلكها معظم المستشفيات.. وجدير بالذكر أنه قد تم صنع جهاز كمبيوتر خاص جدا يعمل باللمس لـ(روم هوبين) حيث يتصل مع العالم بأكمله خلاله.. وذلك بعد أن قام الطاقم التمريضي الخاص به بتدريبه على تحريك أطراف أصابعه بفضل تمارين العلاج الطبيعي التي يجرونها له باستمرار.. فأصبح يستخدم أصابعه ليلمس الشاشة ويكتب ما يرغب في قوله رغم غيبوبته وفي حالة نادرة جدا لم يشهد الطب مثلها من قبل!!!.. يقول (روم هوبين) من خلال وسيلة التخاطب تلك إنه يشعر وكأنه ولد من جديد.. فقد ظل سنوات طويلة حبيسا في جسده -وهو بكامل وعيه- يحاول تحريك أصابعه أو حتى أصابع قدميه لتنبيه الأطباء لكنه عجز عن ذلك تماما.. فراح يقضي وقته كله بالتأمل والاستماع فقط لما يدور حوله.. فكان يسمع الأطباء يوميا يناقشون حالته ويتحدثون عن صعوبتها ويشعر بالممرضات وهن يقمن بتفريش أسنانه وحلاقة ذقنه.. ويقول أيضا إنه كان يسمع والدته وزوجته اللتين ظلتا تزورانه باستمرار وتتحدثان معه وتبكيان.. بل وسمع والدته تنقل له ذات يوم خبر وفاة والده.. فشعر بحزن شديد دون أن يتمكن من التعبير عنه بطبيعة الحال ولا حتى بالبكاء.. والمؤلم أنه تحدث أيضا من خلال وسيلة التواصل تلك بشعوره حين جرى له حادث السير.. إذ وقع في الغيبوبة مباشرة بسبب إصاباته لكنه لم يدرك ذلك كون وعيه ما زال مستيقظا.. إذ راح يصرخ ويصرخ وظن أن الناس سيسمعون صراخه.. لكنه انتبه فجأة أن لا أحد حوله قد لاحظ شيئا.. فعاش ساعات طويلة مصدوما لا يعرف إن كان حيا أم ميتا.. قبل أن يخمّن بنفسه ما حدث له.. وهناك العديد من القصص الغريبة الأخرى الخاصة بحالات الغيبوبة.. منها قصة الطفلة الآسيوية (يا وِن) (Ya Wen) ذات الثلاث أعوام.. والتي استيقظت من غيبوبتها بعد حادث سير لتبدأ تنتحل شخصية رجل بالغ!!.. إذ بدأت تشرب الخمر وتدخن علبة سجائر كاملة تقريبا كل يوم بعد أن تسرق السجائر من والدها.. وقد صعق والداها عند اكتشافهما لتلك الحقيقة المروعة فقاما بإخضاعها لجلسات طويلة من العلاج النفسي لإعادتها إلى صوابها.. ولا ننسى أيضا قصة الفتاة الكرواتية (ساندار راليتش) (Sandra Ralic) والتي لا يتجاوز عمرها الـ 13 عاما حين استيقظت من غيبوبتها وقد نسيت لغتها الكرواتية وأصبحت تتكلم الألمانية فجأة بطلاقة رغم أنها لم تكن تجيدها أصلا!!!.. علما بأن الغيبوبة التي أصابتها كانت مفاجأة ولم يكن لها سبب واضح.. ولم تستمر سوى يوم واحد فقط.

فأنا في غرفة العناية المركزة وجسدي ينبض بالحياة بعد أن قام الأطباء بإجراء عملية خطيرة للغاية لاستبدال صمام قلبي التالف.. إن ما تعرضت له يا دكتور هو تجربة نادرة جدا يطلق عليها اسم (وعي التخدير)*.. فالبنج الذي تم استخدامه لإجراء العملية لم يفقدني وعيي رغم أنه أصاب جسدي بالشلل كحال كل من يتعرض للبنج**.. هل فهمتني الآن؟!!.

---

* وعي التخدير (Anesthesia awareness) هو حالة نادرة جدا تحدث أثناء العمليات الجراحية.. حين يصبح المريض مخدرا بالكامل بسبب البنج.. لكنه -وبنفس الوقت- لا يفقد وعيه!!!.. بل يظل بكامل وعيه ويشعر بكل ما يجري حوله في غرفة العمليات.. لكن البنج الذي يشل جسده يجعله عاجزا تماما عن الحركة.. أي أن هناك احتمال لا بأس به أن يشعر المريض بكل آلام العملية دون أن يتمكن من الصراخ أو الحركة.. وفي حالات قليلة جدا ينفصل الوعي بالكامل عن الجسد.. تماما كما حدث في قصتنا هذه بسبب صدمة المريض وهو يشعر بمبضع الجراح الذي يشق جسده.. ويعتقد أن وعي التخدير يحدث بسبب خطأ طبي يقع فيه بعض الأطباء أحيانا عند تعريض المريض لكمية غير كافية من البنج.. وأحيانا أخرى يحدث دون سبب واضح.. وهناك فيلم شهير ناقش فكرة وعي التخدير وكان بعنوان Awake وهو من انتاج عام 2007.

**من المعروف طبيا أن البنج يختلف تماما عن المنوم العادي.. فالمنوم يساعدك على النوم فحسب لكنه يسمح لك بالحركة والتقلب على الفراش والاستجابة للمؤثرات الخارجية كالأصوات العالية مثلا.. لذا من المؤكد أن النائم سيستيقظ مباشرة حال ملامسة مبضع الجرّاح لصدره بسبب شعوره بالألم.. أما البنج فيمنع الأعصاب من نقل إشارات الألم إلى المخ مما يوقع المريض بغيبوبة مصطنعة مع شلل كامل مؤقت.. لترتخي عضلاته تماما وتقل ردود أفعاله بشكل كبير بحيث يسمح للأطباء بإجراء العملية الجراحية بأريحية تامة دون أي حركة مفاجئة من المريض قد تعيق سير العملية وتعرض حياته للخطر.

نظرت إليها وعقلي يبحث عن ذلك المصطلح الذي ذكرته للتو.. (وعي التخدير)!!!.. لقد قرأت عن شيء كهذا أيام الدراسة ربما.. لكنه أمر نادر الحدوث.. نادر جدا.. لم أظن يوما أنني سأتحدث إلى شخص مر بتلك التجربة.. يا إلهي.. هذا لا يصدق!!!.

قمت بهز رأسي إيجابا ببطء شديد وأنا أتذكر.. لتكمل هي بابتسامة عريضة:

- من الرائع أنك تتذكر مصطلح (وعي التخدير) يا دكتور.. هذا بالضبط ما حدث لي.. لقد ظل وعيي مستيقظا رغم تخدير جسدي بالكامل بواسطة البنج.. لكنه لم يستوعب ذلك ولم يحتمل الصدمة والألم الذي تسبب به مبضع الجراحة الذي يشق صدري.. فأصيب وعيي بنوع من عدم التوازن واختلطت عليه الأوهام!!!.

سألتها وقد بدأت أفهم:

- تريدين أن تقولي إن كل ما مررت به من اتصال هاتفي وعملية اختطاف شقيقتك والمبنى المهجور لم تكن سوى مجموعة من الأوهام التي صورها عقلك بسبب تعرضك لـ(وعي التخدير)؟!.

ردت بثبات:

- بالضبط يا دكتور.. وكل تلك الهلوسات لم تستغرق سوى ساعات قليلة في واقع الأمر وهي الساعات التي تطلبها إجراء العملية.. لكنها بدت وكأنها أحداث جرت على مدى يومين كاملين.. تماما كما يحدث لك أثناء الحلم.. لقد استوعبت حينها وبعد فترة من الرعب والبكاء أنني في الواقع لم أمت.. ليقل ذعري وتخف حدة صدمتي.. فرحت أنظر إلى جسدي ممددا غير مصدقة!!!.. لا يمكن أن تتصور كيف سيكون حالك حين تبتعد عن الصورة لتراها واضحة.. لقد تمعنت في ملامحي وجسدي ممدد على الفراش وعشرات الأجهزة الطبية حولي بعد أن خرجت من غرفة العمليات بساعات قليلة.. لم يكن الأمر يشبه النظر في المرآة.. بل كان مختلفا تماما.. لكني لم أعلم حينها أن ما يحدث لي بسبب (وعي التخدير).. بل ولم أكن أعلم بوجود مصطلح كهذا أصلا.. لذا حاولت أن أفهم ما يحدث.. فخرجت من المستشفى -أو فلنقل خرج وعيي- وتوجهت مرة أخرى إلى المبنى المهجور.. فلم أجد شقيقتي هناك ولم أجد حتى مختطفيها.. حقا أن أكثر الأوقات التي تبدو فيها الأمور حقيقية وواقعية هي لحظات الهلوسة.. لكن.. بعد أن عرفت وضعي ومكاني في هذا العالم شعرت

أنه ربما يجب علي الاستفادة من تلك التجربة!!!.. نعم.. هذا ما طرأ بذهني وأنا أخرج من المبنى المهجور وأمشي في الشارع وقد انتبهت أيضا إلى أنني في واقع الأمر لا أشعر بالجوع أو الحر والبرد.. فكل ما شعرت به قبلها هو مجرد هذيان وهلوسات كوني لم أحتمل صدمة (وعي التخدير) أثناء إجراء العملية.. و...

سألتها بهدوء شاعرا برهبة تلك التجربة الغريبة:

- ولكن.. إلى متى ظللت على هذا الحال؟!.. إلى متى استمرت الغيبوبة؟!.

ردت باهتمام:

- لقد كان هذا السؤال يقتلني قتلا في البداية.. لكني مع مرور الوقت وجدت أن الأمر ليس بذلك السوء!!!.. فقد دخلت عالما كاملا يخصني أنا وحدي ولا يشاركني فيه أحد.. وسأتمكن من فعل ما أعجز عنه في حياتي الطبيعية.. تخيل أن وعيي هو الذي يتحرك بعد أن ترك جسدي في المستشفى.. وأصبح بإمكانه أن يجوب الطرقات في أي وقت أريده دون قيود ودون أن يراني أحد.. بل ودون أن أشعر بالحر والتعب أو حتى بالجوع.. فالجسد هو الذي يتعب وليس الوعي كما تعلم.. لقد دخلت بيتنا نفسه

وسمعت كلام أفراد عائلتي عني وقلقهم علي ودعاءهم لي أن أخرج بالسلامة.. كنت أجسد قصة (الرجل الخفي) الشهيرة يا دكتور.. لكني كنت (الفتاة الخفية) هذه المرة!!!!.. تجربة جميلة نادرة ساحرة أبعدتني تماما عن زحمة الحياة وربما يدفع الناس نصف أعمارهم ليعيشوها.. إذ زرت عشرات البيوت.. وجلست في أفخم القصور.. وسمعت أكثر الأسرار العائلية والشخصية خطورة.. تخيل أن تتبع أي شخص تريده.. فتكون معه حين يختلي بنفسه ويظن أن لا أحد يراه!!!.. لقد عرفت حينها أن لكل منا جانبا أسود لا يمكن أن يفصح به لأحد.. ولا أنكر أن هذا قد أصابني بالذهول والغثيان في بادئ الأمر.. فأدركت أن الكتمان نعمة حقيقية.. ولو وجد إنسان قادر على رؤية كل الناس مكشوفين تماما كما رأيتهم أنا فلا بد أنه سيموت من الاشمئزاز.. إن شخصيتك الحقيقية يا دكتور هي ما تفعله حين لا يراك أحد!!!.. لهذا تمكنت من كشف الشخصية الحقيقية لكل إنسان في حياتي.. صديقاتي.. أقاربي.. جميع أفراد أسرتي.. وصعقت حين اكتشفت أنني كنت مخدوعة ببعض صديقاتي وحتى ببعض أقاربي مع الأسف.. ولا أنسى ما فعلته حين توجهت إلى قنوات التلفزيون أنتظر خروج

المشاهير من برامجهم لأتبعهم إلى بيوتهم.. فرأيت أفعالهم وعرفت كم أن معظمهم منافق يدعي الشرف والأمانة بينما في واقع الأمر تجده يمارس أقبح الأفعال.. من الرائع حقا أن يخرج وعيك من جسدك ليتجول ويستكشف كل شيء حوله.. عندها سيعود إليك حتما بالفكرة الصحيحة عن هذا العالم.

كنت أنظر إليها بشرود لذيذ حالما ومتمنيا أن أعيش تلك التجربة.. لكن دون عمليات جراحية.. أطال الله في عمري وأبعدني عن كل الأمراض.. سألتها بعد ذلك:

- المعذرة.. لم تجيبي على سؤالي.. كم استمر هذا الوضع؟!.

ردت بنظرات حالمة:

- أقل من أسبوع.. كان الوقت يمر علي بصورة طبيعية ككل الناس عدا ساعات العملية التي عشت فيها وهم الاتصال الهاتفي واختطاف شقيقتي.. وقد انتهت تلك التجربة فجأة -مع الأسف- أثناء وجود وعيي في فيلا فخمة لأحد كبار الشخصيات حيث كنت أراقب بفضول بشري معتاد طريقة حياته مع أفراد أسرته.. حين شعرت بقوة غريبة مجهولة تجرني جرا إلى مكان ما وبسرعة خارقة لا تصدق.. لدرجة أنني لم أجد الوقت لأشعر

بالذعر قبل أن أكتشف أن وعيي قد بدأ يعود أخيرا إلى جسدي!!!.. لأستيقظ من غيبوبتي وأجد بعض الممرضين حولي في المستشفى.. ولا أنسى أبدا استغرابهم الشديد حين رأوا ابتسامتي على وجهي حال استيقاظي رغم الإرهاق الشديد الذي كان واضحا علي بعد أن شعر وعيي فجأة بآلام الجسد جراء العملية!!!.

قلت بابتسامة عريضة:

- إنها بالفعل تجربة فريدة من نوعها.. هذا أمر لم يحدث في تاريخ الطب سوى مرات قليلة للغاية.. لن أتحدث عن الجانب الأخلاقي من دخولك لبيوت الناس ومعرفة أسرارهم.. لكن.. من المؤكد أن تلك التجربة قد قدمت لك الكثير.. إنني أرى هذا واضحا في ابتسامتك.

ردت وهي تضحك برقة:

- لقد تغيرت حياتي كثيرا يا دكتور وقد شعرت أنني عرفت الناس.. وعرفت نفسي أيضا.. واكتشفت أن معرفة الآخرين تمنحك الحكمة فحسب.. أما معرفة نفسك فتمنحك النور!!!.. وقد انتبهت فجأة أن لدي حياة طويلة لأعيشها والأفضل ألا أضيع منها لحظة واحدة في ما لا يفيد.. فبت أهتم كثيرا بصحتي وخسرت الكثير من

وزني بفضل الأكل الصحي وممارسة الرياضة باستمرار.. ثم رحت أنهل من الكتب كما لم أفعل من قبل.. والآن أنا أكمل تعليمي في إحدى الجامعات الخاصة.. أسمع دوما أفراد عائلتي يقولون إنني تغيرت بسبب اقترابي من الموت وبعد أن عرفت قيمة الحياة.. لكني أنظر إليهم وأبتسم دون تعليق.. لا أود أن يعرف أحد هذا السر العظيم الذي سأحتفظ به إلى الأبد.

ظللت صامتا وأنا أستمع إليها منبهرا.. لتكمل بدورها وهي تضحك بشيء من الخجل:

- لم يكن هذا أجمل وأغرب ما في قصتي.. فهناك المزيد.. لقد تقدم أحد الشبان لخطبتي منذ شهور قليلة.. هل تعرف من هو؟!.. لن تصدق أبدا.. إنه أحد الثلاثة الذين رأيتهم في مرحلة الوهم حين اختطفوا شقيقتي!!!!.. الغريب أن له شقيقين.. هما تحديداً من كانا معه حين توهمت عملية الاختطاف تلك!!!.. عرفتهما مباشرة حين تمكنت من معرفة حسابه في برنامج (Instagram) وشاهدت خلاله صوره معهما.

كانت المفاجآت تتوالى علي واحدة تلو الأخرى.. وكأنني ملاكم ما زال يتعرض للضرب وقد استسلم تماما وينتظر ابتعاد

خصمه عنه كي يقع على الأرض معلنا هزيمته.. لذا لم أنطق بكلمة.. لتكمل (دلال) بثقة:

- لقد رفضت هذا العريس مباشرة ودون تفكير حالما رأيت صورته.. رفضته رغم استغراب أفراد عائلتي من رفضي الذي لم يكن له ما يبرره.. فقد انتبهت حينها لأمر لم أضعه في الحسبان.. وهو أن وقت العملية الذي انفصل فيه وعيي عن جسدي وما رأيته خلاله لم يكن وهما بصورة كاملة.. بل ربما تكون نبوءة مجهولة أو رؤيا من نوع خاص منحتني القدرة على كشف نوايا الناس.. إذ يبدو أنني رأيت أعماق ذلك الشاب مع شقيقيه.. وهذا ليس كل شيء.. هل تذكر الشاب الآخر الذي طلبت منه إنقاذي؟!.. الشاب الذي كان جالسا على سيارته يستمع إلى الموسيقى.. نعم.. هو بعينه قد تقدم لخطبتي منذ حوالي شهرين.. إنه قريب إحدى صديقاتي.. وقد وافقت مباشرة على الزواج منه.. فهو الوحيد الذي ساعدني في فترة الوهم -أو ربما النبوءة- التي عشتها.. وها أنا الآن زوجته بالفعل.. إنه شاب رائع.. فعندما تستحوذ على اهتمامه.. تشعر بأنك أهم إنسان في العالم.. هذا ما يجعله شخصية محبوبة جدا لدى جميع أفراد عائلته.. وهذا ما يؤكد تماما أن ما مررت به جعلني أرى الكثير

من الناس على حقيقتهم يا دكتور.

ظللت أستمع إلى كلامها غير مصدق.. أو ربما نصف مصدق.. لكن.. فتاة تزورني متأنقة في مثل هذا الوقت من الليل وتحمل هذه الابتسامة الرائعة.. لماذا ستكذب علي؟!.

سألتها بهدوء وقد تعلق قلبي -لا شعوريا- بها:

- (دلال).. أعتقد أنك جئت لزيارتي لأنك كنت تريدين الفضفضة.. لكن.. هل أخبرت زوجك بتفاصيل ما حدث؟!.

ردت ببساطة:

- لا أحد يعلم سواك.. لقد أخبرت زوجي أنني أريد زيارة مستشفى الطب النفسي لطلب استشارة تخص بحثا أجريه حاليا في دراستي الجامعية.. وأخبرته أنني لا أريد زيارة المستشفى أثناء ازدحامه بالمرضى.. وأفضل الفترة المسائية في وقت متأخر نسبيا.. لا أعلم إن كنت ستصدق قصتي يا دكتور.. لكني أؤكد لك أن ما مررت به لم يكن وهما على الإطلاق.. بل تجربة حقيقية تسبب بها (وعي التخدير).. وإن كنت لا أفهم بدايتها وكيف رأيت خبايا الناس كذلك الشاب الذي تقدم لخطبتي ورفضته.. والآخر الذي أصبح زوجي الآن.. المهم أنني تعلمت درسا

مهما للغاية بعد تلك التجربة.. وهو أنك إذا كنت تنتظر قدوم الشخص الذي سيغير لك حياتك.. فيجب عليك أن تنظر في المرآة!!!.. فلا تسأل أبدا ما تعنيه الحياة.. أنت من يجب أن تضع معنى لها.. وتأكد أنه لا يوجد طريق يقودك إلى السعادة.. بل السعادة هي الطريق نفسه وتستطيع أن تعيشها كل يوم لو كنت ترغب في ذلك بصدق.

ابتسمت وأنا أقول:

- الآن فهمت كل شيء.. كنت أستغرب في البداية من ابتسامتك أثناء حديثك عن اختطاف شقيقتك ومحاولة توريطك في جريمة قتل.. وكأنك تتحدثين عن تجربة جميلة.. لكن الآن اتضحت الصورة.. بالمناسبة.. لقد طرأت في ذهني فكرة غريبة للتو.. هل شقيقتك التي توهمت عملية اختطافها سمينة أيضا؟!!.

سألتني مستغربة:

- كيف عرفت؟!!!.

قلت وقد شعرت أن استنتاجي ربما يكون صحيحا:

- تذكّري أنك لم تري وجه شقيقتك عند دخولك لذلك

المبنى المهجور.. فقد قام هؤلاء الرجال بتغطية وجهها بقطعة القماش السوداء أثناء مرحلة النبوءة أو الهلوسة أو أيا كان اسمها.. فلو كان كل ما مررت به قبل اكتشافك للحقيقة بمثابة النبوءة التي كشفت لك سوء أخلاق ذلك الشاب الذي رفضت الزواج منه.. فعلى الأرجح أنك أنت من كنت تحت الغطاء!!!.. وربما لو كشف لك المختطفون عن وجه الفتاة لعلمت أنك أنت المختَطَفة.. ولبدأت تفهمين ما يحدث حولك قبل ذهابك للمستشفى لارتكاب جريمة القتل الوهمية.. أليس كذلك؟!!!.

سألتني باستغراب:

- لكني سمعت صوت شقيقتي عندما حادثتها هاتفيا وطلبت مني إنقاذها.. وأتذكر أن المختطِفين أبلغوني أنهم سيتركونها تذهب لحال سبيلها إذا نفذت الجريمة.. لماذا لم يكشف لي المختطفون عن وجهها لأعرف الحقيقة؟!!.

قلت ضاحكا:

- لا أعلم.. ربما يكون تفسيري خاطئا.. ثم إنها أوهامك ونبوءاتك أنت في النهاية.. كيف لي أن أعرف؟!!.

ضحكنا معا.. ثم أردفْت بجدية:

- لا تنسي أنك لم تدركي الواقع إلا بعد أن رأيت نفسك في غيبوبة في غرفة الإنعاش.. لذا فكل ما مررت به قبل ذلك غير قابل للتفسير وإن كان له جانب من الحقيقة كما هو واضح.. لقد رأيت أعماق الشخص الذي تقدم لخطبتك ورفضته.. ورأيت أيضا أعماق الشخص الذي أصبح زوجك.. لا يمكن أن تكون هذه صدفة.

تأملتني طويلا وهي تفكر بكلامي.. ثم ابتسمت للمرة الألف وهي تنهض لتصافحني وتقول:

- أشكرك كثيرا على وقتك.. كنت أريد أن يستمع إلي شخص أعلم أنه لن يراني مرة أخرى.. والأفضل أن يكون طبيبا نفسيا كي يفهم مشاعري جيدا.. الأمر شبيه بأن تأخذ ماضيك الأسود بأكمله لتضعه في سرداب وتقفل الباب بالمفتاح إلى الأبد.. أنت هو السرداب يا دكتور!!!.. المعذرة إن ضايقك هذا التشبيه.. عموما.. لو أردت نصيحتي.. فأرجوك أن تتذكر جيدا أن شخصياتنا هي نتاج اختياراتنا.. وهذا يعني أننا لا نستطيع أن نغير ما نحن عليه.. ولكن مع كل خيار جديد.. نستطيع أن نغير ما سنكون عليه!!!.

نظرت إليها متفهما مبتسما لذلك التشبيه الجميل والنصيحة الرائعة.. هذه أول زائرة تنصح الطبيب النفسي على عكس ما يحدث غالبا.. ليتني أستطيع تطبيق نصيحتها.. فأنا تائه تماما في واقع الحياة.. بل أنا تائه حتى في أحلامي!!!.. ولا أنكر أنني شعرت بشيء من الحزن الغريب كما يحدث في كل مرة حين أدرك أنني لن أرى زائرتي مرة أخرى.. خاصة حين استدارت لتتجه بخطوات واثقة إلى الخارج وتختفي عن أنظاري إلى الأبد.. لكن القصة لم تفلت من ذهني أبدا.. فما زلت أفكر بين الحين والآخر بتلك التجربة الفريدة التي عاشتها (دلال).. قبل أن تكتشف أنها ليست سوى بداية دخولها إلى عالم (وعي التخدير) الغريب.. وأن جريمة الاختطاف التي مرت بها شقيقتها لم تكن حقيقية.. بل جريمة وهمية صاحبَتْها نبوءة لن نجد لها تفسيرا.. جريمة غير منطقية!!!.

الميت الذي عاد!!!

تحكيها: مجهولة رفضت الإفصاح عن اسمها

العمر 20 عاماً (على الأرجح)

إنها واحدة من الأمسيات المرهقة التي أكرهها كثيرا.. أتذكر أنني استيقظت يومها من النوم في الرابعة عصرا بعد نوبتي المسائية التي انتهت في السابعة صباحا.. حيث ذهبت بعدها إلى أحد صالونات الحلاقة للاستعداد لحفل زفاف أحد أقاربي.. أمر لا بد من القيام به مع الأسف.. أكره كثيرا تلك المناسبات الاجتماعية.. عشرات المصافحات والقبل والاتهام بالتقصير وكل ما يجعلك تشعر أنك مختلف عن الآخرين.. دائما أرى أن أسوأ أنواع الوحدة أن تكون في مكان مزدحم.. ولا يوجد أي تناقض في عبارتي تلك.

المهم أنني أديت الواجب العائلي وذهبت إلى حفل الزفاف في صالة أفراح (الميلم) بمنطقة (العديلية).. ولم تفُتْني النظرات التحتية من أقاربي وأبناء عمومتي كوني أسكن وحيدا في شقة.. واضح أنهم يظنون أنني أحيا حياة عابثة ماجنة حيث تتراكم زجاجات الخمر الفارغة تحت فراشي.. وأن شقتي ليست سوى مرتعا لبائعات الهوى.. سامحهم الله.. إنني أدفع ثمنا باهظا كما يبدو لمخالفتي عاداتنا وتقاليدنا البالية.. لكن هذا لا يهمني طالما أنني مقتنع تماما بما أفعله وأعلم جيدا أنني لم ولن أسيء إلى نفسي أو لعائلتي يوما.

كان حفل الزفاف مملا لا يختلف عن حفلات الزفاف الرجالية..

حيث اضطررت للجلوس مع أقاربي والحديث حول أمور مختلفة معظمها يتعلق بالسياسة التي أكرهها وأشبّهها دوما بمباراة بين (بيرو) و(بوليفيا).. مباراة لا تهمني وليس لي ناقة فيها ولا جمل.. خرجت بعدها من حفل الزفاف عائدا إلى شقتي.. لأجلس نصف ساعة تقريبا أشاهد التلفزيون قبل أن آخذ حماما ساخنا من جديد استعدادا للذهاب إلى عملي في نوبتي المسائية الجديدة.

كانت الساعة لا تتجاوز العاشرة مساء عند وصولي إلى المستشفى.. حيث جلست على مكتبي ورحت أعبث في هاتفي النقال وفي وسيلة التواصل الاجتماعي الشهيرة (واتس آب).. كم أكره وسائل التواصل الاجتماعي تلك.. لا أحب أن أنكشف أمام العالم بهذه الصورة.. أحب أن أبقى مركونا منسيا في زاوية مظلمة وأن أعيش حياتي دون مضايقة من أحد.. لكن.. مواكبة العصر شر لا بد منه مع الأسف.. فهذا (جروب) خاص بي مع أشقائي.. وهذا آخر يجمعني مع أشقائي وشقيقاتي.. وآخر فرضه علينا مدير المستشفى للإعلانات الهامة.. كما ترون.. لا أحد يستطيع الهرب من زحمة الحياة التي تطاردنا حتى في هواتفنا النقالة.

كنت أرد على رسالة هاتفية كتبها شقيقي وهو يدعوني لحضور

حفل زفاف أحد أصدقائه.. نعم.. حفل زفاف آخر!!!.. فهذه المناسبات لا تنتهي.. لكني اعتذرت مباشرة وتعللت بنوبتي المسائية في المستشفى وبجدول عملي المزدحم.. بالطبع شقيقي يعلم أنني أكذب.. لكنه لا يجرؤ على قولها في وجهي.. المعذرة يا شقيقي العزيز.. هذه ليست حياتي ولا أحبها.. و.. صوت طرقات هادئة للغاية على الباب!!!.

وضعت هاتفي على المكتب.. ثم عدلت من وضعي على الكرسي.. وتنحنحت لأطلب من الطارق الدخول بصوت حاولت أن أجعله رزينا قدر الإمكان.. هذه أجمل لحظات عملي.. لحظة انتظاري لرؤية من يقف خلف الباب.. وتتضاعف فرحتي بكل تأكيد حين يكون الزائر فتاة.. إن تقديسي الزائد للأنثى يقتلني قتلا ويجعلني أرغب دائما أن أظهر أمامها بمظهر الشاب الشهم الذي يقدم لها كل عون.. فالأنثى كائن شديد الحساسية والذكاء الفطري.. ومن الصعب ألا يقع المرء في عشق أي كائن ذكي حساس!!!.

فُتح الباب.. وإذا بها فتاة بالفعل!!.. خطواتها قلقة مترددة جعلت قلبي يتحفز.. إنها تنظر إلى عيني مباشرة وبطريقة لا تسمح لي أبدا بتأمل ملامحها وهيئتها الخارجية.. لا أعرف لماذا رحت لا شعوريا أتذكر كيف أبدو في هذه الأثناء..

أنا أحلق ذقني بانتظام لحسن الحظ.. وقد حلقته اليوم استعدادا لحفل الزفاف الذي عدت منه قبل قليل.. كما أنني أرتدي ثيابا أنيقة دوما في المستشفى.. نعم.. أعترف أنني أتصرف كمراهق.. لكني بالمقابل أقدم المساعدة الممكنة لكل من يزورني.. ولم أستغل يوما وضعي كطبيب نفسي للإيقاع بالفتيات البريئات.. أنتم تدركون ذلك جيدا.. إنه فقط قلب العاشق الذي ينبض داخلي!!!.

ألقت الفتاة التحية باحترام وبصوت خافت للغاية.. فابتسمت مشجعا ورحبت بها بأدب شديد طالباً منها الجلوس.. سرحت عيناها للحظة وهي تنظر إلى سطح مكتبي.. فوجدتها فرصة لتأملها جيدا.. كانت نحيلة.. ترتدي بنطالاً ضيقاً نسبياً مع قميص أزرق.. وعلى رأسها حجاب أبيض يكشف بعضا من شعرها البني الذي أحلم وأتمنى أن أراه.. ولا ننسى بعض مساحيق التجميل الخفيفة التي جعلتها فاتنة من وجهة نظري.. على الأرجح لا يتجاوز عمرها الـ 20 عاما.. أعشق الجمال.. وأستمتع برؤيته دون أي أفكار سوداء قد تخطر ببال البعض.. هكذا قلت لنفسي قبل أن أسألها بابتسامة عريضة عن سبب زيارتها.. فنظرت إلي للحظة وكأنها تتأمل ملامحي.. ثم:

- دكتور.. هل تعلم أنني ظللت طوال الطريق أتساءل عن مدى جدوى قدومي إلى هنا لأخبرك بقصتي.. لا أعلم إن كانت هذه خطوة سليمة.. لكن.. السر يثقل كاهلي كثيرا.. أريد أن يشاركني فيه أحد.

قلت متفهما:

- الفضفضة جزء مهم للغاية من العلاج النفسي.. أحيانا كثيرة يتمثل العلاج في الفضفضة فحسب.

أشارت إلي بإصبعها وكأنها توافقني على كلامي.. ثم قالت:

- لا أعرف كيف أبدأ قصتي يا دكتور.. فقد عانيت الكثير في حياتي القصيرة.. وكانت الظروف دوما أقوى مني.. قبل أن تقودني الظروف نفسها إلى تلك التجربة الرهيبة وتضعني الحياة على محك حقيقي!!!.. كان لا بد حينها أن أتخذ قرارا مصيريا.. وقد اتخذته بالفعل.. شعرت أنني يجب أن أكون قوية مرة واحدة في حياتي على الأقل.

قلت برحابة صدر:

- لماذا لا تخبريني بقصتك من بدايتها وبالتفصيل؟!.. وظيفتي هي أن أستمع إليك.

أومأت برأسها.. ثم ردت وهي تعدل حجابها:

- أريدك أن تعلم أولا أنني من فئة البدون.. تلك الفئة المضطهدة التي تعيش في (الكويت) دون هوية ولا جواز سفر ولا جنسية.. ربما أنت تتعاطف مع فئة البدون.. أو قد تراهم مجموعة من الاستغلاليين الذين أخفوا وثائقهم الحقيقية طمعا في الجنسية الكويتية وامتيازاتها.. لا يهمني رأيك مع كامل احترامي لك.. فأنا لم آت إليك لهذا السبب.. إنما لسبب آخر تماما.. لكن وضعي الاجتماعي هذا قد يرسم لك اللوحة الخلفية لحياتي.. خاصة لو علمت أنني ظللت أعيش سنوات طويلة على حافة الفقر مع والدتي وشقيقي الذي يصغرني ببضعة أعوام.. أما والدي فقد توفي منذ 5 سنوات بسبب مرض السرطان الذي التهم جسده.

تنهّدَت وكأنها تستذكر سنوات تكرهها كثيرا من عمرها.. ثم أكملت:

- لقد أنهيت دراستي في المرحلة الثانوية منذ عامين.. وأصبحت الوحيدة المؤهلة للعمل لإعالة هذه الأسرة الصغيرة.. ولم يكن الأمر سهلا كما تعلم.. أنت تتحدث عن فتاة بدون جنسية لا تملك أي مهارات في حياتها سوى

شهادة الثانوية العامة.. لذا فقد عانت أسرتنا الكثير.. ومررنا بأيام سوداء لم نجد فيها ما يسد جوعنا.. لن أخبرك بمسلسل زياراتي المستمرة للجان الخيرية التي شعرت في معظمها بمهانة شديدة من سوء المعاملة.. والتي تعرضت في بعضها أيضا لتحرشات الذئاب البشرية.. صدقني.. الحديث سيطول كثيرا عن حياتي في تلك الأيام السوداء.. لذا سأتجاوز هذه النقطة.. وسأتحدث عن الوظيفة التي عثرت عليها بعد جهد جبار في تلك الشركة!!.

قلت متعاطفا:

- لا أعتقد أن هذه الوظيفة قد حلّت المشكلة.. أدرك جيدا أن هناك الكثير من الشركات التي تستغل دوما فئة البدون وتمنحهم رواتب مضحكة لعدم وجود من يدافع عن حقوقهم.

هزت رأسها بأسف وهي تنظر إلى الأرض.. ثم:

- ما تقوله صحيح تماما.. خاصة لو علمت أن صاحب تلك الشركة -ومديرها بنفس الوقت- أصر على لقائي بنفسه عندما تقدمت بأوراقي لطلب الوظيفة.. ففي البداية لم أهتم كثيرا لهذا الإصرار كونه يحق للمدير أن يقابل من يريد وأن يقوم بتوظيف من يراه مناسبا.. لكن.. من

اللحظة الأولى لدخولي مكتبه.. عرفت لماذا أصر على لقائي.. إذ تبين أن الرجل زير نساء* حقيقي رغم عمره الذي تجاوز الـ 50 عاما كما بدا لي.. كان هذا واضحا وهو ينظر إلي من قمة رأسي وحتى أخمص قدمي.. وكأنني سلعة يتفحصها جيدا استعدادا لشرائها.. ويبدو أنني أعجبته كثيرا.. خاصة وأنني كنت متأنقة للغاية حينها.. لا يمكنك تصور اشمئزازي يا دكتور وأنا أجلس مجبرة مع رجل يحمل نظرات الذئب الذي ينتظر اقتناص فريسته.. لكني رحت أبتسم مرغمة مع النكات السخيفة التي ظل يطلقها بين الحين والآخر كي أكسب رضاه وأظفر بهذه الوظيفة.. خاصة مع الراتب المغري الذي عرضه علي والذي لم أكن أحلم به أو أتوقعه أبدا.

قلت وأنا أزفر:

- واضح أن الراتب المغري ستكون له تبعات كثيرة.. هذا الرجل استغل حاجتك للمال كما يبدو!!!.

---

* زير النساء هو الرجل الذى يكثر زيارة النساء ويحب مجالَستهن ومحادثتهن في الباطل.. وتطلق عليه كلمة (زير) لكثرة زيارته لهن.. علما بأن جمع كلمة زير هو (أزيار) أو (أزوار).

ردت وهي تنظر إلي بجرأة:

- نعم.. وقد كنت أدرك ذلك جيدا.. لكن.. ليس من السهل أن ترفض وظيفة بهذا الراتب المغري إن كنت لا تملك قوت يومك يا دكتور.. لذا ظللت أحاول إقناع نفسي بأنني يجب أن أحظى بالوظيفة أولا ومن ثم أحاول فرض احترامي على هذا اللعين.. وبالفعل!!!.. استلمت وظيفتي بعد تلك المقابلة بيومين فحسب.. بل وساعدني المدير كثيرا في الأسابيع التالية للحصول على رخصة قيادة وشراء سيارة مستعملة لا بأس بها وبأقساط بسيطة تخصم من راتبي.. كانت ظروف حياتي تسهل شيئا فشيئا كما ترى.. حتى شعرت لأول مرة بشيء من السعادة.. آملة أن أبني لنفسي مستقبلا من هذا المكان.. ومتجاهلة نظرات الغزل الواضحة التي ظل المدير يرمقني بها طوال الوقت.. الغريب أنه رجل أعمال ومليونير سافر إلى كل أنحاء العالم ورأى أجمل الفتيات.. فلماذا التفت إلي أنا تحديدا؟!.. لقد كان -وما زال- هذا السؤال يحيرني كثيرا!!!.

ابتسمت وأنا أقول بلهجة العليم ببواطن الأمور:

- هذا أمر طبيعي.. الفتاة التي تأتي من نفس ثقافة ومجتمع

الرجل تثيره دوما.. وإن كانت من مستوى اجتماعي أقل.. كما أنك قلت إن الرجل زير نساء.. فماذا تتوقعين.. وربما كثرة أشغاله تجعله يبحث عن اللهو في مكان قريب منه.. في شركته نفسها.

ردت ببغض:

- بالفعل.. أوقات فراغه كانت محدودة للغاية.. فهناك اجتماعات دائمة وضيوف يدخلون مكتبه بشكل مستمر.. مع الكثير من الأوراق والملفات التي تحتاج توقيعه واطلاعه عليها.. لكنه يلتفت إلي دوما في أوقات الراحة القليلة المتاحة له حيث يدعوني أحيانا إلى مكتبه لتجاذب أطراف الحديث ويطرح علي أسئلة شخصية وقحة للغاية!!!.. فكنت أجيبه بتحفظ شديد دون أن أهتز أبدا لكلمات الغزل التي تخرج من لسانه القذر.. بل كنت أضطر للتصرف بغباء وعدم فهم أحيانا كثيرة.. إلى أن يئس تماماً من التلميحات مع مرور الأيام وعرف أنه لن ينالني أبدا بهذه الطريقة.. كان هذا بعد بضعة شهور تحسنت فيها أحوالي المادية كثيرا وبدأت أرى السعادة في عيني والدتي وشقيقي لتجاوزنا مرحلة مخيفة من حياتنا.. عندما قرر ذلك الوغد فجأة أن يرمي بورقته الأخيرة

ويواجهني صراحة برغباته الجنسية.. حيث طلب مني أن أزوره في شقته التي يذهب إليها متى ما أراد الانفراد بنفسه على حد قوله.

هززت رأسي بأسف.. فأكملت بحدة:

- لقد كان رفضي قاطعا.. بل وأخبرته دون خوف أنني في عمر ابنته ولا أفكر في العبث أبدا.

عندها فقط.. عرف أنه لن ينالني مهما فعل.. وعندها أيضا.. تغيرت معاملته لي كثيرا.. لم يقيلني من عملي كما كنت أخشى.. لكنه فعل ما هو أسوأ من ذلك.. إذ راح يصرخ بي ويهينني أمام الموظفين ويطلب مني أعمالا مضاعفة باستمرار.. وأن أبقى في المكتب إلى ما بعد ساعات العمل.. لماذا؟!!.. لا يوجد سبب محدد.. فقط لإخضاعي وإذلالي علّني أستسلم وأذهب إليه صاغرة!!!.. لكني تجملت بالصبر وقررت مقاومته والصمود بوجهه وأن أحتمل قسوته مهما فعل.. إلا أن الثمن كان باهظا دون شك.. إذ كنت أعود إلى البيت يوميا منهكة مرهقة بعد أكثر من 12 ساعة من العمل المتواصل.

قلت بقلق:

- لا أعتقد أنه اكتفى بهذا أيضا.. إصرارك وعزيمتك سيثيران

غضبه أكثر وأكثر.. وسيشعرانه وكأنه خسر معركته معك.. رجل كهذا لن يقبل الخسارة من فتاة يراها بمنزلة اجتماعية أقل منه.. من المرجح أنه لجأ لخطوة تالية مخيفة.

دمعت عيناها وهي تقول بحنق:

- تماما كما تظن.. لقد لجأ لتلك الخطوة بالفعل بعد حوالي 7 شهور من العذاب اليومي المستمر.. حين طلبني في مكتبه ذات مرة وأمرني -كالعادة- بالبقاء في الشركة بعد انتهاء ساعات العمل لمراجعة بعض الملفات التي راجعتها له ألف مرة.. لكني قمت بواجبي رغم كل شيء.. ورحت أراجع الملفات بعد رحيل جميع الموظفين وقد شعرت أنني حفظتها من كثرة مراجعتها.. إلى أن.. إلى أن سمعته يناديني من مكتبه بصوت مرتفع على غير عادته كونه يطلبني هاتفيا متى ما أراد شيئا.. المهم أنني دخلت غرفته.. فلم أجده!!!.. أصبت بشيء من الذعر وأنا ألتفت باحثة عنه.. وإذا به مختبئا خلف الباب!!!.. لم أجد الوقت لأستوعب وجوده هناك.. إذ قفز علي فجأة.. وراح يقبلني بطريقة شهوانية قذرة وهو يحاول خلع ثيابي.. كان الوغد يستغل فترة وجودي

وحيدة معه في الشركة بعد انتهاء ساعات العمل.. لقد أصبت بذهول شديد غير مصدقة أنني أتعرض للاغتصاب وأن المدير انحدر لهذا المستوى الوضيع!!!.. ثم تحول ذهولي سريعا إلى ذعر هائل.. فرحت أصرخ وأقاوم وأتملص منه بكل قوتي!!!.. كنت ضعيفة أمام رجل يفوقني حجما وطولا وقوة.. لكني لم أتخاذل رغم ذلك.. خاصة حين دفعني بقوة ليرميني على منضدة اجتماعات صغيرة في غرفته.. ثم أمسك بنطلوني محاولا نزعه عنوة.. فقمت بتصرف غير مقصود أثناء تملّصي وصراخي.. إذ ركلته -بكل قوتي- بالحذاء ذي الكعب العالي الذي أرتديه.. المشكلة يا دكتور أن الكعب أصاب المدير في رقبته تماما!!!.. ولو حاولت ضربه في نفس المكان مئة مرة لما نجحت.. لقد كانت الضربة قاتلة كما بدت لي.. حتى أنني سمعت صوت شيء ما يتهشم في رقبته وكأنني كسرت قصبته الهوائية -إن كان أمر كهذا ممكناً- فاحتقن وجهه فجأة وبدا عاجزا عن التنفس.. وراحت ملامحه تتغير.. وتتغير.. وكأنه يريد أن يعب الهواء في جوفه لكنه عاجز عن ذلك.. إلى أن حال السواد وجهه تماما ووقع على الأرض ميتا!!!!.

نظرت إليها بفزع وأنا أقول:

- يا إلهي.. قتلتيه؟!!!!.

بكت وكأنها تعيش الموقف مرة أخرى.. و:

- نعم يا دكتور.. لم يكن الأمر يحتاج إلى ذكاء لأستنتج ذلك.. فلا يمكن أن يكون قد أغمى عليه مثلا.. كان واضحا أنه لفظ أنفاسه الأخيرة.. خاصة مع عينيه المفتوحتين الجاحظتين اللتين تنظران بثبات إلى الفراغ.. لماذا يموت البعض وأعينهم مفتوحة؟!!.. سؤال كنت أطرحه كثيرا أثناء مشاهدتي للأفلام الأجنبية.. إذ كان هذا المشهد يخيفني دوما.. لذا لك أن تتخيل حالي وأنا أراه في عالم الواقع.

سألتها بلهفة عما حدث بعد ذلك.. فأكملت وهي تأخذ بعض المناديل من مكتبي لتمسح دموعها وتفرغ أنفها:

- كان ما حدث يفوق أسوأ كوابيسي.. إذ ظللت أحدق بجثته لبضع دقائق توقفت فيها أنفاسي تماما.. إلى أن تداركت نفسي وخرجت من الغرفة وأنا أجري بهلع أفقدني كل تعقّل.. فأخذت حقيبتي من درج مكتبي واتجهت مسرعة إلى سيارتي.. لا يمكنك أن تتصور حالتي حينها.. كل ذرة في جسدي تنتفض.. كل عصب ينبض

بجنون.. أبكي وأصرخ وأضرب مقود السيارة بقبضتي يدي.. وما زلت أجهل في واقع الأمر كيف تمكنت من قيادة سيارتي ووصلت إلى البيت بهذه الحالة!!!.. حاولت أن أتماسك بعدها وأمسح دموعي وأنا أركن سيارتي قرب الباب.. ثم رحت أعدل قليلا من مظهري.. ثمة جزء ممزق من قميصي كما يبدو.. علي أن أمسك حقيبتي بطريقة فنية تغطي هذا الجزء من ثيابي.. يجب ألا تشعر والدتي وشقيقي بشيء.. ترجّلت من سيارتي لأدخل البيت مسرعة وأنا ألقي تحية عابرة على والدتي التي كانت جالسة في الصالة تتحدث مع إحدى قريباتنا عبر الهاتف.. فلم تلحظ توتري الشديد لحسن الحظ.. أما شقيقي فلم يكن موجودا آنذاك.. ربما كان في الخارج مع أصدقائه.. المهم أنني دخلت الحمام أخيرا ووقفت أمام المرآة وأنا أنظر إلى الخدوش والكدمات الشديدة التي أحدثها ذلك اللعين في ذراعي وكتفي.. وأفكر بما سيحدث لي!!!.. أخذت بعدها حماما ساخنا ويداي ترتعشان بشكل واضح.. ثم دخلت غرفتي مسرعة لأفكر بما حدث.. أسمع والدتي تناديني لتناول العشاء.. لكني اعتذرت بصوت مرتفع من غرفتي بأنني متعبة وأريد أن أنام.. بينما الواقع أنني كنت أريد الانفراد بنفسي

فحسب.. فلا يوجد أفضل من بقائك في الفراش ليلا في غرفة النوم دون أضواء لتشعر بالانفراد والتفكير بما يجب فعله.. ظللت في فراشي بعض الوقت أفكر وأبكي.. ثم أفكر وأبكي.. إلى أن غالبني النعاس أخيرا.. لا أعرف كيف نمت.. فتلك الأجواء المخيفة لا تغري بالنومِ أبدا.. لكن الإرهاق والدفء والظلام يصنعون المعجزات.

قلت باهتمام شديد:

- لا شك أنك قررت العودة إلى عملك في اليوم التالي حتى لا تثيري الشبهات.

نظرت إلي باستغراب.. ثم سألتني بشك حقيقي:

- كيف عرفت؟!!!.

مططت شفتي وأنا أقول:

- إنه الخيار الوحيد المتاح لديك.. فلا أعتقد أنك قررت مواجهة رجال الشرطة.. هذا سيضعك في متاهات كثيرة وإن كانت جريمتك غير متعمدة وارتكبتِها دفاعا عن العِرض.. لكنك ستخسرين وظيفتك بكل تأكيد وهي أهم ما بالأمر بالنسبة لك.

رمقتني بشك.. ثم قالت:

- أنت حقا ذكي!!!.. المشكلة أن الشبهات ستثار حولي في كل الأحوال لأن جميع الموظفين يعلمون أن المدير الوغد يبقيني في مكتبه بعد ساعات العمل بصورة شبه يومية سوى في أوقات سفره.. لذا كنت أدرك جيدا أن هناك معركة طويلة يجب خوضها مع رجال الشرطة.. معركة صعبة لا أملك أي فرصة في تخطيها.. ولا أملك حتى فرصة الهرب منها.. فليس لدي المال الكافي ولا حتى جواز السفر لأغادر البلد.. أدرك جيدا أنني قتلت المدير بالخطأ دفاعا عن عِرضي بعد محاولة اعتدائه علي.. لكن هذا لن يعني شيئا.. لأنني سأخسر وظيفتي كما تقول.. وستتعرض حياتي وحياة أسرتي الصغيرة لانتكاسة جديدة وقوية هذه المرة.. كنت على استعداد أن أقاتل لآخر رمق كي لا أعود إلى حياة البؤس التي تخلصت منها مؤخرا.

سكتت قليلا.. ثم أردفت بغموض:

- لا أعتقد أنك ستستنتج ما حدث بعد ذلك يا دكتور.. فما سأقوله لك أمر بالغ الغرابة.. شيء لن تصدقه أبدا!!!.. بل أنا واثقة أنك ستتهمني بالجنون.

قلت بنفاد صبر ما أردده دوما:

- أنا لا أتهم أي إنسان بالجنون.. أرجوك أكملي.

ظلت تنظر إلي بغموض لم أفهم سببه.. ثم أكملت:

- في صباح اليوم التالي.. استيقظت من النوم مبكرا بعينين منتفختين.. فقد كانت ليلتي مليئة بالكوابيس والأفكار السوداء.. ورغم الإرهاق والجوع الشديد كوني لم آكل شيئا منذ غداء أمس الذي تناولته في المكتب.. إلا أن الشعور بالخوف هو ما كان يسيطر علي وأنساني كل المشاعر السلبية الأخرى.. كنت قد قررت الذهاب إلى العمل بالفعل.. لذا فقد نهضت واغتسلت واستبدلت ثيابي محاولة التأنق كما أفعل دوما كي لا أثير الشبهات.. ثم ألقيت تحية باردة على والدتي التي سألتني بقلق عما دهاني.. فتعللت لها بإرهاقي الشديد بسبب العمل.. خرجت بعدها بسيارتي ورحت أقودها بيد مرتجفة.. حيث ظللت طوال الطريق أحاول التنفس بهدوء وانتظام محاولة السيطرة على أعصابي.. سأواجه الجميع وأنكر معرفتي بما حدث.. سأحاول التنصل قدر الإمكان.. هكذا ظللت أردد بيني وبين نفسي متوقعة أنني سأجد مقر الشركة وقد تحول إلى خلية نحل.. كأن أجد دوريات الشرطة وسيارات الإسعاف مثلا.. مع وجود جميع الموظفين في الخارج وهم يمرّون بالتحقيقات الأولية.. لكن.. عند وصولي.. لم يكن هناك شيء من هذا

على الإطلاق!!!.. الهدوء الشديد المعتاد الذي لا يختلف عن أي يوم آخر.. حتى أنني ركنت سيارتي.. وترجّلت منها مرتدية نظاراتي الشمسية كي تخفي نظراتي القلقة.. دخلت الشركة.. ففوجئت بوجود بعض الموظفين الذين وصلوا قبلي.. ألقيت عليهم التحية بشرود واضح.. ثم جلست في مكتبي محاولة إشغال نفسي ببعض الأوراق لأهرب من نظرات زملائي.. في حين ظل ذهني يطرح الأسئلة التي تراكمت وتراكمت حتى كاد دماغي أن ينفجر بسببها.. فما الذي حدث بالضبط بعد ارتكابي لجريمة القتل وهروبي من الشركة؟!.. ألم يدخل أحد مكتب المدير ليكتشف وجود الجثة؟!!.. عادة لا أحد يدخل غرفته في غيابه سوى الفرّاش الذي يقوم بتنظيفها يوميا في وقت مبكر للغاية.. هل يعقل أنه لم يكتشف وجود الجثة مثلا؟!.. مستحيل.. كم أود دخول الغرفة بنفسي لأجد إجابة على تساؤلاتي.. لكني لا أجرؤ.. ولا أريد أن أغير من روتين عملي اليومي كي لا أثير شكوك أحد.. و.. في خضم تساؤلاتي.. وفي قمة قلقي وتوتري.. حدث ما لم أكن أتوقعه أبدا يا دكتور!!!.. ربما هي أكبر صدمة تلقيتها في حياتي.. حين فوجئت بجميع الموظفين ينهضون فجأة احتراما للقادم كما هي العادة.. نعم.. كان

القادم هو المدير.. المدير الذي يفترض أن أكون قد قتلته بالأمس!!!!!.

اتسعت عيناي فجأة وأنا أقول صارخا:

- ماذا؟!!!!!!!!!!.

ردت بحزم:

- نعم يا دكتور.. مدير الشركة وصاحبها الذي قتلته في الأمس.. رأيته يدخل ببروده المعتاد متجها إلى مكتبه وكأن شيئا لم يكن!!!.

سألتها بانفعال:

- كيف؟!!.. كيف؟!!.. ألم يمت حين ركلتِه في رقبته كما قلت بنفسك؟!!.

ردت بانفعال مشابه:

- أقسم لك إنني قتلته ورأيته يلفظ أنفاسه الأخيرة أمامي إلى أن تحول إلى جثة هامدة.. لا يمكن أن أكون مخطئة في ذلك.. الغريب أنه دخل الشركة وألقى تحيته الباردة المعتادة.. ثم رمقني بنظرة نارية اعتدتها مؤخرا منذ أن رفضت عروضه القذرة.. وكأن حادثة الأمس لم تقع أصلا..

لك أن تتخيل وقع هذه المفاجأة علي!!!.. فقد شعرت وكأنني في بحر من الألغاز ورياح التساؤلات تضرب مركبي الصغير يمينا ويسارا.. كنت تائهة.. أنظر إلى سقف الغرفة بغباء.. قبل أن.. قبل أن تصطدم عيني بكاميرا المراقبة.. يا إلهي.. لقد نسيت كل ما يتعلق بشأنها.. فنحن لسنا في بنك ولا توجد خزينة في الشركة يخشى المدير من سرقتها.. لذا كانت كاميرات المراقبة شكلية فحسب لم أعرها أي اهتمام من قبل.. لقد أمر المدير بوضعها في بعض الغرف -منها غرفته- كي لا يسرق أحد أوراق الشركة وأسرارها لصالح شركات أخرى منافسة.. حتى أن الغرفة الصغيرة التي تحوي شاشات المراقبة تخلو من أي موظف ومغلقة بمفتاح موجود عند الفرّاش الذي يدخلها مرة واحدة أسبوعيا كما أظن لتنظيفها وليقوم بتحديث ذاكرة التسجيل.. هل صورت الكاميرات ما حدث في الأمس؟!.. كيف نسي المدير هذه النقطة؟!.. ربما كان سيذهب بعد الانتهاء من اغتصابي ليمحو التسجيل بأكمله.. لكن.. هل ما حدث بالأمس قد حدث فعليا؟!.. سؤال غريب لا مفر من طرحه بعد هذه المفاجأة الهائلة!!!.. لذا فقد هرعت باحثة عن الفرّاش.. لأجده في المطبخ يحضر القهوة بطريقة آلية.. فطلبت منه بارتباك شديد مفتاح غرفة المراقبة تلك.. كنت أتوقع اعتراضا.. لكنه أخرج المفتاح من

جيبه وذهب ليفتح لي الباب.. هكذا بكل بساطة.. دخلت الغرفة مسرعة.. ونظرت إلى الشاشة المقسمة بدورها إلى عدة شاشات.. كل منها تنقل صورة حية لغرفة من غرف الشركة.. فعبثت قليلا بذاكرة التسجيل.. وتمكنت من إعادتها إلى اليوم الماضي في فترة العصر بعد رحيل الموظفين وبقائي وحيدة في الشركة.. ليظهر على الشاشة تسجيل للمدير وهو جالس في مكتبه يقرأ بعض الملفات الموجودة أمامه.. ثم يلتفت ليستخدم جهاز الكمبيوتر الخاص به.. رحت أراقب الشاشة بذعر وأنا أضغط على زر التسريع بتحفز واضح منتظرة لحظة اختبائه خلف الباب وهجومه علي عند دخولي مكتبه.. لكن.. لكن.. أنا.. أنا لم أدخل مكتبه أبدا يا دكتور!!!.

قلت محاولا التفكير بطريقة علمية:

- لا يوجد سوى تفسير واحد لما حدث.

ردت بحنق:

- أعرف.. فتاة مثلي عانت كل صعوبات الحياة من الممكن جدا أن تكون عرضة للأوهام والتخيلات وألا يكون عقلها مستقرا.. لذا من البديهي بعد هذا التسجيل الذي رأيته بنفسي أن يكون عقلي قد رسم حادثة كاملة

لم تقع أصلا!!!.. بل إن هذا ما طرأ في ذهني بالفعل.. حتى إنني خرجت من الغرفة غير مصدقة ما اكتشفته.. وهو إنني أعاني مشكلة نفسية ما!!!.. أو -بمعنى أكثر وضوحا- فقدت عقلي.. لم يكن هناك تفسير سوى هذا.. اتجهت بعدها لا شعوريا إلى شاشة الكمبيوتر لأبحث في الانترنت عن الأوهام والتخيلات وكيفية حدوثها وتأثيرها على الإنسان وكيف نميز بينها وبين الواقع.. كنت غير مصدقة أن ما تعرضت له وما عشته لحظة بلحظة هو وهم سببه عقد نفسية متراكمة بسبب حياتي القاسية.. لكن بدا أن كل ما حدث يوحي بذلك التفسير مهما بدت غرابته.. لقد توهمت مناداة المدير لي وهجومه علي.. ثم توهمت تلك الركلة التي وجهتها له بكعب حذائي وأصبته في رقبته.. وقد مزقت قميصي بنفسي وأصبت نفسي بتلك الخدوش والكدمات في ذراعي دون أن أشعر بنفسي!!!.. خاصة بعد أن قرأت أثناء بحثي في الانترنت عن (المازوخية)* وأنني من الممكن جدا أن أكون قد

---

* (المازوخية) هي اضطراب نفسي يتجسّد في تلذّذ الشخص بالألم الواقع عليه.. سواء بالقول أو الفعل.. أيّ التلذذ بالاضطهاد عامة.. وقد اشتقت (المازوخية) من الروائي النمساوي (ليوبولد مازوخ) الذي كتب رواية (فينوس ذات الحلل الفروية) حيث تطرق فيها إلى هذا الاضطراب النفسي.. وقد حاول كثيراً قبل موته تغيير مسمى (المازوخية) إلى اسم آخر لا يُشتق من اسمه لكنه فشل.. وحاول من بعده ابنه لكنه فشل أيضا.. فالتصق المصطلح إلى الأبد بذلك الروائي.

أصبت بها.. و.. شيئا فشيئا بدأت أتخاذل وأستسلم للفكرة المخيفة التي تقول أنني مريضة وأعاني من عقد نفسية متراكمة.. خاصة وأن اليوم مر عاديا للغاية ككل الأيام.. فالمدير لم يتغير إطلاقا.. وما زال يحاول أن يكلفني بأعمال إضافية لإذلالي.. وكأن شيئا لم يحدث بيننا في الأمس!!!.

كنت أستمع إليها مبهوتا دون أن أرد.. وأمام صمتي المبهم.. أكملت قائلة:

- دكتور.. لا يمكنك أن تتصور حالة الارتباك والحيرة التي سيطرت على حياتي في ذلك اليوم والأيام القليلة التي تلت تلك الحادثة.. فليس من اليسير أن تصدق أنك مختل عقليا.. خاصة وأن كل ما تعرضت له بدا واقعيا للغاية.. لكني لا أنكر أنني شعرت رغم ذلك براحة نفسية غريبة كون وجود خلل ما في عقلي لا يدركه أحد سواي أهون بكثير من ارتكابي لجريمة قتل.

ظللت أنظر إليها متحفزا منتظرا منها المزيد.. هناك إضافة.. هناك لغز أكبر.. قصتها لن تنتهي عند هذا الحد.. فهي لم تأتِ لزيارتي لمعالجتها من (المازوخية) والأوهام فقط.. كيف علمت بذلك؟!.. ربما هي الخبرة.. ربما هو ذلك الإحساس

الداخلي الذي لم يخذلني يوما.. و.. وقد كنت محقا!!!.. إذ أردفَت بعدها بغموض:

- ثم جاء ذلك الاكتشاف الغريب الذي قلب موازين أحداث القصة رأسا على عقب!!!.. فبعد حوالي 3 أيام من جريمة القتل الوهمية هذه.. وبعد يوم آخر طويل أبقاني فيه المدير كعادته في المكتب لبضع ساعات إضافية.. عدت إلى البيت مرهقة وحالتي النفسية المضطربة هي شغلي الشاغل.. حيث توجهت بعدها للحمام شاعرة برغبة مجنونة في الاستحمام.. أتذكر أنني وقفت عند حوض الاستحمام منتظرة أن تصل حرارة المياه للدرجة المناسبة.. فرحت أتسلى بمشاهدة نفسي في المرآة للحظات.. ثم.. لفت انتباهي شيء ما.. هذا غريب.. من أين جاء؟!.. أتحدث عن ذلك الجرح الصغير في ظهري.. نعم.. لدي مرآة صغيرة معلقة على الحائط المقابل للمرآة الرئيسية في الحمام.. مما يتيح لك مشاهدة ظهرك لو وقفت بينهما.. يشبه الوضع كثيرا ما يفعلونه في الصالونات النسائية.. وربما الرجالية أيضا.. لذا تمكنت من رؤية ذلك الجرح الذي بدا وكأنني أصبت به منذ فترة قصيرة.. ثم.. مددت يدي خلف ظهري محاولة الوصول إليه دون جدوى.. لأكتشف أنني لا يمكن أن أفتعل هذا الجرح بنفسي!!!..

فيدي لن تصل أبدا إلى هذا المكان من ظهري.. أنا لا أفهم شيئا في الطب الجنائي.. لكن هذا الجرح يبدو لي وكأنه خدش.. خدش لا يمكن حدوثه إلا بالأظافر.. لقد.. لقد أشعل هذا الاكتشاف الصغير شرارة التفكير في عقلي مرة أخرى بما حدث في ذلك اليوم يا دكتور!!!.

سألتها مستغربا:

- أنا لا أفهم.. من أين أتى هذا الجرح؟!.. ومتى أصبت به؟!.. وكيف لم تنتبهي إليه سوى في تلك الليلة؟!.

أجابت على السؤال الأخير فقط حين قالت:

- كان من المستحيل أن أنتبه إليه أو أشعر به بسبب القلق الذي التهم قلبي والكدمات والخدوش التي ملأت ذراعي في تلك الليلة المشؤومة.. دعك من الصدمة الأكبر حين عثرت على المدير حيا يرزق في اليوم التالي وكأن شيئا لم يكن.. ومع التوتر الذي كنت أعيشه بسبب اقتناعي التام أنني مختلة عقليا.. فهل تتوقع مني بعد كل هذا أن أنتبه إلى جرح صغير تافه في ظهري؟!!.. المهم أنني أخذت الحمام الساخن الذي أزال الكثير من الإنهاك عن جسدي.. ثم توجهت إلى غرفتي لأجلس فيها بعض الوقت.. أفكر بهذا الجرح وكيف من الممكن أن يكون قد

وصل إلى ظهري.. و.. مع التفكير المستمر والأرق الشديد.. سرقني عالم الأحلام من واقعي المر.. نمت بسبب الإرهاق اليومي المعتاد.

قالتها وهي تهز رأسها كناية عن هول ما رأت وعانت.. ثم:

- في صباح اليوم التالي.. ذهبت إلى العمل بذهن مشوش وقد شعرت أن هناك لعبة ما أجهل قواعدها وتفاصيلها.. فصدمة رؤيتي للمدير حيا يرزق جعلتني أقنع نفسي بإصابتي بكل الأمراض النفسية في العالم كونها التفسير الوحيد لما حدث.. خاصة وأنني قاسيت الكثير في حياتي بالفعل وأصبحت معرضة ربما لـ(كوكتيل) من الأمراض النفسية.. فمن البديهي أن أشك حينها بكل شيء.. حتى بقواي العقلية.. لكن هذه المرة بدأت أفكر في الحادثة بأكملها بصورة مختلفة.. لماذا لا تكون هناك خدعة ما؟!.. لماذا لا تكون هناك لعبة أجهل تفاصيلها؟!.. لقد بدا لي فجأة تفسير الاضطراب النفسي هذا سخيف جدا!!!.. لا يمكن أن تكون الأمور بهذه البساطة.. تمر تلك الخواطر في ذهني وأنا أنهض من مكتبي متجهة إلى غرفة المدير.. نعم.. حتى وإن كلفني هذا غضبه وسخطه كوني دخلت غرفته قبل وصوله ودون إذنه.. وهو أمر لم يفعله أي

موظف من قبل سوى الفرّاش.. فقد شعرت برغبة قوية في التحقق بما يجري حولي.. من أين جاء هذا الخدش الصغير في ظهري إن لم يكن من شجاري معه؟!!.

سألتها بحذر:

- وهل دخلت مكتبه؟!!.

قالت بصرامة:

- بكل تأكيد.. دخلت غرفته الفاخرة ووقفت في منتصفها مستغلة عدم وصوله حتى الآن.. ثم نظرت حولي بدقة شديدة محاولة تذكر تفاصيل ما حدث.. لقد كان مختبئا خلف الباب كما علمنا ثم هجم علي فجأة.. ودفعني بعدها بقوة ليرميني على منضدة الاجتماعات الصغيرة في غرفته.. مهلا.. تذكرت شيئا.. تلك المنضدة.. نظرت تحتها باهتمام غير مكترثة بكاميرا المراقبة التي تصور كل شيء دون شك.. و.. هل هذه صدفة ثانية تضاف إلى صدفة الخدش خلف ظهري؟!.. من الصعب أن تتكرر الصدف بهذه الصورة!!!.

سألتها مستغربا:

- هل عثرت على شيء تحت المنضدة؟!.

ردت بغموض:

- قطعة زجاجية صغيرة جدا تحتاج بحثا دقيقا للعثور عليها.. إنها آخر ما تبقى من كوب انكسر عندما دفعني ذلك الحقير ورماني على المنضدة.. أتذكر أن يدي اصطدمت بالكوب ليقع على الأرض الرخامية وينكسر.. هذا دليل آخر أن ما مررت به لم يكن وهما.. لذا أمسكت بتلك القطعة ووضعتها في جيبي.. ثم خرجت من غرفة المدير وسط نظرات الاعتراض من بعض زملائي على دخولي غرفته دون إذنه.. لكني لم أكترث.. كنت أبحث عن إجابات والفضول يسيطر على كل خلايا عقلي.. لا شك أن هناك أبعادا أخرى مخفية لتلك القصة!!!.. ذهبت بعدها إلى الحمام لأختلي بنفسي.. وأخرجت القطعة من جيبي لأتأملها مرة أخرى بمزيد من الدقة.

قلت مفكرا:

- هذا غريب.. أنا لا أجد في واقع الأمر سوى تفسيرا واحدا.. وهو أن صاحب الشركة لم يمت أصلا؟!!.. يبدو أنه آثر الصمت ولم يكن يرغب في نشر فضيحته بعد أن أصبتهِ في رقبته.. وربما أيضا لا يريد فصلك من العمل في الوقت الحالي كونه يرغب بتعريضك للمزيد من الإذلال.. أو

-المعذرة- قد يحضّر لك انتقاما أشد قسوة.

هزت رأسها نفيا وهي تقول:

- مستحيل يا دكتور.. أؤكد لك مرة أخرى أنني قتلته.. لا يمكن أن يكون قد نجا من ضربتي تلك.. وعموما فإن القصة ليست هكذا أبدا.. كنت أقول إنني شعرت أن أمرا مريبا يدور حولي.. أمرا لا أفهمه.. لذا طلبت من الفرّاش أن يفتح لي باب غرفة التسجيل مرة أخرى.. فدخلتها ورحت أشاهد تسجيل تلك الليلة مجددا وبدقة شديدة.. لحسن الحظ لم يمر أسبوع بعد على الحادثة وإلا لمسح الفراش كل التسجيل السابق وبدأ يسجل من جديد كما يفعل دوما.. المهم أنني ظللت أحدق في الشاشة وفي نقطة محددة.. أحاول تسريع التسجيل وعيني على تلك النقطة.. نعم.. نعم.. نعم.. هي كذلك!!!.. انتفض قلبي بقوة لهذا الاكتشاف المثير!!!.

سألتها بغباء:

- أي اكتشاف هذا؟!.

قالت بحماس:

- ألم تفهم بعد يا دكتور.. أتحدث عن الكوب المكسور.. لقد

كان موجودا على المنضدة أثناء مشاهدتي للتسجيل.. لكنه اختفى فجأة!!!.. كيف من الممكن أن يحدث هذا؟!.. لا يوجد سوى تفسير واحد.. أحدهم قام بمحو جزء من التسجيل.. الجزء الخاص من اعتداء ذلك الوغد علي.. ومن ثم تسجيل مقطع آخر عليه يظهر فيه المدير جالسا في مكتبه لا يفعل شيئا سوى قراءة الأوراق الموجودة أمامه واستخدام جهاز الكمبيوتر.. لقد كان الكوب يظهر واضحا أثناء التسجيل.. لكنه اختفى فجأة.. من المستحيل أن ينتبه أحد لهذا إلا إذا كان يراقب الشاشة بدقة شديدة كما فعلت أنا.. وهذا ما جعلني أفكر بأمر غريب.. خطير.. مخيف.. وهو أن الموجود حاليا ليس المدير!!!.

قلت مبتسما:

- تعنين أن شخصا آخر انتحل شخصيته مثلا؟!.. إنك تتحدثين عن أشبه ما يكون بالمؤامرة.

لكنها ردت بثقة أثارت المزيد من استغرابي:

- الأمر كذلك بكل تأكيد.. كل الدلائل تؤدي إلى هذا الاستنتاج.. خاصة مع بعض الأمور التي ظننتها تافهة ولم أنتبه إليها حينها.. لكني الآن أجدها تكمل أركان حل اللغز.. ستفهم ما أعنيه بعد قليل.. لقد منَحَني اكتشافي هذا ثقة هائلة

جعلتني أذهب إلى مكتب المدير حال وصوله شاعرة أنني وضعت يدي على أمر بالغ الخطورة.. فقد دخلت مكتبه دون استئذان وصفقت الباب خلفي بشيء من الفظاظة.. كانت المرة الأولى في حياتي التي أشعر فيها بالقوة.. حتى أنه انتفض ونظر إلي بغضب واضح جراء هذه الطريقة الوقحة من موظفة تعمل لديه.. لكني لم أكتفِ بهذا.. بل تماديت.. إذ جلست دون استئذان أيضا واضعة ساقاً فوق الأخرى!!!.. لم ينطق بكلمة واحدة.. كان تصرفي أقوى مما يمكن تخيله.. اللعين.. لقد كان يشبه صاحب الشركة الحقيقي تماما.. قلت له بهدوء شديد وأنا أنظر إلى عينيه مباشرة: ((أنا أعلم أنك لست المدير الحقيقي))!!!.. ألقيت بهذا الطعم.. وأقسم لك إنه تخاذل فجأة وبدا لي توتره واضحا رغم أنه حاول أن يبدي بعض التماسك.. لم أنتظر منه الرد.. بل ألقيت بقنبلتي الثانية سريعا حين قلت بصرامة: ((فلتعلم أنكم ارتكبتم خطأ فادحاً في تسجيل كاميرا المراقبة.. لقد اكتشفت هذا الخطأ وقمت بتصويره في كاميرا هاتفي النقال.. لذا أقولها لك بكل ثقة الآن.. أنت لست صاحب الشركة الحقيقي)).. ثم ألقيت بعدها بالقنبلة الأخيرة دون أن أنتظر رده على كلامي: ((لقد بدأت أفكر بما حدث.. وانتبهت لأمر لم أعره أي

اهتمام في البداية.. وهو أنك قد تماديت بالحذر وانعزلت عن الجميع في الأيام الثلاثة الماضية حتى لا يكشف أحد أي اختلاف في شخصيتك عن صاحب الشركة الحقيقي.. ولاحظت أيضا أنك لم تعد تتحاور مع أحد حوارا طويلا.. بل أصبحت تلقي الأوامر وتتجنب أن تخوض أي حوار مع الموظفين.. حتى تحرشاتك بي أصبحت مقتضبة.. لم تعد كالسابق.. إنك تفعل ذلك حتى لا ينكشف أمرك ويلاحظ الجميع اختلاف شخصيتك وصوتك عن صاحب الشركة الحقيقي)).. عندما قلت كلماتي هذه.. بدا واضحا أن الرجل أصبح تحت رحمتي تماما يا دكتور.

شهقت وأنا أقول بصوت مرتفع دون قصد:

- هل يعقل أن يكون استنتاجك صحيحا؟!.. يا إلهي.. هذا مستحيل!!!!.

ردت بابتسامة هادئة وهي تشير إلي بإصبعها:

- بالضبط.. لهذا تحديدا قاموا بتلك الخطة الغريبة.. لأنها مستحيلة التصديق ولن تطرأ في ذهن أحد!!.

سألتها بدهشة:

- من تقصدين بـ (هم)؟!!.

اتسعت ابتسامتها وهي تكمل متجاهلة سؤالي:

- لقد واجهت الرجل بما أعرفه وبدا من الواضح أنني أصبت الهدف.. الرجفة العنيفة التي أصابته.. احمرار الوجه.. النظرات المتوترة.. كل هذه الانفعالات تؤكد نظريتي.. ولا شك أن تخاذله الشديد قد زادني قوة!!!.. لذا طلبت منه بصرامة واضحة أن يخبرني بكل التفاصيل وإلا سأتسبب بفضيحة.. فراح ينظر يمينا ويسارا.. ثم إلى الأعلى.. وكأنه يبحث عن من ينقذه.. لكني أنهيت تردده حين أخرجت هاتفي النقال ورحت أضغط على 3 أرقام.. سأتصل في الشرطة بالطبع.. عندها نهض من كرسيه فجأة وكأنه لُدغ من ثعبان.. وراح يرجوني أن أقفل الخط ليتفاهم معي.. فامتثلت لكلامه وأنا أقول بجرأة لم أظن يوما أنني أمتلكها: ((من الأفضل أن تخبرني بكل شيء.. أنقذ رقبتك على الأقل)).. انهمرت دموعه فجأة وبطريقة صدمتني!!!.. ربما يكون من العسير جلب شخص يشبه المدير قليلا وإخضاعه لبعض عمليات التجميل حتى يصبح نسخة منه.. وربما من العسير جدا أن يصل الشبه إلى الصوت.. لكن الإتيان بشخص يمتلك نفس شخصية المدير أيضا فهذا هو المستحيل بعينه.. كان من الواضح أن الرجل ضعيف الشخصية إلى حد

مروع.. فقد انهار واستسلم سريعا.. إذ أكد لي أنه ينتحل شخصية المدير بالفعل!!!.. حيث جاء مدفوعا من رجل أعمال منافس كان يرغب في الاستيلاء على هذه الشركة.. فراح يبحث طويلا عن شخص يشبه المدير.. إلى أن عثر عليه أخيرا وأغراه بالمال ليجري له عملية تجميل تجعله نسخة طبق الأصل منه.. وقد كان رجل الأعمال المنافس هذا يراقب المدير جيدا من خلال كاميرا صغيرة دسها في مكتبه.. حتى يطّلع على تصرفاته وطباعه ومن ثم يدرسها المدير المزيف لينتحل شخصيته -بعد قتله والتخلص من جثته طبعا- لكن.. جريمة القتل التي ارتكَبتها يومها لخبطت أوراقهم تماما.. وجعلتهم يغيرون خطتهم بأكملها.. لذا أصدر رجل الأعمال المنافس أوامره لمساعديه أن يذهبوا فورا لمكتب المدير بعد أن شاهد ما حدث بيني وبينه وكيف قتلته وهربت.. حيث أخذوا جثته إلى جهة غير معلومة للتخلص منها.. ثم قاموا بتنظيف المكتب من الدماء وإعادة كل شيء إلى ما كان عليه حتى يباشر المدير المزيف عمله في اليوم التالي مباشرة دون أن يتم تدريبه جيدا نظرا لتسارع الأحداث.. ولا ننسى أنهم دخلوا غرفة التسجيل ليقوموا بمسح تلك الدقائق الخاصة باعتداء المدير علي وتصوير لقطة

جديدة للمدير المزيف وهو يرتدي نفس الثياب ويؤدي دوره بالكامل كي يبدو التسجيل طبيعيا لم ينقطع منه شيء.. تخيل أنهم فعلوا كل هذا في ليلة واحدة فقط بعد أن قتلت المدير وهربت.. وقد كانوا يعرفون جيدا كل ما يتعلق بموظفي الشركة بسبب مراقبتهم المستمرة.. فلم يخفَ عليهم أنني من فئة البدون وسأخشى كثيرا أن أزج بنفسي في مشاكل أنا في غنى عنها.. خاصة بعد أن رأوني أقتل المدير وأفر هاربة.. لذا فإن كشفي للخطة بأكملها ومواجهتهم وتهديدي لهم بهذه الصفاقة لم يكن متوقعا على الإطلاق.. كما أنني لم أبالِ بتهديد المدير المزيف في أنهم يمتلكون تسجيل ارتكابي لجريمتي.. فقد قالها وهو يرمي ورقته الأخيرة لتهديدي.. لكني رددت عليه مدعية عدم اكتراثي لذلك كوني ارتكبت جريمتي دفاعا عن عِرضي.. أما هم فجريمتهم كاملة الأركان مع سبق الإصرار والترصد.. وستكون فضيحة لو تم كشفها.. إن وضعي أقوى وأفضل بكثير من وضعهم كما ترى!!!.

وضعت يدي على رأسي أثناء كلامها هذا لأقول:

- كيف كشفت الأمر بهذه الطريقة العبقرية؟!!.. لقد تصرفت بذكاء شديد!!!.

ردت ببساطة:

- أخبرتك بكل التفاصيل.. أما الباقي فعرفته من المدير المزيف بعد أن واجهته وصدمته باكتشافي.. كل ما حدث كان خطة دبرها بذكاء بالغ رجل الأعمال المنافس الذي دفع مبلغا فادحا لإجراء العملية الجراحية لذلك المزيف وتدريبه على سلوكيات المدير الحقيقي.

سألتها بحذر:

- وما الهدف من كل هذه اللعبة أصلا؟!!.

أشارت إلي بإصبعها وكأن هذا أهم ما بالأمر.. لتقول:

- الهدف هو أن ينتحل المزيف شخصية المدير الحقيقي ليقوم بتحويل ملكية الشركة إلى رجل الأعمال المنافس.. الشركة تساوي تقريبا 25 مليون دينار.

نظرت إلي بابتسامة ماكرة لم أفهمها في البداية.. ثم أكملت بجرأة غير متوقعة:

- لقد طلبت منهم مليون دينار ثمنا لسكوتي!!!.

اتسعت عيناي دهشة.. ثم قلت بأسف وأنا أهز رأسي يمينا ويسارا:

- ماذا عن المبادئ؟!!.. أين ذهبت الأخلاق؟!.

لم يعجبها كلامي كما يبدو.. إذ احتدت فجأة لتقول بعصبية:

- فلتذهب المبادئ إلى الجحيم.. أريد أن أعيش.. لقد طلبت منهم هذا المبلغ ثمنا لسكوتي.. وإلا سأفضحهم وأكشف كل مخططهم.. دعك من أنني قمت أيضا بتسجيل كلامي بالكامل مع المدير المزيف دون علمه من خلال هاتفي النقال.. وأخبرته بذلك حال انتهاء حديثنا.. فشعر أنه تحت رحمتي تماما وأنني فتاة ذكية جدا تحسبت لكل شيء!!!.. لذا طلبت منه أن يأتي بالمبلغ الآن ثمنا لسكوتي.. كان من الواضح أن هناك من يشاهدنا.. إذ وجه المدير المزيف نظره إلى مكان محدد في السقف.. فنظرت في ذات الاتجاه.. لأنتبه فجأة إلى نقطة سوداء صغيرة من العسير أن تراها.. إنها الكاميرا التي زرعوها هناك منذ مدة طويلة كما يبدو.. و.. لم يستغرق الأمر وقتا طويلا.. إذ رن هاتف المدير المزيف فجأة.. وبدا أن المتصل هو رجل الأعمال المنافس ذاته.. فقد تحدث معه باحترام وهيبة شديدتين قبل أن يناولني سماعة الهاتف.. نعم.. كان رجل الأعمال يريد التحدث إلي كما هو واضح.. لكني رفضت تماما.. لا أعرف كيف

تصرفت بهذه الشجاعة الغريبة.. يبدو أن المرء لا يعرف مدى قوته إلا عندما تصبح القوة هي الخيار الوحيد المتاح لديه!!!.. إذ قلت بصرامة وصوت مرتفع قليلا ليسمعه رجل الأعمال عبر السماعة: ((لن أتحدث مع أحد.. أريد مليون دينار ولن أتنازل عن دينار واحد.. سأجلس هنا منتظرة هذا المبلغ.. وسأختفي عن الأنظار تماما عند حصولي عليه.. إذ سأكون حينها متورطة بما فيه الكفاية)).. راح رجل الأعمال يتحدث مع المزيف لبضع دقائق قبل أن يقول الأخير بقلق: ((سنأتيك بالمال خلال ساعتين.. ستبقين في هذه الغرفة إلى حين وصول المبلغ شرط ألا تلمسي هاتفك.. لا يمكن أن أسمح لهاتفك هذا أن يغيب عن ناظري.. إنه يحوي اعترافي كاملا)).. أومأت برأسي موافقة.. وجلست أعد الدقائق واللحظات حتى نفد صبري تماما.. عالمة أنني ألعب لعبة خطيرة جدا لم أظن يوما أنني قادرة عليها!!!.. لا أعرف كيف مر الوقت قبل أن يدخل المكتب أخيرا شخص يرتدي بذلة أنيقة تذكرك برجال المافيا وهو يحمل حقيبتين صغيرتين نسبيا فتحهما أمامي حال وصوله كما يفعلون في الأفلام.. و.. خفق قلبي بقوة وأنا أرى كمّا ضخما من الرزم المالية لأول مرة في حياتي على أرض الواقع.. عندها

فقط تنفست الصعداء.. وأعطيت هاتفي النقال للمدير المزيف الذي أخذه بلهفة.. ثم أمسكت بالحقيبتين وخرجت من المكتب بجسد يرتجف بوضوح.. هل يعقل أنني أحمل معي مليون دينار؟!.. هل يعقل أن تتغير حياتي في ليلة وضحاها؟!.. إنها معجزة دون شك.. معجزة حقيقية تدّخل فيها ذكائي وجرأتي إلى حد كبير لأنهي الأمور في صالحي.. ولم أكترث إطلاقا لنظرات الموظفين الفضولية أثناء خروجي من الشركة.. فلا يمكن لأكثرهم خيالا وذكاء أن يخمن ما حدث.

سألتها بحذر:

- ألم يضايقك رجل الأعمال المنافس هذا مرة أخرى؟!.. ثم.. ماذا عن المدير المزيف؟!.

قالت وكأنها تريد أن تنهي القصة وتختمها بألف ختم:

- لم يتعرض لي أحد.. ويبدو أن رجل الأعمال قد أتم خطته باقتدار وتمكن من الاستيلاء على الشركة دون أن يثير شكوك أحد.. خاصة وأن المدير الحقيقي قد طلق زوجته منذ سنوات ولم ينجب منها.. كما أن علاقته مع أشقائه ليست على ما يرام بسبب خلافاتهم حول ورث ما.. لذا لم يدقق أحد في الأمر.. أما صاحب الشركة المزيف الذي

أدى دوره كاملا كما يبدو.. فقد أخبرني أثناء اعترافه أنه من المفترض أن يقبض مليون دينار بعد تنفيذ تلك الخطة العبقرية وتسجيل الشركة باسم رجل الأعمال.. وأنه سيترك البلد بعدها حيث رتب أموره ليعيش في (أستراليا).

سألتها سؤالا أخيرا:

- ماذا عنك؟!.. ماذا فعلت بالمال؟!!.

ابتسمت بثقة وهي تقول:

- أول ما فعلته هو الانتقال مع أسرتي الصغيرة إلى سكن أفضل.. ثم بدأت في السعي للحصول على الجنسية الكندية.. وها أنا قريبة جدا من الحصول عليها.. كما بدأت أتعلم اللغة الانجليزية في أحد معاهد اللغة في (الكويت).. فتعليمي محدود.. ولا يمكن أن أنتقل لأعيش في بلد لا أتحدث لغته.. إنني أبني مهارات حياتية بصورة سريعة يا دكتور.. ولا أنسى أن أخبرك أنني أقوم حاليا أيضا بتأسيس مشروع في (كندا) بجزء من هذا المبلغ الذي غير حياتي ونقلني مع أسرتي الصغيرة نقلة ضخمة إلى طبقة الأثرياء.. بالطبع لم أخبر والدتي وشقيقي بشيء من هذا كي لا أثير شكوكهما.. بل وما زلت أخرج يوميا في الفترة الصباحية كما كنت أفعل في السابق لأوهمهم أنني ما

زلت في وظيفتي هذه.. إنهما يلاحظان التغييرات الكبيرة في حياتنا ويحمدان الله سبحانه وتعالى كثيرا بعد أن صدقا أن صاحب الشركة قد زوّد راتبي ومنحني امتيازات وظيفية كبيرة بسبب كفاءتي في عملي.. ربما سأخبرهما بتفاصيل تلك الحادثة في المستقبل.. من يدري؟!.

لم أجد ما أقوله بعد كلامها هذا.. لتكمل هي:

- لقد تعلمت درسا هاما من تجربتي تلك.. إن الحياة مليئة بالمشاكل.. وطريقة تعاملنا مع مشاكلنا تحدد هويتنا الحقيقية!!!.. كما تعلمت أننا لا نحصل على ما نتمناه.. بل نحصل على ما نعمل من أجله فقط.. فقد عملت بطريقة ملتوية لأصبح مليونيرة.. وها قد نجحت.

نهضت من مكانها وهي تكمل:

- لقد شعرت برغبة قوية أن يشاركني أحد هذا السر الذي ظل يثقل كاهلي أياما طويلة وأردت أن أفصح عنه لأحد.. ولا يوجد أفضل من طبيب نفسي لأفضفض له.. المعذرة الآن.. يجب أن أذهب.. إنني أعيش أياما تاريخية من حياتي بعد أن كنت أمشي دائما بجانب الحائط -كما يقولون- منهارة مزعزعة.. خاصة وأن والدي رحمه الله قد علمنا قبل وفاته أن ننزوي عن الجميع بسبب صفة

البدون التي نحملها وكأنها عار.. لكن كل هذا قد انتهى الآن وإلى الأبد.

قالتها ثم ابتسمت ممتنة كوني استمعت لها بسعة بال.. فابتسمت بالمقابل وودعتها باحترام.. لتدير ظهرها بعد ذلك وتتجه ناحية الباب دون أن تخبرني باسمها على الأقل.. خرجت من مكتبي ومن حياتي إلى الأبد.. بعد أن تركتني حائرا مذهولا كعادتي كلما أستمع إلى قصة غريبة من أحد مرضاي أو ممن يزورونني في مكتبي.. لكني لا أنكر أيضا أنني شعرت بشيء من السعادة لمصير هذه الفتاة.. وربما خطرت في ذهني أيضا العدالة الشعرية التي يتحدثون عنها دوما.. فقد قتلت بطلة قصتنا ذلك الوغد دون قصد بعد أن أراد الاعتداء عليها.. ثم عاقبت رجل الأعمال المنافس على عملية النصب الضخمة التي كان يقودها وجريمة القتل التي كان يوشك على ارتكابها وارتكبتها هي بدلا منه.. فدفع لها مستسلما مبلغا ضخما جراء سكوتها.. بعد أن كان يسير على الطريق الصحيح لتنفيذ الخطة وبعد أن جعلها تشك في قواها العقلية حين ظنت أن المدير الذي قتلته بنفسها قد عاد.. من الموت!!!.

أشياء أراها وحدي!!!

تحكيها: علياء

العمر 19 عاماً

الساعة الثامنة صباحا.. ها قد وصلت إلى المستشفى للتو في نوبتي الصباحية.. أدخل غرفتي وأجد الفرّاش الآسيوي وقد جاء لي بكوب (النسكافيه) حال وصولي.. فهو يعرف مواعيد عملي جيدا وقد تبرمج على تنفيذ طلباتي في مواعيدها المحددة قبل أن أطلبها.. هذا الفرّاش يذكرني بالخادم الشهير (آلفريد) الذي يخدم (بروس واين) ويعرف سره الخطير وهو أنه و(باتمان) شخص واحد.. أبتسم لا شعوريا لهذه المقارنة.. ثم أمسك بالكوب وأتجه لأقف عند نافذة غرفتي وأنظر إلى حديقة المستشفى الجميلة التي تشعرك للحظة أنك لست في (الكويت).. أرتشف من كوب (النسكافيه) باستمتاع لا حدود له وكلي رضا عن الكون.

حقيقة أحب مستشفى الطب النفسي كثيرا.. إذ أشعر فيه أنني في فيلم أجنبي أنا بطله الأوحد.. خاصة حين أنفعل أحيانا بسبب بعض حالات الطوارئ التي تتطلب الاستعجال.. فتجدونني أشعر بفخر صبياني غريب عندما أركض في ممرات المستشفى ومعطفي مفتوح للوصول إلى غرفة مريض سيطرت عليه نوبة عصبية مفاجئة.. أو لتهدئة مريض يحاول الانتحار.

إنني أنفصل في هذا المستشفى تماما عن عالم الواقع وأعيش فيه جو المغامرات اللذيذ رغم بعض القصص والتجارب

الغريبة والمخيفة التي هددت حياتي نفسها أحيانا كما لم يعد يخفى عليكم.. لكن لا أنكر أيضا أنني استمتعت بقصة كل فتاة دخلت مكتبي وسمحت لي أن أبحر معها في عالمها الخاص لأغرق في مشاكلها وأسمع كلماتها وأرى نظرات القلق في عينيها.. لقد بدأت أرى أنه من الضرورة أيضا أن أسرد لكم مستقبلا مذكراتي مع المراهقين في (الكويت) كما ذكرت سابقاً.. فهناك من القصص ما قد يروق لكم.. ربما سأفعل هذا في المستقبل القريب.

أضع الكوب على مكتبي بعد آخر رشفة.. ثم أمط جسدي قليلا إلى الأعلى محاولا خلق فراغات بين فقرات العمود الفقري لأخفف عنه عبء الجلوس المستمر أمام شاشة الكمبيوتر.. أفعل هذا وأنا ما زلت أنظر بشيء من الكسل اللذيذ عبر نافذة غرفتي وكأنني قط فرغ من طعامه للتو.. من النادر أن أنظر عبر نافذة غرفتي.. فهي مغلقة أغلب الأوقات ومغطاة بستائر داكنة وضعتها على نفقتي الخاصة.. لأنني أعشق الشعور بالعزلة.. وأكره الشمس كثيرا.. فالشمس تعني زحمة الحياة بالنسبة لي.. أما الليل فهو.....

- مرحبا دكتور!!!.

تشتتت أفكاري وانتفض جسدي فجأة.. التفت لأرى فتاة مقبولة الملامح خمرية البشرة ترتدي بنطالاً أبيض مع قميص أحمر متجعد طويل نسبيا ارتدته بشيء من الإهمال.. وقد كان شعرها قصيراً إلى حد ما لكنه لم يكن مرتبا.. لاحظت ترددها الشديد وهي تقول بخجل:

- المعذرة.. لقد.. لقد طرقت الباب مرتين دون أن ترد رغم أنني كنت.. احم.. كنت أسمعك بوضوح وأنت تدندن بأغنية قديمة!!!.. لذا قررت الدخول دون انتظار الإذن.

نظرت إليها مشدوها.. يا لي من أحمق.. هذا ما كنت أفعله بالفعل.. لقد اندمجت في عالمي الخاص ورحت أردد كلمات أغنية شهيرة حتى نسيت نفسي.. تنحنحت بحرج شديد.. وأشرت لها بيدي لتجلس.. فعلت هذا وأنا أتجه بدوري إلى كرسي مكتبي.. ثم سألتها متلعثما:

- ما الذي تفعلينه هنا؟!.

كان سؤالي وقحا ينم عن ارتباكي الواضح.. تخيل أن تدخل غرفة طبيب في المستشفى وتجده يغني.. ستفقد ثقتك به مباشرة!!!.. لكن.. الغريب أنها لم تكترث لوقاحة السؤال.. بل أجابت بصدق:

- أبحث عن ذاتي؟؟.

إجابة غريبة تنم عن ضياع نفسي حقيقي.. تنحنحت مرة أخرى محاولا استعادة هدوئي وثباتي.. لأسألها بصيغة أفضل:

- المعذرة.. كيف أستطيع أن أساعدك؟!!.

تجهم وجهها.. وسكتت للحظة.. ثم قالت بقلق:

- دكتور.. لا يخفى عليك أنه من العسير للغاية أن تجلس فتاة أمام شخص غريب لتخبره بأدق أسرارها.. خاصة إذا كان هذا الشخص رجلاً.. لكني من الفتيات اللاتي يعتقدن أن الأنثى لا تستطيع أن تحل مشاكل الأنثى أو تتعامل معها تعاملا مباشرا مستمرا.. لهذا تجد معظم الفتيات لا يرغبن أن يكون رئيسهن في العمل امرأة.. بل يفضلن الرجال.. ولهذا تحديدا لجأت إليك.

ابتسمت وأنا أقول:

- بالفعل.. أسمع تلك المقولة كثيرا وإن كنت لا أتفق معها.. المهم.. هل تريدين أن تشربي شيئا؟!!.

قالت مباشرة دون أن ترد على سؤالي:

- دكتور.. متى تحكم على الإنسان بالجنون؟!!.

فاجأني سؤالها المباشر هذا.. فسكت للحظة.. ثم قلت ببساطة شديدة:

- لا يوجد جنون.. بل يوجد مرضى نفسيون.. جميعنا مرضى نفسيين بشكل أو بآخر لكن تتفاوت درجة المرض.. مصطلح (جنون) خاطئ تماما.

سألتني غير مقتنعة:

- حسنا.. متى ستظن أنني مريضة نفسية أكثر من سواي؟!.. أرجوك أجبني بدقة.. هل ستعتبرني كذلك إذا أخبرتك بقصة غريبة غير قابلة للتصديق أعيش أحداثها مؤخرا لحظة بلحظة؟؟!.. هل ستصدقني لو أخبرتك أنني أرى أشياء لا يراها أحد غيري؟!.. إنني أعيش في مأزق حقيقي يا دكتور.. وآخر ما أحتاجه الآن هو مصيبة جديدة تضاف إلى مصائبي لو اعتبرت أنني أعاني من مشكلة عقلية مثلا وقررت حجزي في المستشفى رغما عن إرادتي.

قلت صراحة:

- هذا لن يحدث بكل تأكيد.. فنحن لسنا في سجن.. بل مهمتي هي أن أساعدك.. أما من ناحية التصديق من عدمه فلا تقلقي بهذا الشأن.. لأن هناك قصصا غريبة

جدا سمعتها من مرضاي في السابق وقد زلزلت وجداني وتحدت ثباتي المهني بالفعل.. خاصة وأنني شاركت بعضهم في أحداثها.. لكنها الحقيقة في النهاية مهما بدت غريبة.. لذا تأكدي إنك تتحدثين مع الشخص المناسب.. أخبريني بما لديك.. كلي آذان مصغية.

تنفست الصعداء.. ثم نظرت إلي بطريقة تنم عن خطورة الموقف.. لتردف هامسة:

- دكتور.. إنني محاصرة تماما!!!.. هل تعرف اللحظة التي تشعر فيها أنك مكشوف ومعرض للهجوم في أي وقت؟!!.. ستتحول حياتك حينها إلى جحيم.. وها هي حياتي قد تحولت إلى جحيم حتى إنني لم أجد بدا من زيارة مستشفى الطب النفسي علني أجد فيه من ينقذني.. المعذرة.. لم أعرفك بنفسي.. اسمي (علياء).. أبلغ من العمر 19 عاما.. طالبة في كلية الحقوق.. أعيش حياة طبيعية للغاية كأي فتاة في مثل سني.. إلى أن تغير كل شيء في ظرف أسبوع فحسب.. تخيل يا دكتور أنني لا أنام تقريبا منذ ذلك الحين بسبب حياتي التي امتلأت بالسواد!!.

كنت أومئ برأسي وأنا أنظر إليها باهتمام شديد حتى أشعرها برغبتي الفعلية بحل مشكلتها.. وهذا ما جعلها تتشجع لتكمل:

- المفارقة الغريبة أن القصة بدأت في ليلة عمر من المفترض ألا أنساها أبدا.. والواقع أنني لن أنساها أبدا بالفعل بسبب الرعب الذي عشته!!!!.. كان هذا في يوم حفل زفاف شقيقتي الكبرى.. ربما تعلم أن أهل العروس غالبا ما يقومون بحجز غرفة في الفندق المقرر إقامة حفل الزفاف فيه حتى يضعوا فيها حاجياتهم ويتجهزوا للحفل الذي ينتهي غالبا في ساعة متأخرة للغاية.. فيعودوا بعدها مرهقين إلى الغرفة ليقضوا فيها ليلتهم على أن يعودوا للبيت صباح اليوم التالي.. هذا ما فعلناه تحديدا.. حيث قضيت ليلتي في تلك الغرفة اللعينة مع والدتي وشقيقتي التي تصغرني ببضعة أعوام.

ابتسمت وأنا أتذكر حفل زفاف شقيقتي الكبرى منذ سنوات طويلة.. كنت حينها في سن المراهقة.. فأقوم بحماس شديد بمساعدة أمي وشقيقاتي آملا أن تلاحظ أي فتاة جديتي واجتهادي في مساعدة الجميع فتقع في غرامي.. لكن هذا لم يحدث للأسف.. نفضت تلك الأفكار وأنا أسمع (علياء) تكمل:

- المهم أن ليلة العمر هذه تحولت إلى كابوس مخيف مسح كل ساعات الزفاف الجميلة من ذاكرتي.. فبعد مرور حوالي ساعة على توديعنا لآخر الضيوف ونحن نمزح ونضحك بمرح شديد.. تركنا القاعة أخيرا لنتجه إلى غرفتنا حيث كانت الساعة تتجاوز الواحدة والنصف فجرا بقليل.. دكتور.. لا يمكنك أن تشعر بحجم الإرهاق الذي يصيبك بعد حفل زفاف إلا لو كنت امرأة!!!.. عليك إزالة طن من مساحيق التجميل ثم عشرات الدبابيس من الشعر.. ولا ننسى الحذاء ذا الكعب العالي الذي يسبب آلاما في الساق والظهر قد تمتد لبضعة أيام.. قبل أن نغرق أخيرا في سبات عميق من شدة التعب.. أتذكر أنني اخترت النوم على الأرض.. في حين نامت والدتي على السرير وبجانبها شقيقتي الصغرى.. حيث كان من المفترض ألا نستيقظ قبل الحادية عشرة صباحا على الأقل.. لكني فوجئت بنفسي أستيقظ بعد ساعتين فحسب!!!.. لماذا استيقظت؟!.. لا أعلم.. ربما بسبب شعوري بعدم الألفة كوني أقضي ليلتي في مكان غير معتاد وإن كان فندقا فاخرا.. إنه أمر يحدث لنا جميعا على ما أظن.. لذا رحت أنظر إلى الظلام بعين نصف مغمضة وأفكر في عشرات الأشياء التي تفكر فيها الأنثى عندما تنظر لظلام الليل..

ألتفت إلى والدتي وهي نائمة فلا أرى سوى حدودها الخارجية.. أما شقيقتي الصغرى فتنام على الجانب الآخر من الفراش لذا لا يمكنني أن أراها بطبيعة الحال.. إنها من تلك اللحظات التي تريد أن تطمئن فيها أن العالم بأكمله يسير كما يفترض قبل أن تقرر العودة إلى النوم.. لكن.. توقفت نظراتي فجأة!!!.. وتطايرت كل خواطري من عقلي حين اعتادت عيني الظلام قليلا و.. و.. و رأيت ظل شخص يتجه بهدوء مهيب إلى باب الحمام الموارب!!!.. في البداية ظننتها شقيقتي الصغرى كونها تنام في الجانب الآخر من الفراش وربما لم أرها تنهض من مكانها.. لكن.. لا.. لا يمكن أن تكون هذه الهيئة الخارجية لإنسان!!!.. حاولت أن أدقق النظر وأتأكد من أنني لا أحلم وأن عينيّ لا تخدعاني بعد أن اعتادتا الظلام.. فما رأيته كان حقيقيا تماما ويفوق الوصف يا دكتور.. مخلوقاً مخيفاً ليس بشريا على الإطلاق ولم أرَ مثله في حياتي!!!.. هل يعقل أن يكون هناك إنسان له رأسان؟؟!!.. كل رأس له شعر طويل بصورة ملحوظة.. لا يمكن أن يكون هذا (الشيء) بشريا.. خاصة وأنا أراه يمشي بطريقة ثابتة متجها ناحية الحمام وكأنه مقيم معنا في الغرفة!!!.

التقطت نفسا عميقا دون قصد وأنا أنظر إليها.. فردت بعصبية:

- هل ستحكم علي بالجنون منذ هذه اللحظة؟!!.

قلت بصدق ما أقوله لمرضاي دوما:

- لم ولن أتهمك بالجنون.. فقط أكملي بالله عليك.. وأرجوك تذكّري أنك أمام الشخص المناسب.. لا تخشي شيئا.. أنا في صفك ولست ضدك.. واضح أن قصتك تفوق الماديات.

سألتني بحذر يشوبه بعض الاستغراب:

- لماذا؟!!.. هل أنت معتاد على قصص كهذه؟!!.

أشعرني كلامها بشيء من الفخر الطفولي.. فقلت:

- أعترف لك أن لي صولات وجولات في علم نفس الخوارق (الباراسيكولوجي).. لكني لا أخبر أحداً بذلك كي لا يتهمني الناس بدورهم بالجنون وبتأثري بالمرضى النفسيين الذين أتعامل معهم.. لكن هذا أيضا لا يعني أنني أصدق كل شيء.. فأنا أستمع إلى المشكلة أولا.. ثم أجري جلساتي النفسية المكثفة لأعثر بعدها على التفسير الصحيح.. أنا لا أملك أي تحيزات مسبقة.. تأكدي من ذلك.

يبدو أن كلامي أشعرها ببعض الارتياح.. إذ زفرت بقوة وهي تكمل:

- عموما أنا واثقة من كلامي يا دكتور.. كنت أقول إنني رأيت مخلوقاً بشعاً يشبه البشر للوهلة الأولى.. لكن له رأسين!!!.. كل رأس منهما له شعر طويل.. رأيته يمشي مترنحا لسبب ما.. هذا كل ما استطعت تمييزه بسبب الظلام.. هل هو شبح؟!.. هل هو من عالم الجن؟!.. لم أجد الوقت لأفكر بذلك.. بل كان الرعب الذي أفقدني صوابي أسرع.. لذا نهضت من فراشي وأنا أصرخ وأبسمل وأحوقل.. وقد أيقظ صراخي والدتي وشقيقتي فراحتا تصرخان بدورهما برعب حقيقي دون أن تفهما سبب صراخي أصلا.. لكن من يلومني بعد ما رأيت؟!.. لتسألني شقيقتي الصغرى بفزع عما دهاني بعد أن شق صراخي السكون الذي عم الفندق بأكمله.. فقلت وأنا أبحث بيد مرتجفة مذعورة عن زر إضاءة الغرفة: ((هذا الفندق.. هذا الفندق.. بسم الله الرحمن الرحيم.. بسم الله الرحمن الرحيم.. هناك.. هناك شخص ما.. ربما جني.. جني كان متجها ناحية الحمام!!!)).. قلتها وقد وجد إصبعي زر إضاءة الغرفة ليعم النور المريح أخيرا.. و.. لم يكن هناك شيء!!!.. لم أجد أحداً في الغرفة سوى والدتي

وشقيقتي المذعورتين.. إلا أن هذا لم يكن كافيا ليشعرني بأي اطمئنان.. فنهضت من مكاني وذهبت لألتصق بوالدتي.. دفنت رأسي في حضنها وجسدي يرتجف كَهِر رضيع.. دكتور.. إن والدتي امرأة قوية جدا.. جميعنا ندرك هذا.. لكني لم أعلم يوما أنها امرأة حديدية!!!.. فقد نهضت من مكانها وهي تقرأ المعوذتين.. واتجهت بثبات ناحية باب الحمام الموارب بشجاعة أحسدها عليها.. فدفعته بيدها بقوة وهي تضغط على مفتاح الإنارة لتتأكد أن أحدا لا يختبئ في الداخل.

وضعت يديها على شعرها القصير محاولة إرجاعه إلى الوراء ومفرغة كل انفعالاتها بنفس الوقت.. لتكمل:

- لم تجد والدتي شيئا في الحمام.. بل وحتى الستارة التي تحجب حوض الاستحمام كانت مفتوحة أصلا.. على عكس ما نراه في أفلام الرعب حين تكون الستائر مغلقة ليأتي البطل ويزيحها ببطء شديد بحثا عن قاتل أو شبح.. أرجوك لا تخبرني أن ما رأيته كان وهما.. فهذا ما قالته والدتي وشقيقتي الصغرى.. لكني كنت واثقة مما رأيت.. فالظلام لا يسبب وهما كهذا.. وأنا واثقة أيضا أنني لم أكن أحلم.. بل كنت مستيقظة تماما.. ورغم تطمينات

والدتي وحديثها معي بود وحنان أننا سنعود إلى البيت بعد ساعات قليلة من الآن وأننا في فندق فخم مليء بالنزلاء ولسنا في بيت قديم مهجور.. إلا أنني أصريت بعصبية واضحة تنم عن توتري الشديد على الخروج من الغرفة الآن.. كان من المستحيل تماما أن أعود إلى النوم بعد ما رأيت حتى لو تركنا كل أنوار الغرفة مضاءة.. لذا فقد استكانت والدتي المسكينة ووافقت على مضض.. خاصة حين رأت نظرات الخوف على وجه شقيقتي الصغرى أيضا بعد أن سمّمْتُ لهما الغرفة بصراخي وعويلي.. ألقيت بعدها نظرة سريعة على هاتفي النقال لأكتشف أن الساعة تتجاوز الرابعة فجرا بدقائق قليلة.. إلا أن هذا لم يمنعني من النهوض بإصرار وتوتر بالغين لوضع حاجياتي في حقيبتي وقد أقسمت ألا أعود لهذا الفندق اللعين مرة أخرى.. حتى أنني اتصلت مباشرة بموظف الاستقبال لأخبره أننا سنترك الغرفة الآن وعليه إعداد أوراق الخروج!!!!.. فعلت هذا دون أن أهتم لنبرة الاستغراب في صوته والتي حاول أن يخفيها.. ولا أعلم لماذا تذكرت ذلك السؤال الذي طرحته ذات مرة في طفولتي: إذا كانت الأشباح حقيقية.. فهل تشكك بوجودنا كما نشكك نحن بوجودها؟!.. المهم.. اتصلنا

بوالدي.. ولحسن الحظ وجدته مستيقظا وقد عاد قبل قليل من المسجد لأداء صلاة الفجر كعادته.. لذا فقد جاء بنفسه ليأخذنا إلى البيت مستغربا بدوره من القصة التي أخبرته بها وإن لم يبدِ لها اهتماما كبيرا.. وكأنه يظن أن ما أفعله هو (دلع بنات) فحسب أو لجذب الانتباه.. رغم أنهم جميعا يدركون أنني فتاة رزينة لا يمكن أن أتصرف بهذه الطريقة الطفولية لجذب انتباه أحد.

قلت بحذر:

- لا أعتقد أن المشكلة انتهت عند هذا الحد وإلا لما قمت بزيارتي.. أخبريني.. هل رأيت ذلك (الشيء) في البيت أيضا؟!!.

ردت وهي ترمقني بنظرة جانبية:

- لا أعرف إن كانت استنتاجاتك هذه تنم عن عقلية متفتحة أم أنك تسخر مني!!!.. المهم.. كنت أقول إنني ظللت طوال الطريق أحاول إقناع نفسي أن غرفة الفندق قد تكون مسكونة بالجن.. أو أن ما رأيته كان وهماً تسبب به الظلام ربما.. فلا توجد تفسيرات أخرى كما ترى.. المشكلة أنني في اليوم التالي مباشرة تعرضت لصدمة جديدة مروعة وأنا لم أفق من صدمتي الأولى

بعد!!!.. كان هذا في فترة المغرب حين قررت أخذ حماما دافئا والإرهاق لا يزال مسيطرا على جسدي بعد حفل الزفاف وأحداث الأمس التي منعتني من النوم.. والتي كنت آمل أن أطردها من ذاكرتي بأسرع وقت ممكن.. وقفت بعدها أمام مرآة الحمام أقوم بتنشيف شعري بشيء من الانتعاش قبل أن تنقطع الكهرباء فجأة!!!!.. تجمدت في مكاني للحظة.. ثم التفت ناحية النور الذي يقتحم المكان من تحت فتحة الباب.. لأنتبه إلى أن الكهرباء تعمل بصورة طبيعية في البيت.. فظننت أن إضاءة الحمام قد تعطلت مثلا.. هذه الأشياء تحدث كما تعلم.. كنت أردد هذا الكلام لنفسي وأنا أتذكر ما رأيته في الليلة السابقة شاعرة أن الخوف بدأ يحتوي كياني كله وسيجعلني أفقد كل ذرة تعقل.. لذا التفت سريعا لأخرج من الحمام.. ولكن.. دكتور.. هل تعرف مخاوف الطفولة بالنسبة لي؟!.. أن أنظر إلى نفسي في المرآة أثناء الظلام!!!.. طوال حياتي أكره ذلك.. لا أدري لماذا أشعر أن من ينظر إلي حينها ليس انعكاسي.. بل (شيء) آخر.. المشكلة أن هذه المرة كان هناك شيء آخر بالفعل ينظر إلي من مرآة الحمام!!!.. لمحت ذلك في اللحظة التي كدت أن ألتفت فيها لأخرج.. فتيبست ساقي تماماً.. وأمعنت

النظر في المرآة بشيء من الصعوبة بسبب الظلام.. لأجد.. لأجد.. كيف أصفه لك يا دكتور.. كان أبشع ما رأيته في حياتي.. هل من الممكن أن تتجسد الكوابيس على أرض الواقع؟!.. لأن ما رأيته لم يكن طبيعيا على الإطلاق.. مخلوقاً بشرياً له 4 أذرع تتحرك بسرعة وكأنه عنكبوت.. لم أتبين ملامحه جيدا.. لكني كنت واثقة أنه يحدق بي.. شعرت بذلك فحسب.. فتوقفت الأفكار تماما في عقلي.. والتفت بهلع للخروج من هذا الكابوس.. لكني تجمدت في مكاني مرة أخرى.. إذ رأيت شيئا آخر يحول بيني وبين باب الحمام!!!.. هذا الشيء لم يكن موجودا قبل ثوان قليلة.. كيف ظهر فجأة؟!.. الجواب سهل.. لأنه ليس من عالمنا المادي بالطبع.. ما هذا الشيء تحديدا؟!.. مخلوق بشري آخر له أربعة أرجل وكأنه (موديل) مختلف قليلا عن ذي الأذرع الأربعة الذي ظهر لي في المرآة.

شعرت بتوتر غريب في أعماقي وأنا أتخيل المشهد.. لكني حاولت جاهدا تدارك نفسي حتى لا أثير رعب (علياء) أكثر.. فسألتها مباشرة محاولا التفكير بطريقة علمية:

- المعذرة.. أحتاج أن أعرف شيئا عن حياتك.. طفولتك.. عائلتك!!!.

ردت بحدة:

- أعرف الهدف من أسئلتك هذه يا دكتور.. أنا لا أعاني من أي عقد نفسية دفينة بسبب خلافات أو مشاكل أسرية أثرت بي في طفولتي وقد خرجت إلى السطح فجأة كما ترددون دوما.. أؤكد لك أنني فتاة طبيعية تماما.. صدقني لن تفيد أسئلتك تلك.. كنت أقول إنني لم أتمكن من الإتيان بأي رد فعل بعد كل ما رأيت.. لذا أطلقت صرخة مدوية وسقطت على الأرض فاقدة الوعي للمرة الأولى في حياتي ربما.. شعور غريب أن تفقد وعيك وتصبح فجأة في عالم آخر بعيد تجهله أنت نفسك.. لكنك -ولسبب ما- لا تود العودة منه.. هذا ما شعرت به حين بدأ جسمي يهتز برفق شديد كان كافيا لإيقاظي.. فتحت عيني ببطء لأتذكر فجأة سبب فقداني للوعي.. فنهضت مباشرة وأنا أنظر حولي بذعر.. لأجد نفسي على السرير وجميع أفراد أسرتي ينظرون إلي بقلق.. عندها فقط عرفت أنني بمأمن.. لأغرق في بكاء حار وأنا أدفن وجهي بين راحتي يدي.. مظهر من مظاهر الضعف الأنثوي كما تعلم.. لكن من يلومني على ذلك؟!!.. أتذكر أن شقيقي وضع يده على رأسي المبلل جراء الاستحمام وهو يهدئ من روعي محاولا أن يفهم ما يحدث.. لأخبره

والعبرات تنزل من عيني أن شيئا غير مفهوم يحدث لي.. في الأمس ذلك المخلوق المخيف في الفندق.. واليوم يحدث الانقطاع المفاجئ للكهرباء في الحمام فقط دون كل البيت لتظهر تلك الأشياء المخيفة التي بدت وكأنها جاءت من مكان واحد.. الجحيم ربما!!!.. لكني فوجئت بوالدي يخبرني مستغربا أن إضاءة الحمام تعمل جيدا ولا يوجد فيها خلل من أي نوع.. وأن والدتي قد سمعت صراخي.. فهرعت إلي بقلق وفتحت باب الحمام الذي لم أقفله لحسن الحظ.. لتجدني فاقدة الوعي مرتدية روب الاستحمام.. ثم نادت والدي وشقيقي بذعر ليحملاني إلى فراشي ويقومون جميعا بإنعاشي.. إن علاقتي بأفراد أسرتي قوية يا دكتور.. لذا أخبرتهم صراحة ودون تردد بقلقي الشديد من أنني مسكونة بالجن!!!.

سألتها باهتمام:

- كيف سارت الأمور بعد ذلك؟!!.

قالت بخفوت:

- لم يقتنع أحد بكلامي هذا.. إذ قام الجميع باختلاق تفسيرات مختلفة لما حدث.. منها أنني -ربما- أشعر باضطرابات نفسية بسبب زواج شقيقتي الكبرى وابتعادها عني حيث

تركَت فراغا واضحا في حياتي.. خاصة وأنها مقربة جدا مني.. مع تفسيرات أخرى سخيفة لم أقتنع بأي منها.. فأنا أدرك جيدا ما رأيته.. المشكلة أن خوفي تضاعف كثيرا عن الليلة السابقة.. لقد تسلل الرعب هذه المرة إلى الملاذ الآمن الوحيد في حياتي.. إلى بيتي نفسه!!!.. لذا قررت أن أقضي ليلتي في غرفة شقيقتي الصغرى.. إذ لم أجرؤ أن أنام وحيدة بعد ما رأيت.

سكتت قليلا وهي تنظر إلى سقف الغرفة.. ثم استرسلت بتوتر:

- ليت الأمور توقفت عند هذا الحد.. ففي نفس الليلة.. وفي تلك الدقائق التي تسبق النوم.. كانت الإضاءة الخافتة تطل بنورها الخجول على غرفة شقيقتي الصغرى بعد أن رفضْت تماما أن ننام في الظلام.. أسمع شقيقتي تتحدث عن حفل الزفاف الذي لم تخرج العائلة من أجوائه بعد.. تتحدث وتتحدث.. أما أنا فبرمجت نفسي على إصدار أصوات توحي أنني أستمع إلى كلامها باهتمام.. فلم تخرج مني أي كلمات سوى (ممم؟!).. و(مممممم!!!).. لكن في واقع الأمر ظل عقلي غائبا تماما يفكر بالأشياء الشنيعة التي بت أراها مؤخرا.. قبل أن يقل كلام شقيقتي تدريجيا وأشعر بها وقد غالبها النعاس لتنام أخيرا.. أما أنا

فظللت مستيقظة متحفزة قلقة.. أنظر حولي وأتلو بعض آيات القرآن الكريم.. لكن نداء النوم أقوى مهما كنت قلقا.. إذ غالبني النعاس أنا الأخرى لأغيب تماما في عالم الأحلام.. ولك أن تتخيل نوعية الأحلام التي ستراها فتاة رأت ما رأيته في اليومين الماضيين.. مكان يمتلئ بالمسوخ البشرية المخيفة.. أحدهم يمتلك رأسين كالذي رأيته في غرفة الفندق.. وآخر شبيه بالعنكبوت البشري الذي رأيته في الحمام.. ولا أنسى ذلك القزم الذي تشوهت ملامحه بالكامل.. أنا لم أرَ في حياتي قزماً طوله ربع متر.. هذا أقرب إلى السنافر وليس الأقزام!!!.. لم أحتمل تلك الكوابيس بالطبع.. فاستيقظت من نومي بذعر والعرق يتصبب من جبيني.. لكن.. لو كنت قد استيقظت بالفعل.. فلماذا لا أجد نفسي في غرفة شقيقتي؟؟!!.. بل ولماذا لا أجد نفسي في بيتنا؟؟!!.. فركت عيني بقوة كما نرى دائما في الأفلام الكارتونية لأتأكد أن ما أراه حقيقياً وليس حلماً.. إنني مستيقظة بكل تأكيد.. لكني لست في غرفة شقيقتي.. بل ما زلت في ذلك المكان المجهول الذي رأيته في الحلم بين المسوخ البشرية!!!.. كيف يحدث ذلك؟!.. ليتني أعلم.. المشكلة أن تلك المخلوقات كانت تحاول الاقتراب مني وهي ترمقني بنظرات لم أفهمها.. فصرخت بكل قوتي

حتى شعرت أن صوتي لن يعود أبدا كما كان!!!.. ثم.. أحدهم يهز كتفي بعنف.. التفت بهلع.. وإذا بها يد شقيقتي.. نعم.. كنت في غرفتها.. في بيتنا.. نائمة على الأرض كما كان الحال حين ذهبت إلى النوم.. لكن ما مررت به لم يكن حلما أبدا!!!.. أنا واثقة من ذلك.. عادة نحن من ننتقل إلى عالم الأحلام.. ولكن هل من الممكن أن ينتقل الحلم نفسه إلى واقعك بعد أن تستيقظ من النوم؟!!.. أرجوك لا تجادلني وتحاول إقناعي بأنني كنت نائمة وقد اختلطت علي الأحلام بالواقع.. مستحيل.. مستحيل.. مستحيل.. أنا واثقة من كلامي.

لم أعترض أبدا أمام عنادها هذا.. فقد كانت قصتها غريبة للغاية بالفعل.. سألتها بفضول:

- ماذا كانت ردة فعل أفراد أسرتك؟!!!.

ردت بحنق:

- التفسير السخيف الجاهز دوما.. إنها مجرد أوهام.. وربما كنت مجهدة بسبب الدراسة.. أو أن أكون متأثرة لفراق شقيقتي الكبرى بعد زواجها كما قلت لك.. أما والدتي فقد تحدثت عن الحسد كوني كنت رائعة الجمال في حفل زفاف شقيقتي -على حد قولها- وربما أثرت غيرة

أحدهم.. فقرأت علي المعوذات وقررت أن تقوم بتشغيل جهاز التسجيل على القرآن الكريم لبضع ساعات كل يوم كي تحل علينا البركة.. لكني ظللت أصرخ بالجميع وأخبرهم أنني أعيش لغزا مخيفا لا أفهمه يتجاوز قصص الجن والحسد .. فلا أرى منهم سوى الدهشة من تبدل حالي بهذه الطريقة الغريبة المفاجئة من فتاة مرحة تعيش حياة طبيعية.. إلى فتاة أخرى مرعوبة تصرخ وتبكي طوال الوقت!!!.

نظرت إليها بشرود.. ثم قلت بتفهم محاولا تلخيص الأحداث:

- حسنا.. لقد تعرضت إلى 3 مواقف.. الأول حدث في الفندق حين شاهدت مخلوقاً بشرياً ذا رأسين وإن كنت لم تتبيني ملامحه جيدا بسبب الظلام -أو فلنقل (ملامحهما) بما أن له رأسين- والثاني هو انقطاع التيار الكهربائي المفاجئ في الحمام والذي جعلك ترين أشياء شبيهة إلى حد ما.. والثالث هو الحلم الغريب الذي مررت به واستيقظت منه لكن تبين أنه قد أصبح واقعك.. قبل أن تعيدك شقيقتك مرة أخرى إلى عالمنا.. أمر معقد بالفعل.. لكن هذا ما تقولين إنه حدث.. أليس كذلك؟!.. إنني أحاول أن أربط النقاط ببعضها فحسب.

غمغمت بشيء من الارتياح:

- يسعدني كثيرا أنك تصدقني وتتفهم قصتي يا دكتور.

بالفعل.. أنا أصدق اقتناعها التام بأنها رأت تلك الأشياء.. لكن ليس بالضرورة أن ما رأته كان واقعا.. عموما لن أخبرها بذلك.. سأستمع إلى قصتها كاملة أولا.. لذا نظرت إليها منتظرا أن تكمل.. و:

- رغم حالة الرعب التي عشتها على مدى يومين.. إلا أن ما رأيته لم يكن الأسوأ.. فما حدث في اليوم الثالث كان جنونيا.. حادثة رابعة أقوى وأشد رعبا بكثير مما يمكن احتماله.. بل وقد كانت تلك الحادثة تحديدا السبب الرئيسي الذي جعلني أقوم بزيارتك.. فبعد يوم آخر عصيب التصقت فيه بأفراد عائلتي ولم أتركهم سوى أثناء دخولي الحمام مع وجود شقيقتي الصغرى التي تنتظرني عند الباب الموارب.. كان موعد النوم قد حان.. فتوجهت إلى غرفتها وإلى مكان نومي على الأرض وقد حاولت أن أتناسى ما يحدث لي مؤخرا وأن أندمج معها في الحديث عن بعض الأمور العائلية علني أعود إلى حياتي الطبيعية.. قبل أن يقل حديثنا شيئا فشيئا كما حدث في الأمس وتشعر كلانا بالنعاس مرة أخرى.. لأدفن جسدي بأكمله

تحت اللحاف.. لا أعلم لماذا نشعر بالأمان حين يحدث ذلك.... فهذا لن يحمينا من قاتل.. ولن يحمينا حتى من صرصور متجول!!!.. بالمناسبة.. أنا لم أخبرك أنني معتادة على احتضان الدب الذي أمتلكه منذ طفولتي.. أنت تعرف تلك الدببة الظريفة التي نطلق عليها اسم (تيدي بير) (Teddy Bear).. لو رأيت غرفتي التي هجرتها مؤخرا فستجد فيها مجموعة من تلك الدببة موزعة في كل ركن منها.. المهم أنني كنت أحتضن الدب أثناء نومي محاولة أن ألتمس منه الشعور بالأمان.. لكن.. جزء من بسيط من عقلي استيقظ فجأة وطرح تساؤلا مهما ومخيفا بنفس الوقت.. فأنا لم آتِ بالدب الصغير أصلا حين ذهبت إلى النوم في غرفة شقيقتي!!!.. بل تركته في غرفتي.. أنا واثقة من ذلك.. كيف وصل بين يدي الآن؟!!.. ثم إن الدب ليس له شعر طويل كهذا الذي أحتضنه الآن!!!!.. هذا السؤال كبر في ذهني شيئا فشيئا.. وراح يوقظ كل المناطق النائمة في عقلي.. قبل أن يصبح السؤال ملحّا ومخيفا.. ما هذا الشيء الذي أحتضنه بالضبط؟!!.. ثانية واحدة فحسب طرحت فيها تلك التساؤلات لأستعيد وعيي وأفتح عيني بذعر.. لأجد أنني لا أحتضن الدب كما كنت أتصور.. بل.. بل فتاة

صغيرة مخيفة الشكل صغيرة الحجم بشكل ملحوظ ولا تتجاوز طول طفل رضيع حديث الولادة.. لقد رأيت ملامحها جيدا هذه المرة كوني أحتضنها دون قصد وهي تنظر إلى السقف بشرود.. كانت تبدو وكأنها مسخ صغير مشوه الملامح!!!.. تماما كبرامج الكمبيوتر التي تضع فيها صورة أحدهم ثم تقوم بتشويهها بطريقة فنية لتظهره كشبح أو مصاص دماء!!!.. و.. لك أن تتخيل الهلع الذي أصبت به.. كل ما أستطيع قوله إنني وجدت نفسي فجأة واقفة ملتصقة بجدار الغرفة وأنا أصرخ وأصرخ دون توقف.. ولو استطعت الدخول في الجدار لفعلت!!!.. بل إن شقيقتي المسكينة استيقظت وراحت تصرخ بدورها دون أن تفهم سبب خوفي أصلا كما هي العادة مؤخرا.. وأعتقد أنها راحت تلعن في سرها الساعة التي سمحت لي فيها أن أنام في غرفتها.

لا أنكر ذلك الشعور البغيض وكأن هناك مجموعة من العناكب المشعرة التي بدأت تمشي على جسدي.. إذ انتفضت بشكل واضح.. لكني حاولت السيطرة على أعصابي وتذكير نفسي أن الفتاة ربما تعاني من مشاكل نفسية وليست بالضرورة تعيش تجربة من عالم ما وراء الطبيعة كحال بعض القصص التي سردتها لكم سابقا.

قلت بعدها مغمغما:

- إنها ظاهرة (الإشعاع السايكوفيزيائي) النفسية الشهيرة.. قفي بين مجموعة من الناس وهم يضحكون بجنون.. فستجدين نفسك تبتسمين وربما تضحكين معهم دون أن تعرفي السبب.. قفي بين مجموعة تشعر بالقلق والتوتر.. وسيتسلل إليك شعورهم أيضا*.. هذه الظاهرة هي سبب شعور شقيقتك وربما والدتك بالخوف في ليلة الفندق المشؤومة إياها حيث بدأت مشاهداتك التي لم يرَها أحد سواك كما هو واضح.

يبدو أنها لاحظت كلماتي المرتجفة.. إذ نظرت إلي مستنكرة ولسان حالها يقول:

- أيها الأحمق.. إذا خفت أنت من الوصف فماذا عساي أن أقول وقد عشت تلك اللحظات بأكملها؟!!.

لكنها لم تقل ذلك لحسن الحظ.. بل أكملت:

- لقد استيقظ الجميع على صوت صراخي وقد اختلط الحابل بالنابل في البيت كما بات يحدث مؤخرا بسببي.. ورحت أشرح للجميع ما حدث.. لكن.. نفس الكلام والتبريرات

---

* حقيقة

عن الحسد والجن وضرورة قراءة القرآن الكريم باستمرار.. كما سمعت والدي فيما بعد وهو يقول لوالدتي إن هناك قلقا داخليا عند كل فتاة عندما تتزوج شقيقتها الكبرى.. إذ تبدأ تفكر بقدوم دورها.. و.. إلخ من هذا الهراء.. بالطبع هو هراء.. الفتيات يتزوجن طوال الوقت ولم أسمع في حياتي عن فتاة تمر بما مررت به!!!.. كما أنني لا أنتظر دوري للزواج كما يقول.. لقد ولّى ذلك الزمن إلى غير رجعة.. كل فتاة تستطيع أن تعيش حياتها وتعمل وتصل إلى أعلى المراتب دون الحاجة إلى رجل.. و.. لم أحتمل المزيد.. فقد تعبت مما يحدث حولي.. تعبت من حالة الذعر التي أمر بها يوميا والاضطراب الذي سببته في بيتنا.. لذا جئت إليك على أمل أن تجد لي حلا يا دكتور.. هذه هي قصتي باختصار شديد.

يا سلام.. بهذه البساطة!!!.. لا أعرف من يخبر هؤلاء الناس أن الطبيب النفسي ساحر يمتلك دواء لاكتساب الشجاعة.. وأقراصا لإزالة الكوابيس.. وأقراصا أخرى لمنع الأوهام.. إلخ.. أدرك جيدا أن المريض النفسي -والإنسان عموما- لا يرى الصورة كاملة كونه يعيش داخل الإطار.. لهذا يلجأ للطبيب النفسي الذي قد يرى الصورة كاملة بإطارها.. لكن ليس إلى هذا الحد!!!.

مررت أصابعي بين خصلات شعري بحركة تمثيلية.. ثم قلت بهدوء شديد:

- ما سأطرحه عليك هو مجرد تساؤلات مبدئية فحسب.. تساؤلات آمل أن تنير لنا الطريق.. هناك احتمالان لما يحدث لك.. أن يكون كل ما تعيشينه هو سلسلة من الهلوسات التي لا أفهم سببها حتى الآن.. المعذرة.. لكن لست أنت من يقرر إن كان ما رأيته واقعاً أم لا.. فالهلوسة تبدو حقيقية تماما.. وهي تختلف عن الأوهام والضلالات.. وإن كنا نستخدم تلك المصطلحات لوصف شيء واحد*.. عموما.. لا بد من إخضاعك لعدة جلسات من العلاج النفسي حتى أقف جيدا على حالتك.

---

* هناك فارق شاسع بالفعل بين الأوهام والضلالات والهلوسات.. فالأوهام هي تفسير خاطئ لوقائع حقيقية.. تماما كما يفعل الساحر أمام الجمهور في خدعة الأرنب والقبعة الشهيرة.. حيث يرى الجمهور القبعة خالية من الداخل.. لكن فجأة يخرج منها الأرنب.. والواقع غير ذلك بالطبع.. فجميعنا نعلم أن الأمر لا يتجاوز خفة اليد مع بعض الخدع البصرية.. لذا نستطيع أن نقول إن الأوهام هي تشويه متعمد للحقيقة لإظهارها لنا بمظهر مختلف.. أما الضلالات فهي عبارة عن معتقدات خاطئة يتمسك بها المريض عن إيمان واقتناع تام ولا يمكن تصحيحها له حتى بالحجج والبراهين.. وهذا أيضا يعتبر مرض نفسي.. لذا فإن الأوهام متعلقة بالبصر غالبا والضلالات متعلقة بالمعتقد.. أما الهلوسة فهي عندما يخترع المخ صور ومناظر لا وجود لها لكنه يتعامل معها على أنها حقائق.. وأطرف الأمثلة لتلك المسميات الثلاثة هي كالتالي:

1) الأوهام: خدعة بصرية يتم استخدامها لتجسيد مخلوق فضائي أمامك.. المخلوق ليس موجوداً.. ولكن يتم خداعك بصريا لتصدق وجوده.

2) الضلالات: أنت تؤمن إيمانا كاملا أن هناك مخلوقا فضائيا يقف أمامك لكنك لا تراه.. بل تؤمن بوجوده فحسب.

3) الهلوسة: أنت تظن أنك ترى مخلوقا فضائيا متجسدا أمامك ولا يراه أحد غيرك.. إذ يخدعك مخك حينها لتتخيل وجوده.

نظرت إلي بحزن.. آه لقد اعتدت ذلك أيضا.. لقد جئت إلى الطبيب النفسي الخارق الذي سيحل مشكلتي النفسية خلال نصف ساعة ويجعلني أخرج من غرفته إنسانة أخرى.. لكنه خذلني.. هذا ما تردده في أعماقها دون شك.. لكني رغم كل شيء.. أكملت باهتمام:

- والاحتمال الثاني أن يكون كل ما تمرّين به حقيقي تماما وهذا يعني أنني سأحتاج إلى بعض الوقت للبحث والدراسة.. إن ما حدث لك -لو كان حقيقيا- يندرج تحت بند (علم نفس الخوارق) كما أخبرتك سابقا.. والذي كانت لي معه صولات وجولات لا بأس بها رغم أن هناك عدداً هائلاً من الأطباء لا يعترفون بوجوده أصلا.. لذا صدقيني عندما أكرر وأقول إنك أمام الشخص المناسب في كل الأحوال.. فلتمنحيني بعض الوقت وأرجو أن تحاولي ألا تكوني وحدك أبدا خلال الأيام القادمة.. ولتكتبي لي رقم هاتفك من فضلك من باب الاحتياط.. أتمنى أن أراك بعد 3 أيام بإذن الله.

قلتها وأنا أناولها ورقة مع قلم محاولا أن أختم حديثنا.. لكنها نظرت إلي بازدراء أغاظني كثيرا.. ثم قالت وهي تكتب رقمها بطريقة آلية وكأنها لا تعرف جدوى ذلك أصلا:

- تطلب مني ألا أكون وحيدة؟!.. هذا ما أقوم به فعليا في الوقت الحالي.. أنت لم تقدم لي شيئا جديدا!!.

قلت بصبر:

- الطبيب النفسي لا يملك عصا سحرية يا (علياء).. بل يحتاج بعض الوقت للبحث والوقوف على حالة المريض النفسية.. هناك أمراض نفسية يسهل اكتشافها من جلسة واحدة كالاكتئاب والقلق والوساوس.. وأمراض أخرى تحتاج إلى بعض الدراسة.

ردت بعصبية:

- أنا لا أستطيع الانتظار.. هذه الأشياء تظهر لي بصورة يومية تحولت بسببها حياتي إلى جحيم لا يطاق.. ألا تفهم؟!!!.

شعرت بذلك التوتر اللعين في أعماقي.. إنها من تلك اللحظات التي يصرخ فيها أحدهم بوجهك فتفقد ثقتك بكل ما تعلمته!!.. حاولت أن أبذل جهدا كبيرا للسيطرة على أعصابي.. وحاولت أن أتفهم أن هذه الفتاة تعاني الكثير فلا حرج عليها.. لذا قلت بهدوء رغم احمرار وجهي الواضح:

- بيدك أن تقومي بزيارتي بعد 3 أيام لمنحي بعض الوقت كي أدرس حالتك.. وبيدك أيضا اختيار طبيب نفسي آخر..

لكني أؤكد أنه لن يقدم لك أكثر مما قدمته أنا.

نهضت من مكانها بحدة وقد كوّرت الورقة التي كتبت عليها رقمها وألقتها بعيدا كناية عن عدم جدوى ذلك.. ثم خرجت من غرفتي بعد أن صفقت الباب بقوة.. حسنا.. أفضل مكان تهرب إليه بعد هذا الموقف هو الموسيقى!!!.. فتحت جهاز الكمبيوتر.. ثم ضغطت على زر تشغيل موسيقى (Enya) الهادئة محاولا العودة إلى الهدوء الداخلي والصفاء النفسي.. دقات قلبي بدأت تتباطأ.. أنفاسي تنتظم.. نصف ساعة تقريبا شعرت فيها ببعض الاسترخاء لألتفت مرة أخرى إلى شاشة الكمبيوتر.. وأبدأ رحلة البحث المعتادة في عالم الشبكة العنكبوتية والتي أقوم بها دوما حين أواجه أمرا أعجز عن تفسيره.. رحت أبحث.. وأبحث.. لم يكن البحث سريعا كما قد يتصور البعض.. بل امتد لساعات.. ثم ليومين كاملين.. كنت على يقين أن الحقيقة موجودة في مكان ما.. لكني لا أعرف أين.. قبل أن يخبو حماسي تدريجيا بعد أن باءت عملية البحث بالفشل الذريع.. عموما فإن جميع كتب علم النفس التي درستها تقول إن ما تراه هذه الفتاة هو مجموعة من الهلوسات فحسب.. أو قد يكون للجن علاقة بالأمر كما ظنت هي نفسها لوهلة؟!!.. لقد طرأ هذا في ذهني بالفعل.. لكن الأمر في هذه الحالة خارج نطاق تخصصي.. دعكم من أنني

ذكرت سابقا أن 99% من حالات المس بالجن هي في واقع الأمر تأثير نفسي يدعى (تأثير الغفلة) أو (Placebo effect)*.

عموما.. لم تلتزم (علياء) بالحضور بعد 3 أيام كما طلبت منها.. بل فوجئت بها تزورني في فترة الظهيرة بعد مرور أسبوع تقريبا من زيارتها الأولى.. إذ دخلت غرفتي دون استئذان ووقفت بمنتصفها لتحدق بي بغضب!!!.. الغريب أنها كانت في أسوأ حال ممكن.. فقد نحفت بعض الشيء ورأيت بعض الهالات السوداء تحت عينيها مما يدل على قلة النوم.

كنت أتصور أنها هنا لتتشاجر معي وإن كنت أجهل السبب.. وبدت للحظة وكأنها ستمسك بأي شيء موجود على مكتبي لتقذفني به.. لكن.. تبخر غضبها فجأة.. لتنهار أمامي وتسقط على الأرض في وسط الغرفة.. ثم راحت تبكي بحرارة تنيط القلوب.. يا عزيزتي.. لن تتصوري أبدا ضعفي حين أرى فتاة بهذا الحال.. لن أحتمل كل هذا الضعف والانكسار.. نهضت من مكتبي متأثرا.. واتجهت ناحيتها وهي ملقاة وكأنها دمية قذفها أحدهم بالحائط بقسوة فانكسرت وبقيت مهمَلة على الأرض.

---

* حقيقة.. وقد تطرق المؤلف لـ(تأثير الغفلة) بالتفصيل في إصدار (حالات نادرة 2)

قلت لها بصوت متعاطف وأنا أناولها منديلا لتمسح دموعها:

- أرجوك لا تبكي يا (علياء).. إنني هنا لمساعدتك.. فلتنهضي وتجلسي على الكرسي.. أرجوك.. أرجوك.

قلتها وأنا أمسك بذراعها محاولا مساعدتها على النهوض.. لحسن الحظ استجابت لي.. فقد بدت وكأنها تحتاج من يقودها.. لذا رافقتها إلى الكرسي.. وطلبت لها كوبا من العصير البارد لتهدئ من روعها قليلا.. ثم سألتها بتعاطف شديد:

- أخبريني.. ما الذي حدث؟!!!.

قالت بوهن:

- أثناء طريقي إلى هنا.. خطرت في ذهني فكرة مجنونة.. أن أفتح جهاز التسجيل إلى أعلى درجة.. وأقود سيارتي بأقصى سرعة على أمل أن يحدث لي شيء ينهي حياتي.. لم أعد أحتمل يا دكتور.. أشعر أنني مكشوفة كالعَصَب.. الجميع في البيت باتوا يخشون على حالتي النفسية.. فالأمور ساءت كثيرا وتلك المشاهدات المرعبة باتت تتكرر دون توقف رغم أن آيات القرآن الكريم تنبعث من جهاز التسجيل في البيت طوال اليوم.. المشكلة أنني بت أرى تلك الأشياء في كل مكان.. حتى أثناء خروجي

من البيت!!!.. دكتور.. الكلاب تسمع ترددات خاصة لا يسمعها أي كائن آخر.. فربما هذا يحدث مع البصر أيضا!!!.. ربما أستطيع أن أرى ما لا يراه الآخرون.. ما هذا الذي أراه تحديدا؟!.. لا أعلم.. لماذا بدأت تلك المشاهدات تحدث الآن؟!.. لا أعلم أيضا!!!.

لا أعرف ما أقوله لها.. أعترف أنني عاجز عن مساعدتها.. وأمام نظراتي الحائرة.. أكملت وهي تنظر إلي دون حرج لتقول:

- لقد.. لقد تبولت على نفسي في المرة الأخيرة من شدة الرعب يا دكتور!!!.. لن أخجل من قول ذلك.. فما أعيشه يفوق إحساسي بالخجل بمراحل.. كيف سيكون شعورك حين تجد تلك (المخلوقات) المخيفة حولك في كل مكان تذهب إليه؟؟!!.. إنها تلاحقني باستمرار.. وبعضها يثري كوابيسي بحق.. هذا إذا كنت أنام أصلا.. لقد أخذني والدي إلى رجل دين فأوصاني بأمور كثيرة لم تغير شيئا.. لا توجد لدي أي حلول الآن.. أرجوك أنقذني.. أرجوك!!!.

كنت أشعر بالأسف فعليا نحوها لكني عاجز تماما بنفس الوقت عن مساعدتها.. فبدا موقفي شبيها بأيام الدراسة حين يطرح علي المدرس سؤالا فأمثل له بأنني أفكر بعمق بحثا عن الإجابة رغم أنها غير موجودة في عقلي أصلا!!!.. المشكلة أن

حتى تفسير الجن لا أراه منطقيا هنا.. إذ لم أسمع عن أحد تقمصه الجن بهذه الصورة الغريبة!!!.. سألتها محاولا إيجاد مخرج:

- أخبريني يا (علياء).. هل أنت من عشاق أفلام الرعب أو تمارسين ألعاب المراهقين من تحضير أرواح وغيرها؟!.

هزت رأسها باستنكار وهي تقول:

- بالطبع لا!!!.

سألتها مرة أخرى:

- حسنا.. هل لي أن أتحدث مع أحد أفراد أسرتك؟!.. والدك ربما؟!.. أو حتى شقيقك؟!.. قد يتغير الأمر لو عرفنا القصة من منظور شخص آخر.. أستغرب عدم التفافهم حولك في هذه الظروف!!!.

قالت معترضة:

- بل هم إلى جانبي طوال الوقت.. لكن الأمور تحدث بسرعة.. فالقصة بأكملها بدأت منذ أقل من أسبوعين كما تعلم.. والأحداث تتسارع منذ ذلك الحين.. أما رغبتك في الحديث مع أحد من أفراد أسرتي فلا أجد ما يبررها..

خاصة وأن كل ما رأيته لم يره أحد سواي.. أسمع والدتي تتحدث أحيانا عن السحر.. لكني أشعر أن الأمر أكبر من ذلك بكثير!!!.

أطرقت برأسي خجلا وأنا أقول مغمغما:

- أنا أريد أن أساعدك بالفعل لكني لا أعرف كيف.. إن حالتك غريبة.. فحتى التفسير المتعلق بالهلوسة -والذي يتطلب بعض الجلسات العلاجية حتى أتأكد منه- أجده غير منطقي كونك تعيشين حياة طبيعية للغاية كما أكدتِ لي بنفسك.

و.. أمام صمتي وخجلي وعجزي.. رأيتها تنهض من مكانها وقد فقدت الأمل تماما كما يبدو في إيجاد حل لمشكلتها.. ثم نظرت إلي للمرة الأخيرة بأسى ويأس وعيناها قد اغرورقتا بالدموع مرة أخرى.. لتخرج من مكتبي دون أن أعلم أنني لن أراها ثانية.. فبعد بضعة أسابيع.. وبعد أن مرت علي حالات أخرى وأخرى أنستني تلك القصة تماما.. طرأت (علياء) بذهني فجأة ذات يوم.. لحسن الحظ أنني احتفظت برقمها على تلك الورقة التي كوّرتها بيدها وقذفت بها إلى الأرض في ذلك اليوم.. ففكرت بالاتصال بها والاطمئنان عليها ومعرفة ما آلت إليه الأمور على أمل أن أغلق ملف هذه القصة إلى الأبد.

وبالفعل.. لقد أغلق ملف القصة إلى الأبد.. ولكن بطريقة أخرى مع الأسف.. فعندما رن جرس هاتفها النقال.. فوجئت برجل يجيب ويسألني عن هويتي.. أخبرته دون تردد أنني طبيب نفسي وقد لجأت إلي (علياء) منذ مدة لمساعدتها وإنني أتصل للاطمئنان على حالها فحسب.. كان ما سمعته منه قد سبب لي صدمة مروعة.. عندما أخبرني المتحدث بتأثر شديد أنه والد (علياء).. وأنها.. أنها توفيت منذ أيام قليلة!!!.. شيء غير مفهوم -على حد قوله- أصابها أثناء نومها وجعلها تختنق حتى الموت!!!.

كان هذا آخر ما توقعت سماعه.. حتى أنني صمتّ لمدة طويلة.. وشعرت بذنب وحزن شديدين كوني لم أتمكن من تقديم أي عون لهذه المسكينة.. حاولت أن أعرف منه المزيد من التفاصيل.. فأنا أعرف أن هناك أنواعا من الموت.. هناك الموت الذي يبدو حادثا والموت الذي يبدو انتحارا والموت الذي يبدو شيخوخة والموت الذي يبدو قتلا.. لكن لا أحد يختنق دون سبب.. نقلت له تساؤلاتي تلك.. فأخبرني أن هذا ما قاله الأطباء ولا يعرف أي تفاصيل أخرى!!!.

تغيرت نبرة صوتي كثيرا متجاوزا تلك النقطة.. وقمت بتقديم واجب العزاء له.. ثم.. تنحنحت وطلبت منه بخجل أن ألتقي

به.. نعم.. فهناك أمور كثيرة أخبرتني بها ابنته وأردته أن يعرفها.. ربما يكشف حديثي معه شيئا يساعدني على فهم ما تعرضت له (علياء).. دعكم من الشعور بالذنب الذي سيطر علي كوني عجزت عن مساعدتها.. فوافق المسكين مباشرة.. وكأنه يرغب بشدة في التحدث عن ابنته.

بعد يومين من اتصالي به.. قابلته في بيته بمنطقة (السلام) بعد أن استقبلني بوجه شاحب متأثر.. بل وبدا لي وكأن البيت بأكمله يشع كآبة بسبب حالة الوفاة.. المهم أنني صافحته بحرارة وقمت بتقديم واجب العزاء مرة أخرى.. ثم دار بيننا حديث طويل حول ابنته.. إذ سألته عن كل ما يخص حياتها علني أفهم سبب ما تعرضت له وما كانت تراه من مسوخ وشياطين كما عرفنا منها.

لكن.. كل ما سمعته من الأب كان عاديا للغاية.. هذه أسرة ككل الأسر من الصعب أن يخرج أحد أفرادها فجأة ليعاني من الهلوسة أو أي أعراض نفسية أخرى كما حدث لابنته.. لذا فقد شعرت أن زيارتي هذه لم تقدم شيئا للأب سوى مواساته.. وإن لم يفتني ندمه الشديد كونه قد انشغل عنها في الأيام الأخيرة -على حد قوله- قبل وفاتها ولم يقضِ معها الكثير من الوقت.. هكذا هو حال عدد لا بأس به من الآباء مع الأسف.. لكني لن

أوجه له اللوم الآن بعد أن فات الأوان.

خرجت من بيتهم وقد قررت بحزن وضع تلك القصة في ملف النسيان.. هذا الملف الذي أصبح متخما وباتت أوراق الذكريات المريرة تتساقط منه رغما عن أنفي وتزيد التوتر والاكتئاب في حياتي.. لكني حاولت رغم كل شيء أن أعود إلى حياتي العادية.. وإلى شقتي التي أصبحت الحصن الوحيد الذي أشعر فيه بالأمان.. قبل أن.. قبل أن تحدث المفاجأة بعد شهور قليلة وأكتشف الحل فجأة!!!.. وإن كان متأخرا للأسف.

كيف؟!.. حدث هذا بالصدفة حين كنت جالسا في شقتي أمام شاشة الكمبيوتر.. مجرد خبر غريب قرأته في إحدى الصحف البريطانية الإلكترونية التي أتابعها باستمرار.. أتذكر أنني جلست أقرأ الخبر أكثر من مرة بعين خاوية دون أن أربط الأمر إطلاقا بقصة (علياء) التي نسيتها بسبب زحمة الحياة ومصائب المرضى التي تنهال على مسامعي يوميا.

المشكلة أنك أحيانا ترى الإجابات أمامك لكنك تظل تبحث عنها في أماكن أخرى.. فقط لأن عقلك لا يرى سوى المألوف.. لكني انتبهت هذه المرة لحسن الحظ إلى ما هو غير مألوف.. فقد حرك هذا الخبر خلايا دماغي بصورة مفاجئة أثناء قراءتي لتفاصيله.. إذ بدأت عيناي بالاتساع لا شعوريا وأنا أتذكر

(علياء) وما مرت به.. هل هي ضربة حظ؟!.. لا أعلم.. هل هو إلهام من الله سبحانه وتعالى؟!.. على الأرجح نعم.. ترى.. ما هو الاحتمال لأمر كهذا أن يحدث؟!.. ربما يكون 1 في المليون.. لكنه يبقى احتمالا قائما رغم كل شيء.. فإذا كنا نرى بعين مفتوحة ونسمع بآذان منصتة.. فلماذا لا نفكر بعقل منفتح؟!.

مهلا.. يجب أن أجري مكالمة هاتفية ضرورية أولا.. سأتحدث مع والد (علياء).. رحت أبحث في أرقام هاتفي النقال.. لحسن الحظ أنني لا أمحو أي رقم من جهازي.. فأنا لن أزور الأب في بيته بسبب هذا الاحتمال الضعيف.. اتصلت.. لأسمع صوت جرس الهاتف يرن.. آمل ألا يكون والدها قد قام بإلغاء الخط بعد وفاتها فاشتراه شخص آخر.. هذا الرقم هو وسيلة الاتصال الوحيدة به.. الهاتف يرن بإلحاح دون أن يرد أحد.. وفجأة:

- ألو..

قلت بلهفة:

- السيد (.....)؟!.. مرحبا يا سيدي.. أنا الطبيب النفسي.. هل تذكرني؟!.. لقد قمت بزيارتك في البيت منذ شهور قليلة وتحدثت معك عن ابنتك رحمها الله.

سكت للحظة.. ثم رحب بي بانكسار وكأنني أعدت له ذكرى

حزينة.. فسألته مباشرة آملا أنني سأصيب الهدف الصحيح:

- سيدي.. هناك أمر هام أريد التأكد منه وأعدك أنني لن أزعجك مرة أخرى باتصالاتي.. أخبرني عن طفولة (علياء) أرجوك.. هل.. هل كان لها توأم ملتصق*؟!!.. توأم توفي في عمر صغير ربما؟؟!.

لا أعلم لماذا شعرت بارتياح شديد وانبهار شخصي بذكائي حين سمعت الأب يشهق بعنف ويسألني بدهشة:

---

* ظاهرة التوائم الملتصقة هي ظاهرة نادرة جدا لا يوجد لها تفسير علمي مؤكد حتى الآن.. وتحدث في حالة واحدة بين حوالي كل 200 ألف حالة ولادة.. علما بأن نصف حالات التوائم الملتصقة تقريبا تولد ميتة.. وهناك جزء منهم يولدون أحياء لكنهم لا يتمكنون من التأقلم مع الحياة فيموتون بعد فترة قصيرة.. لذا فإن حالات التوائم الملتصقة التي تبقى على قيد الحياة لسنوات طويلة لا تتجاوز 25% فقط.. وقد كانت مسألة الفصل بين التوأمين الملتصقين ضربا من الخيال العلمي في الماضي.. إذ فشلت جميع المحاولات الجراحية لذلك.. ولكن في عام 1987 قام الدكتور (بين كارسون) (Ben Carson) بتحقيق إنجاز تاريخي غير مسبوق حين أصبح أول طبيب وجراح في العالم ينجح بفصل توأمين ملتصقين من منطقة الرأس ليتمكن كل منهما أن يعيش حياة طبيعية بعدها.. وقد أجرى الدكتور هذه العملية بمساعدة 50 فرداً من طاقمه الطبي وبعملية جراحية معقدة استمرت 22 ساعة تقريبا.. وقد نجحت بعد هذه العملية عدة عمليات أخرى على مدى السنوات التالية.. لكن فشلت عمليات كثيرة أخرى أيضا.. إذ تبقى عمليات الفصل بين التوائم الملتصقة متباينة بشكل كبير جدا.. فهي سهلة نسبيا أحيانا.. وشبه مستحيلة معظم الأحيان فتهدد حياة أحد التوأمين وأحيانا كثيرة كليهما.. علما بأن حالات التوائم الملتصقة لا ترتبط فقط بالإنسان.. بل تمتد لتشمل الكائنات الحية الأخرى أيضا بمختلف أنواعها وعلى مدى التاريخ.. فقد عُثِر على أحفورة يتجاوز عمرها 120 مليون عام لأحد أنواع السحالي التي كانت لتوأم ملتصق.

- كيف.. كيف علمت بذلك؟!!.

لم أجبه.. بل طلبت منه بلهفة أن يخبرني بالمزيد أولا.. ليقول بذهول:

- هذه قصة قديمة للغاية لا يعرفها أحد سواي أنا ووالدتها.. فقد ولدت (علياء) ملتصقـة بتوأم طفيلي* من منطقـة

---

* التوائم الطفيلية (Parasitic Twins) تمثل تقريبا 10% من حالات التوائم الملتصقة.. حيث يكون أحد التوأمين صغير الحجم غير مكتمل النمو ويعتمد اعتمادا كليا على أعضاء التوأم الأكبر ليبقى حيا.. ويكون الالتصاق في هذه الحالة في أي مكان بين الجسدين..علما بأن أنواع التوائم الملتصقة عديدة وتتجاوز تقريبا الـ 15 نوعاً.. أكثرها شيوعا هي:

- التصاق الجسدين في منطقة الصدر.. ويعد هذا النوع أكثر أنواع التوائم الملتصقة شيوعا.. حيث يتشاطر فيه التوأمين القلب عادة.. وأحيانا الكبد والجهاز التنفسي.

- التصاق الجسدين من أعلى الصدر إلى أسفل البطن.. وهو ثاني أكثر الأنواع شيوعا.. ودائما ما يتشارك التوأمين القلب في هذه الحالة.

- التصاق التوأمين في أسفل الصدر فقط ويكون لكل منهما قلب خاص به.. لكنهما يتشاركان غالبا في الكبد والجهاز الهضمي وبعض الأعضاء الأخرى.

- التصاق التوأمين من خلال الجمجمة سواء من خلف الرأس أو من الجانب.. بل وحتى من الجبهة في حالات نادرة جدا.

وهناك أنواع أخرى شديدة الندرة.. كأن يكون للتوأمين رأس واحد ولكن ذو وجهين.. وهذا النوع من التوائم لا يبقى على قيد الحياة طويلا بسبب التشوهات الشديدة التي تصيب الدماغ عادة.. وهناك النوع الذي يكون فيه للتوأمين وجه واحد ورأس واحد.. لكنهما بجسدين منفصلين!!!.. أو أن يتصل التوأمين في النصف الأسفل من الجسد حيث يلتصق العمودان الفقريان ببعضهما تماما.. فيكون للتوأمين حينها 4 أذرع أو 4 سيقان ويتشاركان في هذه الحالة الأعضاء التناسلية وفتحة الشرج.

الرأس.. لن أضيع وقتك بمشاعر الحزن والألم والذهول التي أصابتنا حينها.. لكن يجب أن تعلم أننا تصرفنا بطريقة عملية حين حاولنا لأكثر من عام إيجاد حلا لتلك المشكلة.. حيث عرفنا أن إجراء عملية لفصل التوأم الطفيلي عن (علياء) ستكون خطرة جدا.. فهناك احتمال كبير أن تفقد حينها الفتاتان حياتيهما.. بل إنني لم أحصل حتى على موافقة وزارة الصحة لأرسلهما إلى العلاج في الخارج.. فكيف توافق الجهات الرسمية في الدولة على ذلك إذا كان العلاج نفسه قد ينهي حياة التوأمين!!!.. لذا ظللنا ندور في حلقات مفرغة ودوامة لا تنتهي من التفكير.. إلى أن اقترح أحد أقاربي أن أبحث عن مصح متخصص لإيواء التوائم الملتصقة حتى تعيش فيه ابنتاي بعيدا عن نظرات الاشمئزاز التي قد يلقونها من الناس.. لكن.. كانت المصحات التي ترعى التوائم الملتصقة نادرة جدا وباهظة الثمن.. إلى أن عثرت في النهاية على مصح في (تايلاند) وبسعر معقول للغاية قياسا لعملتنا.. فقررت إرسالهما إلى هناك.. وظلت الفتاتان تعيشان بضعة شهور في ذلك المصح.. لتحدث الكارثة ذات يوم.. حين وضعت (علياء) قطعة صغيرة جدا من لعبتها في فم توأمها الطفيلي فاختنقت المسكينة وماتت!!!.. لا تنس أن عمرهما كان لا يتجاوز العامين آنذاك.. وقد كانت

معجزة حقيقية حين ظلت (علياء) على قيد الحياة رغم موت توأمها الطفيلي.. فأمور كهذه نادرة الحدوث.. لذا تحتم حينها إجراء عملية جراحية صعبة جدا ومعقدة استغرقت أكثر من 18 ساعة تقريبا لفصل التوأم الطفيلي عن (علياء).. لكنها تكللت بالنجاح الذي أذهل الأطباء أنفسهم.. فكُتب لـ(علياء) عمر جديد.

سكت الأب طويلا.. وظللت أنا صامتا مصدوما لما سمعته.. هل يعقل أن يكون استنتاجي دقيقا بهذه الصورة؟!!.. لكن هذا ليس كل شيء.. أعتقد أن هناك المزيد.. سألته بهدوء شديد غير مصدق أنني أصبت الهدف بهذه السهولة:

- هناك سؤال هام جدا أحتاج إجابته.. أرجوك يا سيدي فكر في سؤالي جيدا قبل الإجابة.. لقد كان التوأمان ملتصقين من ناحية الرأس كما أخبرتني.. فهل كان دماغهما المشترك ذاتأثير واضح عليهما؟!.. بمعنى آخر.. هل كانت (علياء) ترى بعين توأمها أحيانا وتسمع أفكارها؟!.. هل كان التوأمان تتبادلان الذاكرة مثلا؟!!.. أرجوك لاحظ أنني أتحدث عن الذاكرة البصرية تحديدا.. والتي يبدو أنها كانت متصلة بينهما.. فلا أظن أنهما كانتا تتشاركان في الذاكرة السمعية.

يبدو أن كلماتي أصابته بصدمة جديدة.. بل وتبين هذا بوضوح حين شعرت به وكأنه أمسك بالهاتف بقوة مع اقتراب صوته من السماعة ليقول بحدة فجرت طبلة أذني:

- أخبرني بالله عليك كيف عرفت؟!!!.

قلت بتأثر شديد لذكائي الحاد:

- لقد قرأت قبل قليل خبرا غريبا في إحدى الصحف البريطانية.. لا أعرف لماذا قفز اسم (علياء) إلى ذهني فجأة حينها!!!.. الخبر يتحدث عن توأمين ملتصقتين من ناحية الرأس لا يتجاوز عمرهما الأربعة أعوام.. لكن الفارق أنهما مكتملا النمو ولم يكن أحدهما طفيليا كحال توأم (علياء).. المهم أن الأطباء اكتشفوا أمرا مثيرا يخص هذين التوأمين.. إذ تبين أن لديهما المقدرة على قراءة أفكار بعضهما أحيانا.. وأن كل منهما تستطيع أن ترى بعين الأخرى في أوقات متفرقة ودون سبب محدد.. كيف؟؟!!.. لا أحد يعلم.. إذ يأمل الأطباء أن يفهموا كيفية حدوث ذلك في المستقبل ربما إذا كبرت التوأمتان قليلا وتمكنتا من شرح ما يحدث لهما بصورة دقيقة.. إنها حالة نادرة جدا لم تحدث في تاريخ التوائم الملتصقة سوى مرات قليلة لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة.. لقد فكرت كثيرا بهذا الخبر الغريب.. وحاولت ربطه بما

حدث لـ(علياء)*.

سألني باستغراب:

- ما علاقة هذا الخبر بما حدث لـ(علياء)؟!.. لم أفهم قصدك بعد!!!.

قلت بثقة شديدة بعد أن تأكدت أنني أصبت الهدف:

---

* كل ما هو مذكور حقيقي تماما.. وهي واحدة من الحوادث التي هزت الأوساط العلمية مؤخرا.. عندما صعق الأطباء بتوأمتين بريطانيتين في الرابعة من عمريهما وهما (كريستا) و(تاتيانا) حيث تلتصقان ببعضهما من الناحية الخلفية من منطقة الرأس.. فتنظر كل منهما إلى جانب مختلف ولا يمكنهما أن تريا بعضهما إلا بواسطة مرآة.. لكنهما تسمعان أفكار بعضهما دون سبب مفهوم.. بل وتريان بأعين بعضهما أيضا.. وقد تحدثت الأم إلى وسائل الإعلام وذكرت أنها قامت أكثر من مرة بتغطية عيني إحدى التوأمتين.. ومع هذا ترى ما تراه الأخرى!!!.. بل إنهما تتشاركان نفس الشعور.. فحين تشرب إحداهما الماء.. تشعر الأخرى بالارتواء أيضا رغم أنهما لا تمتلكان نفس المعدة.. الطريف أن إحدى التوأمتين تحب صلصة الطماطم (الكاتشب) كثيرا والأخرى تكرهها بشدة.. وعندما تلتهمها الأولى بتلذذ.. تشمئز الثانية وتظهر ملامح الانزعاج عليها!!!.. كما لوحظ أنه حين تشاهد الأولى التلفزيون أثناء نوم الثانية.. تستيقظ الثانية وهي تعرف جيدا ما شاهدته الأولى!!!.. فهي ترى الأمر وكأنه حلم.. وتتشاطر التوأمتان المشاعر أيضا.. فلو قام أحد بوخز واحدة منهما بالإبرة فستتألم الأخرى.. أو لو وبخ الأب إحداهما.. فستبكي الأخرى أيضا لشعورها بذات المشاعر.. كل هذا دون أن يكتشف الأطباء كيفية حدوث ذلك التواصل الغريب بينهما.. علما أن هذا التواصل ليس دائما.. بل يحدث على فترات متقطعة ولأسباب مجهولة كما تقول الأم.. وقد عُرِضَ فيلم وثائقي كامل عن هاتين التوأمتين مؤخرا في قناة (ناشيونال جيوغرافيك).

- سيدي.. كل المخلوقات المخيفة التي كانت تراها (علياء) قبل وفاتها هي في واقع الأمر بقايا من الذاكرة التي تركتها توأمها الطفيلي.. هذه المخلوقات هي في الواقع توائم متلاصقة من مختلف الأنواع في ذلك المصح في (تايلاند).. لقد كانت (علياء) ترى أحداثا قديمة من ذاكرة توأمها الطفيلي دون أن تعلم!!!!.

سألني مرة أخرى بانبهار:

- ولكن كيف حدث هذا؟!.. لقد ماتت توأمها منذ زمن طويل وعمر (علياء) لم يكن يتجاوز العامين آنذاك كما قلت لك.. كيف تظهر ذاكرة إنسان ميت في ذاكرة إنسان حي؟!!.

قلت ببساطة وقد اتضحت الأمور تماما:

- لقد كان رأساهما متصلين.. تماما كحال التوأمتين البريطانيتين اللتين أخبرتك عنهما.. أعتقد أن ذاكرة التوأم الطفيلي ظلت طوال سنوات مطبوعة في ذهن (علياء) وقد ظهرت إلى السطح مؤخرا وبصورة مفاجئة لسبب لا أعرفه صراحة.. فباتت المسكينة ترى العالم في أوقات متقطعة بذاكرة توأمها الطفيلي دون أن تعلم.. أي أنها كانت ترى مشاهد قديمة من ذاكرة طفلة عمرها سنتان فحسب.. لهذا لم تدرك أن من تراهم في واقع الأمر ليسوا سوى توائم ملتصقة بأنواع

مختلفة في ذلك المصح.. وأعتقد أن توأمها الطفيلي كانت متخلفة عقليا كون تكوينها الجسماني والذهني أقل من (علياء) التي كانت مكتملة النمو.. مما ساهم بالمزيد من التشويه للعالم الذي كانت تراه.. وحتى تفهم الأمر بصورة أوضح.. تخيل لو وضع أحدهم في رأسك ذاكرة طفل صغير.. عندها لن ترى العالم كما تراه وأنت رجل بالغ بكل تأكيد.. بل ستتصرف كالطفل وسترى أشياء كثيرة لن تفهمها.. حتى موضوع انقطاع الكهرباء في الحمام والذي أخبرتني عنه قبل وفاتها قد يكون مرتبطا بذاكرة توأمها حين انقطعت الكهرباء -ربما- يوما في ذلك المصح في (تايلاند).. ما هو سبب نشاط ذاكرة التوأم الطفيلي المفاجئ والمتقطع في مخ (علياء) بعد كل هذه السنوات؟!.. لا أعتقد أننا سنعرف الإجابة.

سألني بانفعال شديد:

- أخبرني إذا.. كيف.. كيف ماتت.. كيف اختنقت ابنتي؟!!.

سألته بالمقابل:

- لقد أخبرتني قبل قليل أن توأمها الطفيلي ماتت مختنقة عندما وضعت (علياء) في فمها قطعة صغيرة من قطع اللعب.. أليس كذلك؟!!.

شهق الأب بقوة ويبدو أنه فهم ما أعنيه.. فأكملت بألم:

- تماما.. هذا يفسر كل شيء.. لقد كان عقل (علياء) مقتنعا تماما أنها هي التي تختنق لأنها كانت لحظتها تعيش ذاكرة توأمها الطفيلي في لحظات اختناقها.. مما جعلها على قناعة تامة بأن شيئا ما في فمها يمنعها عن التنفس.. الأمر الذي أدى لاختناقها فعليا وموتها في نهاية الأمر مع الأسف الشديد!!!.

ساد المكالمة صمت طويل وقد شعرت أن الأب يبكي.. نعم.. إنه يبكي.. أسمع أنفاسه بوضوح.. فاحترمت بكاءه كثيرا وخرست تماما شاعرا بشيء من الذنب كوني أعدت له ذكريات مريرة.. ثم سمعته يقول بأنفاس متقطعة مزقت قلبي:

- لم نربط أبدا ما مرت به (علياء) بتوأمها الطفيلي.. فقد عاشت حياة طبيعية منذ ذلك الحين.

قلت متفهما:

- لا يمكن لأحد أن يلومك يا سيدي.. فالربط بين الحادثتين مستحيل تماما.. ولولا ذلك الخبر الصحفي الذي قرأته قبل قليل لما استنتجت شيئا كهذا.. لكن الآن اتضحت الصورة إلى حد كبير.

أكمل بصوت باك:

- بعد فوات الأوان!!.

اغرورقت عيناي بالدموع لا شعوريا.. لكني تماسكت وأنا أقول:

- هذا قضاء الله وقدره يا سيدي.. نعم.. لقد جاء استنتاجي متأخرا.. لكننا لا نعلم أصلا إن كان بإمكاننا مساعدة (علياء) وقتها.. ربما كانت ستعيش سنوات طويلة بهذه الصورة وترى مشاهد مرعبة تحيل حياتها جحيما دون أن نتمكن من مساعدتها.. إنني ألجأ عادة إلى التنويم المغناطيسي لإزاحة ذكرى سيئة تؤرق المريض وأرميها في منطقة مظلمة من عقله حتى ينساها ويتمكن بعدها من الحياة بصورة طبيعية.. لكن.. حتى التنويم المغناطيسي لم يكن ليفلح مع (علياء) كونها كانت تعيش أحياناً ذكريات شخص آخر.. توأمها الطفيلي!!!.

صمتنا طويلا بعد كلامي هذا.. قبل أن يودعني الأب بصوت حزين مضطرب ويشكرني على كل ما فعلته كوني ما زلت أفكر بابنته بعد مرور شهور على وفاتها.. فشكرته بدوري على استماعه لي وأنهيت المكالمة بعبارات المجاملة المعتادة وأنني على استعداد لاستقباله في مكتبي متى شعر بأي رغبة في الفضفضة.

جلست بعدها أنظر إلى شاشة الكمبيوتر بشرود حزين متأثرا للغاية كوني آخر من لجأت إليه (علياء) قبل موتها دون أن أتمكن من مساعدتها.. أشعر بغصة في حلقي حين أتذكر أن هناك حالات لم أتمكن من مساعدتها مع الأسف.. أو اكتشفت الحل المناسب لها في وقت متأخر.. لا أعلم إن كان يجب أن ألوم نفسي.. حقيقة لا أعلم.. إنه ذلك القاضي اللعين المتمثل في ضميري.. فهو ضمير صارم لا يرحم يؤلمني أحيانا وكأنه كيان حقيقي!!!.

لكن.. لو تحدثنا بشيء من المنطق بعيدا عن العاطفة.. ربما من الأفضل أن تكون نهاية (علياء) بهذه الصورة بالفعل.. فأنا لن أعلم أبدا كيف ستنتهي بها الأمور بعد سنة أو سنتين لو ظلت على قيد الحياة.. حقا أن الذكريات مثل الدب الصغير الذي كانت تمتلكه (علياء) رحمها الله.. أحيانا عليك أن تنساها.. وأحيانا عليك أن تتمسك بها بقوة حتى تستطيع أن تواجه العالم وتعيش حياتك.. لكن هذا لا يفلح دوما.. خاصة حين ترى العالم أحيانا عبر ذاكرة غيرك.. تماما كما حدث لـ(علياء) التي شاهدت العالم من خلال ذاكرة توأمها الطفيلي في أوقات متفرقة ولسبب غير مفهوم.. فرأت أشياء لم يرها أحد غيرها!!!.

حالة نادرة جدا!!!

تحكيها: شذى

العمر 14 عاماً

(الملف الأسود).. مهلا.. هذا ليس عنوان فيلم.. بل هو اسم الملف الذي أنشأته في جهاز الكمبيوتر الخاص بي.. إذ يحوي معلومات عن المرضى الذين لم أتمكن من مساعدتهم.. ولحسن الحظ عددهم ليس كبيرا.. لكنها تبقى نقطة سوداء في حياتي لا أستطيع نسيانها.. فلا يمكن أن أنسى عجزي عن مساعدة من ظن يوما أنني أمله الأخير.

يقول أحد زملائي إنني أقسو على نفسي كثيرا.. فهناك من الأطباء الباطنيين من يرتكبون أخطاء شنيعة رغم وجود كل أدوات القياس لديهم.. على عكس الطب النفسي الذي لا يحوي أي أدوات يقيس من خلالها حالة المريض النفسية من اكتئاب وقلق ووساوس و.. إلخ.. إذ كل ما يستطيع الطبيب النفسي فعله لا يتجاوز الاستماع إلى ما يقوله المريض محاولا فهم مشكلته ومن ثم علاجها بواسطة الجلسات وأحيانا الأدوية.. وهذا ليس بكافٍ.. لأن المريض نفسه قد لا يخبرك بكل تفاصيل حياته ظنا منه أن هناك نقاطاً لن تهمك رغم أنها قد تكون منبع مشكلته النفسية والمفتاح الرئيسي لحلها.. دعكم من القصص والقضايا الغريبة التي تمر علي بين الحين والآخر والتي تكون أقرب إلى لغز بوليسي يتطلب محقق بالغ الذكاء لكشف اللثام عن تفاصيله.

كانت تلك الخواطر تدور في ذهني وأنا أتصفح هذا الملف بعينين ضيقتين كناية عن التركيز الشديد.. الهدوء المعتاد يعم كل أرجاء المستشفى في نوبتي المسائية حتى تنسى نفسك أحيانا وتظن أنك في البيت.. قبل أن أسمع طرقات خفيفة على باب غرفتي.. نظرت إلى الساعة من خلال جهاز الكمبيوتر فوجدتها تتجاوز الثانية فجرا بقليل.. إنها واحدة من تلك الزيارات إذاً!!!.. سأسمع قصة غير مألوفة كما يحدث دوما.. فالناس غالبا لا تأتي في هذا الوقت المتأخر بسبب مشاكل نفسية عادية.

نقرت فأرة الكمبيوتر لأغلق (الملف الأسود) ثم اعتدلت في جلستي سريعا وأنا أتنحنح وأطلب من الزائر الدخول بترقب واضح كعادتي.. لأفاجأ بأن الزائر ليس سوى فتاة صغيرة لا يتجاوز عمرها الـ 14 عاما في أفضل الأحوال!!!.. كيف تجرؤ فتاة بهذه السن على الخروج وحدها في مثل هذا الوقت لزيارة مستشفى الطب النفسي؟!!.. أم أن أحد والديها ينتظر في الخارج ربما؟!.. تجاهلت تلك النقطة وأنا أطلب منها بابتسامة أبوية أن تدخل وتجلس على الكرسي المقابل لمكتبي كما هي العادة.. ثم رحت أنظر إليها وهي تسير ناحية الكرسي بامتنان يشوبه بعض التردد المعتاد لكل من يدخل غرفة الطبيب النفسي.

كانت ترتدي بنطالاً رمادي اللون من ماركة رياضية شهيرة.. مع فانلة صفراء.. أما شعرها فطويل نسبيا انسدل على رأسها بإهمال.. جلست وهي تترقب وتنتظر أن أبدأ أنا بالحديث كما يبدو.. هل هي أصغر فتاة تزورني وحدها؟!.. لا.. المرة الأولى كانت من فتاة أصغر سنا واكتشفت أنها تحمل سرا مرعبا إن كنتم قرأتم الجزء الأول من مذكراتي*.. لكن هذا لا يهم الآن.. فلدينا قصة مختلفة هنا كما يبدو.

سألتها بود شديد:

- هل جئت إلى هنا وحدك يا عزيزتي؟!.

أومأت برأسها إيجابا.. ثم أجابت بهدوء متوتر:

- نعم.. لقد هربت من البيت وجئت إلى هنا وحدي.. آمل ألا يكشف أبي غيابي.. ستكون كارثة حينها.. أرجوك يا دكتور لا تبلغ عني!!!.

ابتسمت وأنا أقول مراعيا سنها الصغيرة:

- لماذا أبلغ عنك؟!.. أنت في مستشفى ولست في مكان يثير الشبهات.. من المؤكد أنك لم تأتِ إلى هنا في هذا الوقت

---

* راجع قصة (هاربة) في الجزء الأول من (حالات نادرة) إلا أنها غير مرتبطة إطلاقا بقصتنا هذه.

إلا لأنك تواجهين مشكلة خطيرة لا تحتمل الانتظار.. أليس كذلك؟!.

زفرت أنفاسها بقلق.. ثم سألتني:

- دكتور.. لقد اكتشفت أمرا خطيرا.. لكني لا أستطيع إبلاغ والديّ.. لا أظن أنهما سيصدقانني.. ثم إن إبلاغهما سيسبب لي متاعب كثيرة.. فهل ستصدقني أنت وتساعدني دون علمهما بالأمر؟!!.. أريدك أن تبلغ الشرطة.. أرجوك.

قلت محاولا كسب ثقتها:

- يجب أن أعرف المشكلة أولا يا ((ابنتي)).. ولو عجزت عن المساعدة فسأخبرك بذلك مباشرة كي لا أخدعك.. لكني عموما سأبذل قصارى جهدي وسأتصل بالشرطة لو تطلب الأمر ذلك.. وبكل تأكيد لن أبلغ والديك.. فأنا لا أعرفهما أصلا.. أخبريني بكل شيء عنك.. اسمك.. عمرك.. حياتك الأسرية.. السبب الذي جئت من أجله.. واتركي الحكم لي.

هذه من المرات النادرة جدا التي أستخدم فيها كلمة ((ابنتي)) حين أخاطب فتاة بهذا العمر.. شعور غريب.. خاصة إذا جاءت الكلمة من شاب أعزب.. لكن يبدو أن لها تأثيرا إيجابيا.. إذ

أومأت برأسها بارتياح وهي تقول:

- اسمي (شذى).. عمري 14 سنة.. أعيش مع أمي وأبي وشقيقتي الكبرى.. نسكن في شقة صغيرة في منطقة (الزهراء).. وفي أحد البيوت التي قام أصحابها بتحويلها إلى مجموعة من الشقق ومن ثم تأجيرها للناس.. لقد انتقلنا إلى شقتنا تلك بعد أن كبرت أسرتنا قليلا واضطر أبي للخروج من بيت جدي الذي ضاق علينا.. خطوة ضرورية لكن تنفيذها تأخر كثيرا لاعتبارات مادية.

كما توقعت تماما.. عمرها لا يتجاوز الـ 14 عاما.. هل هي الخبرة؟!.. لا أعلم.. أشرت إليها أن تكمل.. و:

- دكتور.. أنا أحب الغموض كثيرا.. ربما أحبه لأنني لا أفهمه!!!.. لهذا تجدني أعشق قصص الرعب والقصص البوليسية.. بل وأجزم لك أنني شاهدت كل أفلام الرعب تقريبا من خلال جهاز الكمبيوتر.. فلدي هوَس غير عادي بها.. جميع أفراد أسرتي يدركون ذلك ويحاولون منعي بين الحين والآخر.. وأحيانا ينصحونني ويقولون إن هذه القصص والأفلام سيكون لها مردود سلبي على حالتي النفسية في المستقبل.. لكني لا أكترث.. خاصة حين أعيش جو تلك القصص على أرض الواقع.. فتجدني أراقب

الشارع بصورة شبه يومية بالمنظار الذي أستخدمه ليلا بعد أن أطفئ أنوار غرفتي.. إذ دائما ما أتخيل نفسي من هؤلاء المراهقين الذين نراهم في الأفلام حين يكتشفون وجود جريمة في حيّهم السكني.. ليأتي بعدها رجال الشرطة ويقبضون على المجرم ثم يكافئونهم على ذكائهم ودقة ملاحظتهم.. أعترف أنني وضعت أبي أكثر من مرة في مواقف محرجة.. آخرها ما حدث منذ حوالي عامين حين كنا نسكن في بيت جدي.. عندما رأيت جارنا وهو يدخل بيته حاملا حقيبة كبيرة الحجم نسبيا في وقت متأخر من الليل.. إذ قمت بالاتصال بالشرطة مباشرة دون علم أبي وأخبرتهم أن جارنا سرق مبلغا ضخما من المال.. لا يمكن أن تتخيل حجم الفوضى التي تسببت بها حينها.. كان كل ما في الأمر أن الرجل قد عاد من السفر للتو وقد رأيته حاملا حقيبته بعد قدومه من المطار.. ستقول أن هذا أمر بديهي.. لكنه ليس كذلك بالنسبة لفتاة لا يتجاوز عمرها الـ 12 عاما آنذاك.. بالطبع كان موقف والدي سيئا للغاية.. وقد اعتذر لجارنا كثيرا.. بل وجاء بي لأعتذر له بنفسي.. ثم عاقبني بأن أخذ مني هاتفي النقال ومنعني من استخدام الكمبيوتر لمدة شهر تقريبا كاد أن يجن جنوني خلاله.

قلت متفهما:

- لقد عشت تلك المرحلة من حياتي حين كنت أبحث عن المغامرة.. والأمر لا يقتصر على الأولاد.. هناك من الفتيات أيضا -كحالتك- من يحلمن أن يعشن حياة كهذه.. لا توجد مشكلة في ذلك بوجهة نظري.. فكل فتاة في مثل سنك قد تعيش هوسا ما غالبا ما تنساه إذا تجاوزت مرحلة المراهقة.. ولكن يجب أن تتصرفي بعقلانية بنفس الوقت كي لا توقعي نفسك ووالديك في مشاكل يعلم الله كيف ستنتهي.. إنك تعاملين الناس وكأنهم متهمون حتى تثبت براءتهم على عكس ما يقوله القانون.. اقرئي ما شئت من الكتب والقصص وشاهدي ما شئت من الأفلام.. لكن.. يجب أن يكون الأمر تحت رقابة والديك.. فليست كل أفلام الرعب مناسبة لك.. هذا قد يؤدي يوما إلى حدوث خلل في أجهزة الجسم أو إلى الإغماء.. وأحيانا الجنون.. و....

لم أكمل كلامي.. بل خرست فجأة وأنا أتذكر أن الفتاة صغيرة في السن ولا يجوز التحدث معها كما أتحدث مع الكبار.. لكن يبدو أنها سمعت هذا الكلام من قبل.. ربما من أفراد أسرتها.. إذ لم تكترث كثيرا بما قلته لها.. بل ردت بالمقابل:

- دكتور.. أنا لم أخرج من البيت دون علم أبي في هذه الساعة بسبب مشكلة عشقي لقصص الغموض والرعب.. بل لأخبرك بالمغامرة المذهلة التي عشتها مؤخرا.. لأنني على يقين أن أحدا لن يصدقني كما قلت لك.

ابتسمت وأنا أقول:

- عموما.. أجدها شجاعة وجرأة تحسدين عليها بالفعل.. لم أعرف الكثير من الفتيات بمثل عمرك ويمتلكن هذه الجرأة في الخروج ليلا لزيارة مستشفى الطب النفسي دون علم أهاليهن.. أكملي.. كلي آذان مصغية.

لم تبالِ كثيرا بهذا الثناء.. بل قالت بغموض لا يتناسب أبدا مع سنها:

- القصة بدأت منذ حوالي شهرين.. حين فوجئنا بانتقال أسرة صغيرة للشقة المقابلة.. أقول (فوجئنا) لأن الشقة كانت خالية قبلها بيوم واحد فحسب.. ولم نرَ تلك الفوضى التي تصاحب عادة انتقال أي أسرة إلى مسكنها الجديد.. فغالبا ما تكون هناك سيارات نقل.. وعمّال.. ورجل يصرخ بهم أن يحملوا الأثاث بحذر.. لقد أثار الأمر اهتمامي كثيرا.. فانتقال أسرة مع عفشها للشقة المقابلة في ساعة متأخرة من الليل ودون أن تثير أي ضجة لهو

أمر مثير للاهتمام بالفعل.. خاصة بالنسبة لفتاة مثلي تبحث عن الغموض في أي حادثة تعيشها أو تمر على مسامعها.. أتذكر أن أبي أبدى استغرابه من الأمر أيضا أثناء تناولنا الغداء.. يقول إنه فوجئ أثناء عودته من العمل برجل يدخل الشقة المقابلة دون حتى أن يلقي عليه التحية.. وقد بدا له الأمر مريبا إلى حد ما وأثار شكوكه.. فاتصل بالمالك ليطمئن.. لكن الأخير أبلغه أن الشقة قد تم تأجيرها فعليا لأسرة صغيرة.. رجل وزوجته وولد بمثل عمري تقريبا.. وقد لاحظ أبي شرودي أثناء حديثه هذا.. لكني أخبرته أن الأمر متعلق بالمدرسة وبكثرة الفروض المنزلية.. فأنا أهتم بدراستي كثيرا.. لست متفوقة لكن تقاريري الدراسية لا بأس بها.. المهم أنني لم أخبره بالسبب الحقيقي وهو أن تلك القصة قد أثارت فضولي كثيراً.. لأنني لم أكن بمزاج رائق لأسمع نصائحه وتوبيخه.. فالكبار عموما لا يرون الغرابة في شيء.. ربما لأن خيالهم مات!!.. كان هذا واضحا حين اكتفى أبي بهز كتفيه مستغربا ومن ثم عاد ليتناول طعامه.. كما أنني لم أعر شقيقتي الكبرى اهتماما أيضا حين علقت ساخرة أن الأمر يتعلق ربما بقصص الرعب التي تملأ غرفتي.. لذا أنهيت غدائي سريعا وذهبت إلى غرفتي حيث قررت أن

تكون الشقة المقابلة هي شغلي الشاغل في وقت فراغي.. نعم.. لقد قررت مراقبة جيراننا الجدد!!!.

كنت أستمع إليها باهتمام شديد وهي تكمل:

- كل ما كنت أستطيع فعله هو مراقبة مدخل البيت الرئيسي من شباك غرفتي لمعرفة مواعيد دخولهم وخروجهم.. ولو كان ولدهم في المدرسة -كما هو متوقّع- فربما سيذهب إليها ويعود في نفس وقت عودتي أنا وشقيقتي.. لذا فالفرصة كبيرة في مصادفته هو على الأقل أثناء الدخول والخروج ومن ثم الاحتكاك به ومعرفة إن كان لهذه الأسرة أي أسرار مريبة.. هكذا ظللت أردد بيني وبين نفسي إلى أن اطمأننت تماما لخطتي البسيطة هذه.. فتناسيت الأمر بعدها واتجهت لحل فروضي المنزلية.

تنهدت قليلا.. ثم قالت:

- الغريب أنه لم يحدث أي شيء مما خططت له يا دكتور!!!.. فطوال الأيام التالية لم نلتق بأفراد تلك الأسرة أبدا.. ألا يذهب ولدهم إلى المدرسة؟!!.. ألا يذهب الأبوان إلى العمل؟!.. لقد أثار الأمر اهتمام أمي أيضا.. بل وطرحت هذا السؤال يوما على أبي أثناء جلوسنا حول شاشة التلفزيون.. لكنه أجاب دون اكتراث أن

هذا شأنهم وحدهم وإن اتفق معها أن الأمر يثير التساؤلات بالفعل.. كانت ملاحظة أمي تلك كفيلة بالانتقال للخطوة التالية من خطتي.. مراقبة شقة جيراننا نفسها وليس فقط مدخل البيت.. ولكن كيف سأفعل ذلك؟!.. في البداية وجدت أن أفضل الحلول هو من خلال التكنولوجيا.. إذ طرأت في ذهني فكرة استخدام أحد تطبيقات الـ(آي فون).. هل تعرف برنامج (Whoshere) الذي يسمح لك بالتواصل مع كل شخص يبعد عنك بمسافة جغرافية قريبة نسبيا منك؟!.. ما هي هذه المسافة الجغرافية تحديدا؟!.. لا أعرف.. ربما بضعة كيلومترات أو أكثر.. إلا أن الأمر ليس سهلا بكل تأكيد.. فحتى تتواصل مع شخص من خلال تطبيق كهذا.. يجب أنَ يمتلكه هو أيضا.. دعك من أنك لن تعرف أصلا من يقف خلف شاشة الهاتف النقال.. إذ لن يظهر لك رقم هاتفه ولن تعرف إن كان من تحاوره ولد أم بنت.. كل ما سيظهر هو اسمه المستعار مع بعض المعلومات التي يكتبها عن نفسه في صفحته الجانبية دون أن تعرف إن كانت تلك المعلومات صحيحة أم لا.. لذا.. لا أبالغ لو قلت إن عملية البحث قد التهمت وقت فراغي تماما.. الغريب أن خطتي قد نجحت يا دكتور!!!.

سألتها منبهرا:

- هل تمكنت من التواصل مع أحد أفراد تلك الأسرة؟!!!.

ردت بانتصار:

- نعم!!!.. وقد أدهشني ذلك كثيرا.. لقد ظللت أبحث ولأكثر من شهر عن ولد في السادسة عشرة من العمر تقريبا ويحيط نفسه ببعض الغموض.. كيف سأعرف أنه يحيط نفسه بالغموض؟!.. إنه أمر عسير للغاية ويحتاج إلى قراءة ما بين السطور كما يقال دوما.. في البداية قمت بالخطوة الأسهل وهي استبعاد الفتيات.. ثم كل رجل يتبين لي أنه كبير في السن.. وكل وغد يستخدم التطبيق لإشباع غريزته.. كما ترى.. كنت كمن يبحث عن إبرة في كومة من القش.. لكني في النهاية وجدت تلك الإبرة يا دكتور!!!.. لقد كنت محظوظة بحق.. فقد وجدت 4 أولاد تصفحت ملفاتهم الشخصية لأدرك أن أحدهم هو ابن جيراننا.. لذا رحت أتواصل معهم واحدا تلو الآخر.. لأحذف اثنين منهم بسرعة بعد أن عرفت أنهما يقطنان في منطقة أخرى قريبة.. ثم وجدت ضالتي أخيرا.. فذلك الفتى -الذي عرفت أن اسمه (بدر)- يخبرني أنه يسكن في منطقة (الزهراء) في شقة انتقل إليها حديثا

مع والديه.. هل هو صادق في كلامه؟!.. لا أعلم.. لكن الأمر يستحق المحاولة بكل تأكيد.. لذا ظللت أتواصل معه بضعة أيام من خلال ذلك التطبيق قبل أن تظهر لي حقيقة مفاجئة لم أنتبه إليها من قبل!!!.

قلت بذكاء:

- لقد أحببته.. أليس كذلك؟!!.

نظرت إلي بذهول شديد وهي تسألني:

- كيف عرفت؟!!!.



رددت ببساطة:

- مهما كان ولعك في الغموض والرعب.. إلا أنك ما زلت في سن يبحث عن الحب ويتوق إليه حتى وإن كان عقلك الواعي لا يدرك ذلك.. ولا يوجد أسهل من الوقوع في حب فتى يعيش في الشقة المقابلة.. إنه حب ولد الجيران الشهير.. أول من تتواصل معه الفتاة وتحتك به مباشرة.. خاصة وأن (بدر) هذا قد بدا لك وكأنه كائن أسطوري بسبب الغموض المحيط به وبعائلته.

قالت وذهولها لم ينتهِ بعد:

يا إلهي.. أنت محق تماما.. لقد أحببته بالفعل!!!.. وكشفت له عن هويتي الحقيقية بعد يومين فقط من تواصلي المستمر معه.. أخبرته أنني ابنة الجيران.. وأرسلت له صورتي.. وأرسل لي صورته بالمقابل.. لا أنكر أنه كان وسيما إلى حد ما.. ربما لهذا لم يكن من العسير في هذه الأجواء أن تتحول علاقتنا إلى قصة حب سرعان ما امتدت عبر الهاتف.. ولا أنسى أبدا المرة الأولى التي تحدثنا فيها.. حيث بدا لي متحفظا للغاية ولم يخبرني بالكثير عن حياته.. على عكس ما هو مفترض أن يحدث حين يبدأ الفتى عادة بكسر حاجز الخجل ويتحدث عن نفسه ليمنح الفتاة الثقة كي تبدأ بدورها في الحديث عن نفسها.. لذا فقد قررت مصارحته وطرحت عليه الكثير من الأسئلة عن أسباب هذا الغموض الذي يحيط نفسه به مع أسرته.. وكيف من الممكن ألا نلتقي بهم طوال الأيام الماضية منذ انتقالهم إلى الشقة المجاورة.. فكانت إجاباته واهية لم تقنعني أبدا.. وقد أخبرني أيضا أن والده يعمل طيارا ويسافر أغلب الأوقات بطبيعة الحال.. وهذا ما يجعل حياتهم بصورة عامة غير عادية.. فهو يقيم مع والدته في بيت جده معظم الوقت ولا يلتئم شمل أسرتهم هذه سوى مرات قليلة.. علما بأن والدته طبيبة ولادة تختلف ساعات عملها عن عامة الناس

أيضا وتتواجد في المستشفى باستمرار.. سألته لماذا قاموا باستئجار تلك الشقة أصلا إن كانوا لا يبقون فيها إطلاقا كما هو واضح؟!.. فقال إنه لا بد للأسرة من مسكن خاص بها حتى وإن كان أفرادها يعيشون بهذه الطريقة!!!.

قلت مغمغما:

- ربما يكون محقا في النهاية.. أمور كهذه قد تحدث.. خاصة إذا كانت طبيعة عمل والديه بهذه الصورة.. أسرة يعمل فيها الأب طيارا والأم طبيبة ولادة لا تتوقعي أن تكون كأي أسرة عادية.

هزت رأسها نفيا بإصرار وهي تكمل:

- لا يا دكتور.. أنا لم أقتنع بكلامه إطلاقا.. شيء في صوته كان يخبرني أنه يكذب ويخفي عني أمرا ما.. وهذا ما جعلني أقدم على الخطوة الأهم والأصعب والأخطر.. عندما.. عندما.. قررت اقتحام شقتهم!!!!.

شهقت بقوة لجرأتها دون أن أقول شيئا.. فأكملت بحذر:

- في البداية تجرأت وطلبت لقاءه في شقته.. فبدا لي وكأنه وقع في ورطة!!.. إذ أخبرني متلعثما أنه موجود في بيت جده الآن وسيعود إلى الشقة بعد يومين تزامنا مع عودة

والده من السفر.. وقد اعتذر عموما عن ملاقاتي في شقته لأسباب واهية جدا لم تقنعني أبدا.. لا يخفى عليك يا دكتور أن عرضا كهذا من المفترض أن يثير سعادته.. فأي فتى في العالم يحلم أن تبدي حبيبته رغبتها بزيارته وقضاء بعض الوقت معه أثناء غياب والديه.. وهذا ما أثار شكوكي أكثر.

فعلا هذه الفتاة جريئة.. أتفهّم أن يتصرف المراهقون من الجنسين دون التفكير بالعواقب.. لهذا يخطئون كثيرا.. لكني لم ألتق أبدا بمراهقة تمتلك كل هذه الجرأة.. و.. ظللت أنظر إليها بمزيج من الانبهار والاستغراب بنفس الوقت.. قبل أن تكمل:

- بعد أن رفض لقائي.. لم أجد بدا من اقتحام شقته في الليلة التالية ودون علمه كونه موجودا في بيت جده كما يدعي.. لماذا سأفعلها؟!.. أولا لكشف أكاذيبه.. ومن باب عشقي للغموض ثانيا.. وأيضا من باب الانتقام لأنوثتي كونه يرفض لقائي.. نعم.. سأتسلل من غرفتي ليلا دون علم أفراد أسرتي.. لأخرج من شقتنا وأتجه مباشرة إلى شقة جيراننا غرباء الأطوار هؤلاء.. إنها مغامرة مخيفة.. خاصة عندما أتخيل ما قد يحدث لو كشف أبي الأمر.. لكني حاولت تجاهل مخاوفي ورحت أبحث عن وسيلة مناسبة لفتح باب

شقتهم كوني لا أملك مفتاحها بطبيعة الحال.. إلى أن عثرت في النهاية على الحل!!!.. إن موقع (YouTube) رائع بحق.. فقد عثرت فيه على لقطات توضح كيفية فتح الأقفال باستخدام أدوات بسيطة متاحة في كل بيت.. فدرست الطريقة جيدا ثم أخذت من صندوق أدوات أبي كل ما أحتاجه لفتح باب تلك الشقة.. وانتظرت إلى مساء اليوم التالي.. الليلة الموعودة!!!.

هذه الفتاة الصغيرة لن تكف عن إبهاري كما يبدو.. إنها جريئة إلى درجة لا تصدق!!!.. أتذكر أنني قرأت ذات مرة عن مراهقين في أوروبا لديهم هوس غريب في دخول البيوت المهجورة وقضاء ليلة فيها.. حقا عندما يتعلق قلب المراهق بشيء.. تجده يفني سنوات مراهقته في سبيله.. وهذه الفتاة تفني مراهقتها -وربما مستقبلها- في سبيل مغامرة لن تجني من ورائها سوى إشباع فضولها.

قالت بعدها بهدوء شديد بسبب التوتر الذي سيطر على جو الغرفة:

- في وقت متأخر من ليلة الخميس الماضي وبعد أن أكد لي (بدر) أن شقتهم ستكون خالية حينها لأسباب لم تعد

تخفى علينا.. انتظرت ذهاب جميع أفراد أسرتي إلى النوم.. وظللت في فراشي الذي تحول إلى ساحة قتال وأنا أحترق بنيران الفضول.. أترقب وأنتظر بعض الوقت لأتأكد من استغراق الجميع في النوم كي أقوم بمغامرتي تلك.. آملة أن تكون شقة (بدر) خالية بالفعل.. ستكون مصيبة لو عثرت على أحد في الداخل.. أريد أن أعرف كيف تعيش هذه الأسرة.. كيف انتقلوا إلى الشقة المجاورة بهذا الهدوء المريب؟!.. كيف نقلوا أثاثهم ومتى؟!.. لا أصدق أنهم قاموا بذلك في وقت متأخر أثناء الليل -كما أخبرني (بدر) سابقا- وإلا لسمعت صوتهم.. أو على الأقل صوت إنزال العفش من سيارة النقل.. خاصة وأن شبّاك غرفتي يطل على الشارع مباشرة وعلى بوابة البيت الرئيسية كما ذكرت لك!!!.. لقد طرحت عليه تساؤلاتي تلك لكن إجاباته كانت واهية لم تقنعني.. ثم.. لماذا يتهرب مني بهذه الصورة الغريبة؟!.. لماذا يرفض لقائي في شقته؟!.. شيء في كلامه يجعلني لا أصدقه.. كل هذه التساؤلات نفضَت من ذهني تماما فكرة التراجع عن القيام بمغامرتي تلك.. وجعلتني أنهض من فراشي بعد أن تأكدت من نوم أفراد أسرتي أخيرا.. لأخرج من غرفتي بحذر شديد.. ثم

قفلت بابها من الخارج حتى يظن الجميع أنني نائمة فلا يدخلها أحد ليكتشف عدم وجودي في سريري.. أعترف أن شيئا ما في عقلي الباطن ظل يصرخ بي أن أتراجع وألا أقدم على هذه الخطوة.. لكن قلبي ظل يرفض التراجع ويصر على تنفيذ خطتي.. وهو الذي قادني إلى باب شقتنا الذي فتجته بهدوء لأخرج أخيرا وأغلقه خلفي.. أنظر إلى الدرج بحذر لأتأكد أن لا أحد هناك.. أمشي بعدها بخطوات قلقة ناحية الشقة المقابلة.. ثم.. وضعت أذني على بابها.. أحاول أن أسترق السمع.. لا يوجد أي صوت.. هل الشقة خالية؟!.. آمل ذلك.. فتحت حقيبتي الصغيرة.. وأخرجت منها مفكاً صغيراً مع بعض الأسلاك.. من المفترض أن أكون قادرة على فتح الباب كما وضح لي ذلك الفيديو الذي شاهدته في موقع (YouTube).. أولجت أحد الأسلاك في القفل بطريقة فنية.. ثم رحت أعبث به طوال نصف ساعة تقريبا ببطء وحذر شديدين وأنا أنظر إلى الدّرَج بين الحين والآخر آملة ألا يأتي أحد ويفسد كل شيء.. قبل أن أسمع أخيرا ذلك التناغم الجميل.. تتك.. تتك.. لقد.. لقد فتحت الباب يا دكتور!!!!!.

أعترف أنني شعرت حينها وكأنني في (كويت) ما قبل النفط

حين يجتمع الأبناء حول النار في المساء لتقص عليهم جدتهم حكاية قبل النوم والتي تعادل في زماننا الحالي مشاهدة فيلم في أرقى قاعات السينما.. الفارق هنا أن من تروي القصة هي فتاة في عمر ابنتي لو كنت متزوجا.. و:

- دكتور.. عندما فتح الباب.. كان خيالي قد صور لي أنني سأجد كنزا في الشقة.. أو قفصاً كبيراً يحوي وحشا خرافيا يتم تخديره باستمرار كي لا يصدر أي ضجة.. لكن في واقع الأمر كانت صالة الشقة خالية تقريبا من الأثاث.. لم يكن هناك سوى منضدة وُضع عليها جهاز تلفزيون صغير الحجم نسبيا مع صندوق استقبال القنوات الصغير.. يبدو أن من يقيم هنا قد جاء بصورة مؤقتة.. أغلقت الباب خلفي.. ثم أخرجت هاتفي النقال من حقيبتي الصغيرة لأستدل بالضوء المنبعث من شاشته.. وأبدأ بعدها باستكشاف الشقة بتوتر شديد سيطر على أعصابي.. كانت شقتهم شبيهة إلى حد ما بشقتنا من حيث التصميم لكنها بدت أصغر حجما.. وكان المطبخ أول ما لفت انتباهي كونه قريبا من الباب الرئيسي.. لكني لم أجد فيه شيئا يستحق الذكر.. مجرد ثلاجة متوسطة الحجم مع موقد الغاز ودولاب صغير للصحون.. خرجت

من المطبخ وذهبت إلى الممر المؤدي للغرف لأكتشف أن الشقة تحوي غرفتين فقط.. وليست كشقتنا التي تحوي 3 غرف.. اقتربت من الغرفة الأولى لأجد بابها مواربا.. فوجهت ضوء هاتفي ببطء شديد عبر الباب ليخفق قلبي بقوة!!!.. إذ لمحت أحدهم نائما على الأرض متدثرا باللحاف بالكامل وبجانبه بعض الكتب والمجلات المرمية بإهمال.. من هو هذا النائم يا ترى؟!.. يبدو أن (بدر) كذب علي حين أخبرني أنه لن يكون موجودا في الشقة اليوم!!!.. لكن.. لماذا يرتعش بهذه الصورة الغريبة؟!.. ولماذا يصدر عنه صوت الحشرجة المخيف هذا؟!.. يا إلهي.. أي لغز يحيط بهذه الأسرة؟!!!.

كان توتري قد بلغ مبلغه وكأنني أنا من عاش تلك الأحداث.. حتى أن صوتي خرج مرتجفا دون قصد وأنا أقول:

- إنك تمتلكين أعصابا من الفولاذ يا (شذى).. أنت شجاعة لدرجة تثير الحسد بالفعل.. أنت.. أنت حالة نادرة جدا!!!.. عموما أعتقد أنك اكتشفت شيئا مذهلا في هذه الشقة.. فلجأت إلى طبيب نفسي كونه ثاني شخص يلجأ له الناس عادة بعد الشرطة.. فإما أن تكون هناك جريمة.. أو قصة غريبة تجعل الإنسان يشك حتى في قواه العقلية.

أطرقت برأسها أرضا وهي تبتسم أمام هذا الإطراء.. تماما كما نستمتع أيما استمتاع حين يمتدحنا أحدهم لكننا نبين له أن ما نشعر به هو الخجل فحسب.. أشرت إليها بعد ذلك أن تكمل.. فقالت:

- لقد شعرت أنني وسط أجواء شيطانية.. وظللت أخاطب نفسي بصوت العقل بأنني لن أتمكن من دخول هذه الشقة مرة أخرى لو تراجعت الآن.. لذا يجب الاستمرار مهما كلف الأمر.. فأخذت نفسا عميقا مكبوتا وبذلت جهدا خارقا للتغلب على مخاوفي.. لأتجه بعدها إلى الغرفة الثانية التي وجدتها خالية تماما!!!.. كل شيء يوحي بوجود سر يحيط بتلك الأسرة.. لكن ما هو؟!.. ذهبت إلى الصالة وأنا أنظر حولي.. وأفكر.. وأفكر.. ما زلت أجهل من يتدثر تحت اللحاف ويهتز جسده بهذه الصورة الغريبة.. وما زلت أجهل ما يوجد في.. في.. قطعت سيل أفكاري بنفسي وأنا أتجه ناحية المطبخ مرة أخرى لأمسك بمقبض باب الثلاجة.. فتحت بابها بهدوء شديد ليشع نورها في كل أنحاء المطبخ.. و.. كان هذا كافيا ليشل تفكيري وجسدي تماما!!!.. إذ وقفت مصدومة أحدق

بمحتويات الثلاجة وقد خلا وجهي تماما من الدماء.

سكتت وقد انتفض جسدها فجأة اشمئزازا.. لتكمل وهي تشهق:

- دكتور.. لقد كانت الثلاجة تحوي أوصالاً بشرية بكامل لحمها!!!.. ذراعاً.. وساقاً.. و.. رأساً تستطيع أن تميز إلى حد كبير ملامح صاحبه الشاحبة وهو ينظر إليك بنظرة الموت!!!.

هل شعرت بالتقزز بعد كلامها هذا؟!.. لا.. لم يكن تقززا.. بل الخوف.. أنا أخشى الصراصير كثيرا.. يقولون لي دوما إنها لن تؤذيني وأن ما أشعر به في واقع الأمر هو التقزز وليس الخوف.. وأنا أصر وأقول إنني أخشاها أيضا وخشيتي منها تفوق تقززي.. تماما كهذه القصة التي أثارت مخاوفي أكثر من تقززي بمراحل.. مهلا.. هل ساقي اليسرى ترتجف؟!.. نعم.. إنها ترتجف بسبب ما سمعته.. أطرقت برأسي وأغمضت عيني حتى أمتص الصدمة.. ثم رفعت رأسي مرة أخرى وأنا أحدق بـ (شذى).. لتكمل هي بانفعال:

- جميع تلك الأوصال كانت ملفوفة بأكياس بلاستيكية

شفافة وضعت بعناية وبطريقة مرتبة في الثلاجة.. لم أكن بحاجة إلى ذكاء لتخمين أن هذه الأسرة من أكلة لحوم البشر .. هذا هو الجواب السحري الذي يفسر كل شيء!!!.. الغموض.. التصرفات الغريبة.. العزلة التامة.. لاحظ أنني أتحدث عن أكلة لحوم البشر في منطقة (الزهراء) في (الكويت)!!!.. وليس عند القبائل الأفريقية البدائية.. دكتور.. كانت هذه المرة الأولى في حياتي التي أفقد فيها رباطة جأشي.. إذ تراجعت إلى الخلف بقوة.. وتعثرت لتصطدم يدي بشيء ما.. إنه طبق كان موضوعا على حافة المنضدة التي تتوسط المطبخ.. نعم.. لقد سقط الطبق.. سقط وانكسر محدثا صوتا يفوق صوت القنبلة النووية قياسا للسكون الذي كان يسيطر على المكان قبل لحظات!!!.. من المستحيل ألا يستيقظ ذلك الشخص النائم بعد هذا الصوت المدوي.. مستحيل.. نظرت إلى الطبق المكسور وأنا لم أمتص الصدمة بعد.. ويبدو أن امتصاصي للصدمة قد تأخر بعض الشيء.. فقبل أن أقرر الهرب.. شعرت بشيء مريب يدور حولي.. التفت بذعر.. لأجد أن النائم قد استيقظ بالفعل ويقف عند عتبة باب المطبخ وهو يحدق ناحيتي ببغض!!!.

سألتها بلهفة:

- من الذي استيقظ؟!!!.. هل رأيت وجهه؟!!.

قالت مباشرة:

- كان هو.. (بدر) نفسه.. عرفته مباشرة من الصور التي أرسلها لي عبر الهاتف.. ولد متوسط القامة.. وسيم نسبيا رغم أنه بدا شاحب الملامح إلى حد غريب على عكس ما رأيته في الصور.. الغريب أنه كان يرتعش بشكل واضح.. وكأنه شيخ في التسعين!!!.

غمغمت برهبة:

- هل تريدين أن تقولي أن هذا الولد يأكل لحوم البشر؟!!..

ردت بصرامة لا تتناسب أبدا مع صغر سنها:

- نعم يا دكتور.. هذا ما اعترف به بنفسه!!!.

يا إلهـي.. سمـعـت وقرأت كثيرا عن الثقافـات البدائية التـي

تسمح بأكل لحوم البشر*.. كما قرأت أيضاً عن أكلة لحوم البشر ممن يعيشون في المجتمعات المتحضرة.. لكني لم أظن يوما أنني سأعثر على أحدهم هنا في (الكويت).

---

* تعتبر عادة أكل لحوم البشر ظاهرة قديمة جدا تمتد إلى جذور التاريخ الإنساني.. حيث وجد علماء الآثار عظاما بشرية في أوعية طهي عمرها نصف مليون عام في (الصين).. وقد مورست هذه العادة البغيضة كإحدى الطقوس الدينية أو أثناء المجاعات.. أو حتى من قبل بعض القبائل البدائية التي انتشر فيها الاعتقاد أن أكل لحوم الموتى ينقل لهم قدراتهم.. كما مورست هذه العادة أيضا أثناء الحروب كنوع من محاولة الإيذاء الشديد للعدو رغم موته في كل الأحوال.. علما بأن تاريخ الحرب العالمية الثانية كان زاخرا بأكل لحوم البشر.. إذ قام بعض الجنود اليابانيين بقتل زملائهم وأكلهم من شدة الجوع بعد أن حاصرهم الجيش الأمريكي مما أدى لانقطاع المؤونة عنهم.. وفي عام 1943 قامت القوات السوفييتية بنقل ما يقارب 100 ألف من الأسرى الألمان إلى المعتقلات في (سيبيريا) حيث حدثت هناك مجاعة مع مرور الأيام بسبب صعوبة وصول المؤن.. فقام الجنود السوفييت بأكل عدد كبير من هؤلاء الأسرى!!!!.. ولا ننسى واحدة من أشهر حالات أكل لحوم البشر في الحرب العالمية الثانية والتي قام بها مجموعة من الجنود اليابانيين حين قتلوا وأكلوا أفراد من سلاح الجو الأمريكي.. وقد تم التحقيق في هذه القضية عام 1947 في محاكمة جرائم الحرب.. حيث ثبتت إدانة بعض هؤلاء الجنود بالفعل وتم إعدامهم شنقا.. وجدير بالذكر أن هناك عدداً من السفاحين والمجرمين في زماننا الحالي الذين يعيشون حياة متحضرة في المدن الحديثة وعرفوا بميلهم لأكل لحوم البشر.. منهم (آرمين مايفيس) فني الكمبيوتر الألماني الذي أعترف بقتل وأكل رجل في بدايات عام 2001.. وهناك أيضا (ألبرت فيش) الذي قتل وأكل عددا من الأطفال خلال العشرينيات من القرن الماضي.. وقد ذكر أنه كان يشعر بلذة جنسية هائلة نتيجة ذلك!!!.. ولا ننسى أيضا السفاح الروسي (أندريه تشيكاتيلو) الذي قتل 53 شخصا على الأقل بين عامي 1978 و1990 والتهم جثث بعضهم.. وللعلم فقط فإن أكل لحوم البشر لا يعتبر جريمة في الكثير من الدول.. لأن خيال المشرّعين لم يصل إلى درجة توقع جريمة كهذه.. والمرات التي حوكم فيها أكلة لحوم البشر كانت بسبب جرائم القتل التي ارتكبوها.. وربما أشهر قصة لأكلة لحوم البشر على الإطلاق هي ما حدث عام 1972 حين سقطت طائرة تقل فريقا رياضيا من (الأوروجواي) في جبال (الأنديز).. حيث اضطر الناجون مع مرور الأيام وبسبب الجوع الشديد أن يلتهموا من مات من زملائهم.. إلى أن تم إنقاذهم بعد أكثر من شهرين.

مهلا.. تذكرت أمرا هاما.. قلت لـ(شذى) وأنا أفكر بعمق:

- لحوم بشر في الثلاجة.. ولد يرتعش بصورة ملحوظة.. أعتقد أن (بدر) هذا مصاب بداء (الكورو).

حدقت بي بذهول شديد وهي تسألني:

- كيف عرفت؟!!.

قلت بحزم:

- أنا في النهاية طبيب ولست بائع بطاطس.. (الكورو) هو مرض نادر ينتقل عن طريق أكل لحوم البشر.. وهو يصيب الجهاز العصبي ويسبب الرعاش الشديد في حركة المصاب*.. مهلاً

---

* كل ما قاله الدكتور صحيح تماما .. علما بأن (الكورو) مرض غير قابل للشفاء وأولى علامات الإصابة به هي انخراط المريض بنوبات مفاجئة من الضحك الهستيري دون سبب.. ثم الرعاش القوي الذي يصيب جسده.. لتبدأ بعدها بعدة شهور آلام شديدة في المفاصل مع فقدان القدرة على النطق السليم.. وقد يكون هناك أيضا خلل واضح في تناسق حركة المريض تؤدي به إلى الشلل التام لينتهي الأمر بوفاته بعد حوالي سنة.. حيث تظهر في دماغه فجوات واضحة بعد تشريح جثته.. وقد اكتشف المرض أول مرة عام 1957 عند زيارة المسؤولين الأستراليين لقبيلة (فور) في المرتفعات الشرقية بدولة (بابوا غينيا الجديدة) التي تقع بالقرب من قارة (استراليا).. علما بأن الطبيب الأمريكي الشهير (دانييل جودسيك) (Daniel Gajdusek) قد قام في منتصف القرن العشرين بدراسة المرض ولاحظ أنه ينتشر بكثرة في تلك الدولة تحديدا واكتشف أن سببه هو أكل لحوم البشر.. فأدى اكتشافه هذا إلى وقف ممارسة تلك العادة البغيضة.. الأمر الذي تسبب تلقائيا باختفاء المرض تماما عام 1976 لينال (دانييل جودسيك) جائزة نوبل للعلوم.. وكلمة (كورو) (Kuru) هي كلمة أطلقها قبائل تلك الدولة على هذا المرض.. وتعني بلغتهم (الرعشة).

هناك أمر آخر خطير لا يمكن تجاهله.. أنا لا أعرف إن كان القانون عندنا يجرم أكل لحوم البشر.. لكن وجود لحوم بشرية قد يعني بالتبعية وجود جريمة قتل!!!.

ردت بسرعة:

- لا يا دكتور.. لقد أقسم لي (بدر) أن أصحابها كانوا موتى أصلا.. فوالداه ينتقيان له الجثث حديثة الوفاة ويبحثان عن موتى من جنسيات أجنبية لا يكون لهم عادة أقارب في (الكويت).. إذ يتواصلان مع أقارب الميت في الخارج ويدفعان لهم مبلغا من المال حتى يتنازلوا عن جثته!!!.

عزيزي القارئ.. لا شك إنك تشعر أن في القصة مبالغة شديدة.. أليس كذلك؟!.. أتفق معك تماما.. إذ لا يمكن أن أبتلع فكرة أن هناك أبوين يشتريان الجثث لابنهما ليأكلها؟؟!.. طبعا لن أستبعد احتمال أن تكون الفتاة كاذبة وتختلق قصة كهذه لغرض لا أعرفه.. لذا سألتها دون أن تظهر علامات الشك على ملامحي:

- هناك تساؤلات عديدة تحتاج إلى إجابات.. فكيف وصل بـ (بدر) الحال ليأكل لحوم البشر؟!!.. ولماذا يشتري له والداه تلك الجثث؟!!.. وأين كانا أصلا حين دخلت شقته؟!!.

قالت باهتمام:

- سأخبرك بكل ما أعرفه.. كنت أقول إنني فوجئت بـ(بدر) واقفا عند عتبة باب المطبخ وهو يرتعش بصورة ملحوظة.. أما أنا فكنت أقف أمامه وأرتعش أيضا من هول ما رأيت.. وكأن هناك زلزالا خفيفا يضرب المكان!!!.. ثم سألني بحدة واضحة وصوت متحشرج يختلف تماما عن صوته عبر الهاتف: ((ماذا تفعلين هنا أيتها الحمقاء؟!!.. كيف تجرؤين على دخول بيوت الناس بهذه الطريقة؟!!)).. قلت مدافعة عن نفسي: ((كنت ترفض أن تراني أو تقابلني.. فقتلني الفضول لاقتحام حياتك)).. رد بغضب: ((كان كل ما أريده هو التواصل الإلكتروني أو الهاتفي فقط.. لم أكن أطمع بأكثر من ذلك))!!!.. شعرت بإهانة بالغة لأنوثتي.. أنا فتاة رغم كل شيء.. فكيف يرفضني بهذه الطريقة الوقحة؟!.. لذا رددت بحدة خافتة وكأنني لا أجرؤ على قتل رهبة المكان: ((كل فتى يحلم أن يلتقي بحبيبته.. وأنت تحصل على فرصة كهذه وترفضها؟!!)).. لكنه لم يعلّق على كلامي هذا.. بل أخبرني أنني إذا ما فكرت في الإبلاغ عنه فإنه سيجد الوقت ليخفي تلك الأعضاء البشرية ويخرجها من الشقة.. لن يكون هناك أي دليل ضده حينها.. بل وألمح لي أنه قادر على الذهاب لشقتنا الآن وإيقاظ والديّ ليسبب لي فضيحة حقيقية

ويضعني في موقف محرج للغاية.. لكنه لم يفعل أي من هذا لحسن الحظ.. فقط طلب مني الخروج وقطع اتصالاتي معه ونسيان كل شيء لمصلحتي على حد قوله.. وظل يكتفي بالقول إن هذه أسرار بيوت لا يحق لي معرفتها!!!.. أدرك جيدا أن للبيوت أسرارها.. لكني لم أعرف يوما عائلة تخفي سرا كهذا.. إلا أنني في النهاية رضخت مقهورة.. وعدت إلى شقتنا والساعة تتجاوز الثالثة فجرا.. الغريب أنني لم أبالِ كثيرا بشأن خروجي المريب واحتمال أن يكشف والدي أمري في أي لحظة.. إذ كانت تلك القصة وهذا الاكتشاف المرعب يشغلان كل تفكيري.

هذه الفتاة تمتلك جرأة لا يمتلكها عدد كبير من الرجال.. لن أمل تكرار ذلك أبدا.. نظرت إليها منتظرا منها أن تكمل.. فأردفت باهتمام:

- أصدقك القول أنني لم أتمكن من نسيان ما حدث رغم خروجي مع أفراد عائلتي في اليوم التالي لأحد المجمعات التجارية ومن ثم عودتنا في المساء.. فحادثة كهذه يستحيل أن تنساها.. دعك من الفضول الشديد الذي سيطر على تفكيري كوني لم أحصل على إجابات لكل أسئلتي.. لذا لم ينتهِ اليوم إلا وقد قررت تكرار مغامرتي الغريبة تلك بعد

أن انهار الحاجز النفسي تماما ولم أعد أخشى شيئا.. فلو لم أفعلها ليلتها.. سأنتظر عطلة نهاية الأسبوع القادمة كوني لا أستطيع السهر في الأيام العادية بسبب المدرسة.. وهذا مستحيل بالطبع.. يجب أن أكشف ما يحدث في تلك الشقة قبل نهاية العطلة الأسبوعية.. نعم.. لقد قررت اقتحام شقة (بدر) للمرة الثانية وفي الليلة التالية مباشرة.. لن أكرر لك السيناريو.. فقد دخلت بنفس الطريقة بعد نوم الجميع.. لكن الفارق أنني هذه المرة عندما دخلت.. سمعت صوت حشرجة شيطانية قوية يقشعر لها البدن!!!.. مع دقات غريبة تنبعث من غرفة (بدر) نفسها!!!.. صدقني ما سمعته كان مخيفا للغاية.. لكني تماسكت بإصرار لم أظن يوما أنني أملكه.. فمشيت ناحية غرفته مدفوعة بقوة الفضول الشديد.. الإضاءة الصغيرة المنبعثة من هاتفي تزيد المكان رعبا.. صوت الحشرجة يرتفع.. لكن.. وجدت باب غرفته مغلقا هذه المرة.. فتحته ببطء شديد لتصطدم بوجهي رائحة غريبة جدا!!!.. إنها رائحة لا تمت لهذا العالم بصلة.. ليست رائحة عفن أو عطن.. بل رائحة تاريخية قديمة إن كان للتاريخ رائحة.. هل هي رائحة لحوم البشر؟!.. لم يجد ذهني الوقت ليجيب على هذه التساؤلات.. إذ تعطلت لدي القدرة على التفكير عندما رأيت (بدر) في الغرفة..

لكن بهيئة أخرى تماما.. فقد برز له نابان واضحان.. وحاجباه أصبحا مشعرين متصلين بطريقة غريبة مما يذكرك بالحاجبين الفارسيين.. مع شعر خفيف غطى وجهه الذي تجعدت ملامحه فجأة!!!.. دعك من الرعشة القوية والحشرجة المخيفة التي تصدر عنه والتي ازدادت حدتها كثيرا عن الليلة السابقة.. هل كنت أتوهم؟!.. لا.. لقد رأيت كل هذا فعليا كما أراك الآن يا دكتور.. رأيت أيضا بقايا العظام البشرية الملقاه بإهمال بالقرب منه.. الغريب أن يده اليسرى كانت مقيدة بمقبض حديدي تم تثبيته في الحائط بقوة.. ولم يفتني أيضا أن أنتبه إلى أظافره الطويلة التي بدت وكأنها مخالب!!!.. هذا الولد تحول إلى ذئب بشري.. بل ورأيته ينهض ويمد يمده بعنف محاولا الإمساك بي.. وكان سينجح بالفعل لولا القيد الذي يحيط بيده.. من الذي قيده؟!!.. هل قيد نفسه بنفسه قبل مرحلة التحول هذه؟!.. لا أعلم.

ساد غرفتي صمت مخيف بعد أن تسمم فيها الجو تماما.. لتكمل (شذى):

- هل تعرف ما هو أكبر خطأ ارتكبته في حياتي يا دكتور؟!.. أنا لم ألتقط لـ(بدر) تسجيل فيديو من هاتفي أو على الأقل صور تؤكد كلامي.. الذهول التام أنساني الإقدام على

تلك الخطوة البديهية لأنني لم أجرؤ قط على تخيل أن شيئا كهذا ممكن.. لذا فقد تراجعت بعنف وأنا أستشعر خطورة الموقف وأن حياتي نفسها قد تكون مهددة.. ثم جريت بذعر لأخرج وأعود أدراجي إلى شقتنا!!!.. عدت ولم أعرف كيف أتصرف.. أبلغ أبي؟!.. الشرطة؟!.. سأكون في مأزق حقيقي حينها.. فلن يسامحني أبي أبدا على خروجي.. ولن يصدق أصلا قصة كهذه.. أما الشرطة فلن تصدقني بدورها بكل تأكيد.. لذا ظللت أفكر طوال أسبوع.. إلى أن قررت زيارة مستشفى الطب النفسي في وقت متأخر أثناء نوم أفراد أسرتي كالعادة.. حيث اتصلت بإحدى شركات سيارات الأجرة لتقلّني إلى هنا.. وها أنا الآن أمامك.. أريدك أن تبلغ الشرطة.. أرجوك.

لا أعرف ما أقوله.. هناك مبالغات كثيرة في القصة كما أشرت سابقا.. لكنها وبنفس الوقت تحوي حبكة دقيقة للغاية من الصعب أن تكون كلها من خيالات (شذى).. المدعو (بدر) أصيب بداء (الكورو) لأنه يأكل لحوم البشر.. لماذا يأكل لحوم البشر أصلا؟!.. لقد عرفت الجواب الآن.. تجعد الجلد.. الهمهمة والحشرجة العنيفة.. الحاجبين اللذين امتلآ بالشعر فجأة.. تقييد نفسه بحلقة حديدية قوية معلقة على الحائط.. كل هذه دلائل واضحة على إصابته بـ (حالة التصور الذئبي)!!!.. نحن نسمع كثيرا عن أسطورة الرجل الذئب.. وهناك عشرات

الأفلام التي تتناولها.. وكل منها يضيف لتلك الأسطورة شيئا ليخدم قصة الفيلم بصورة أو بأخرى.. حتى ماتت الحقيقة وبقي الخيال فقط.. نعم.. فأسطورة الرجل الذئب حقيقية تماما وليس لها أي جانب من الخيال عدا بعض الإضافات التي أضافها مخرجو الأفلام*.. و.. مهلا.. (شذى) تقول إنها رأت (بدر) في هذه الحالة الأسبوع الماضي فحسب.. لو كان ظني صحيحا فإن الصورة ستكتمل تماما.. أخرجت هاتفي النقال ورحت أعبث في الروزنامة.. بالضبط.. هذا يؤكد فكرتي.. الأسبوع

---

* أسطورة (الرجل الذئب) هي من أقدم وأشهر الأساطير في تاريخ البشرية.. إلا أنها تستند إلى أصل حقيقي.. إذ تتحدث المراجع الطبية عن مرض غريب مجهول الأسباب يصيب جسم الإنسان بأعراض غريبة كالمغص والبول الأسود.. وفي حالات نادرة تستطيل الأظافر وتبرز الانياب ويتجعد الجلد وتصبح الحواجب كثيفة والشفاه متشققة والعينان حمراوتان ويتجنب المريض الشمس لأنه لا يتحملها.. باختصار يتحول الى ذئب بشري.. ويعتبر ملك (بريطانيا) (جورج الثالث) أشهر من تعرضوا لهذا المرض في التاريخ.. إذ بدأت أعراض المرض تظهر عليه بعد أن حكم بلاده لمدة ستين عاما.. وبدأ سلوكه يتسم بسمات حيوانية همجية بحتة.. إلى أن توفي عام 1820.. وهناك أيضا الحادثة التي وقعت عام 1598 في (فرنسا) عندما وجد الفلاحون شخصا يدعى (جاك رولي).. وكان شبه عارٍ يملك مخالب طويلة للغاية ملطخة بالدم، كما كان يغطي جسمه شعر طويل كثيف جدا.. وقد تم العثور على جثث بعض ضحاياه من الأطفال بعد أن مزقهم بوحشية والتهم أجزاء كبيرة من أجسادهم.. إلا أن السلطات في (باريس) رأت أن (جاك رولي) غير مسؤول عن تصرفاته بسبب إصابته بهذا المرض الغريب الذي عادة ما يُفقد المريض عقله.. لذا قاموا بإيداعه إلى إحدى المصحات للعلاج.. والواقع أن أكثر التقارير التي تحدثت عن هذا المرض الغريب قد جاءت من القرون الوسطى ومن (فرنسا) بالتحديد دون أن نعرف السبب.. إلا أن المرض قد اندثر تماما في زماننا الحالي ولأسباب مجهولة أيضا.. علما بأن هناك مسميات عديدة أخرى للمرض مثل (بورفيريا).. أو (لايكا أنثروبي).. ولا ننسى أن العالم العربي الشهير (ابن سينا) كتب عنه أيضا وأطلق عليه اسم (داء القطرب).

الماضي كان موعد اكتمال القمر*.. هناك دراسات ترجح أن عدداً كبيراً من البشر تتغير حالتهم النفسية عند اكتمال القمر.. فما بالكم بمريض مصاب بـ (حالة التصور الذئبي)؟!.. يبدو أن (بدر) أصيب بهذا المرض لسبب أجهله.. وقد هجم على شخص ما والتهمه أثناء واحدة من تلك النوبات المخيفة.. فاستحسن لحم البشر ولم يرغب بغيره.. وهذا ما جعله يصاب بمرض (الكورو).. أي إن الفتى ليس أمامه الكثير ليعيش.. فمرض (الكورو) لا علاج له ونتيجته الحتمية هي الموت.. الصورة اتضحت كثيرا الآن.

نقلت كلامي هذا إلى (شذى).. وأعطيتها ورقة وقلما وأنا أطلب منها أن تكتب لي عنوان البيت.. نعم سأزور شقة (بدر) ولكن

---

* هناك دراسات تبين أن الإنسان -ولسبب مجهول- يزداد لديه الميل إلى العنف أثناء اكتمال القمر.. إلا أن تلك الدراسات متضاربة وغير مؤكدة حتى الآن.. ربما لهذا رُبطت أسطورة الرجل الذئب باكتمال القمر.. وعموما فإن ربط الظواهر الطبيعية بسلوك الإنسان قديم جدا وموضع دراسات علمية جادة للغاية.. بعضها ثبت علميا.. تماما كما حدث عام 1993.. حين أصيب الكثيرون من سكان (المكسيك) باضطرابات نفسية شديدة وبصورة مفاجئة.. منها التوتر العصبي والاكتئاب والشرود.. وانتشر الأمر بصورة غير معقولة.. وبعد أن قام العلماء بدراسات جادة مكثفة حول هذا الأمر.. تبين لهم أن السبب يعود إلى زيادة نشاط بركان (المكسيك) الشهير (بوبوكات إبتل).. الأمر الذي أدى إلى حدوث تلك الاضطرابات النفسية في المناطق القريبة من البركان.. وقد ذكر العلماء أن سبب ارتباط نشاط البركان بحالة الإنسان النفسية هو أن البراكين بشكل عام عبارة عن نشاط جيولوجي معقد ينتج عنه الكثير من الغازات والاهتزازات -حتى لو كانت خفيفة لا يشعر بها الإنسان- والكهرباء الاستاتيكية.. وكل هذا لا بد وأن يلعب دورا كبيرا في التأثير على الجهاز العصبي للإنسان والحيوان.

في فترة النهار بالطبع.. إنه حالة مرضية نادرة جدا تستحق الدراسة.. دعكم من أن هناك جريمة حقيقية بإخفاء الجثث في تلك الشقة.. يجب أن تعلم السلطات بما يحدث.. لكن بعد أن أتأكد من الأمر بنفسي.

ثم.. قلت برجاء شديد:

- أرجوك يا (شذى) أن تستمعي إلي جيدا.. إن ما تفعلينه خطير جدا وقد ينهي مستقبلك وربما حياتك نفسها.. إنك تمتلكين أعصاباً من حديد وشجاعة تحسدين عليها بالفعل.. والشجاعة هي المفتاح الذي سيفتح لك كل أبواب النجاح في المستقبل إذا قمت باستغلالها بطريقة صحيحة ودون تهور.. أنت ما زلت صغيرة جدا.. فلا تنهي حياتك قبل أن تبدأ.. اشغلي نفسك بهوايات مفيدة.. حاولي أن تقضي وقتا أطول مع صديقاتك أو أقاربك.. هذا أفضل بكثير.

قالت بعدم اقتناع:

- لا يهم كم صديقا لديك.. المهم هو كم صديق تستطيع الاعتماد عليه.. وأنا مع الأسف لا أملك صديقة أستطيع الاعتماد عليها.

أعجبني كلامها كثيرا رغم سنها الصغيرة.. فأردفت بصدق آملا أن تأخذ بنصيحتي:

- على كل حال.. دعي الأمر لي.. سأزور تلك الشقة وسأعرف ما يجب فعله.. عليك أن تقسمي لي أنك لن تغادري شقتكم مرة أخرى دون علم والدك.

وكأن كلامي لم يعجبها كثيرا.. إذ أومأت برأسها دون أن ترد.. ونهضت من مكانها وهي تلقي علي التحية.. أما أنا فظللت أرمقها بإعجاب شديد.. هذه الفتاة شجاعة إلى درجة التهور.. شجاعة جدا!!.. لا أعتقد أنني سألتقي يوما برجل يملك شجاعتها.

ماذا حدث بعد ذلك؟!.. ذهبت إلى الشقة بعد زيارة (شذى) بيومين تقريبا.. نعم.. تماما كما تتوقعون.. كانت الشقة خالية.. وقد عرفت من أحد السكان أن الشقة معروضة للإيجار بعد أن رحل عنها صاحبها الغامض -كما وصفوه- بشكل مفاجئ!!!.. ولا أخفي عنكم أنني وقفت أمام شقة (شذى) طويلا أفكر أن أطرق بابها.. أن أتأكد على الأقل أنها بالفعل تسكن هنا وأن ما أخبرتني به حقيقي.. لكني تراجعت في اللحظة الأخيرة.. فربما سأسبب لها الكثير من المتاعب لو كان ما قالته لي حقيقي.. وسيكون حينها عقاب والدها قاسيا جدا.. آمل ألا تورط نفسها

في متاعب جديدة في المستقبل وأن تكف عن هذه المغامرات التي قد تودي بمستقبلها.. أو بحياتها نفسها.

هل قصتها حقيقية؟!.. لا أعلم.. هل كانت تتلاعب بي؟!.. لا أعلم.. وإن كنت أجد الأمر عسير التصديق أن تتكبد فتاة في سنها مشقة الهروب من البيت وزيارة مستشفى الطب النفسي في مثل هذا الوقت لتخبرني بقصة وهمية.

عموما تبقى هناك تساؤلات كثيرة لم أجد الإجابة عليها حتى الآن -على اعتبار أن القصة حقيقية- فأين والدا (بدر)؟!.. وكيف أصيب بمرض (حالة التصور الذئبي)؟!.. هل كان والداه يأتيان له بأوصال بشرية في تلك الشقة ليأكلها؟!.. ومن كانت ضحيته الأولى التي جعلته يدمن أكل اللحم البشري أصلا؟!!.. هل يتركه والداه في الشقة مع اقتراب اكتمال القمر من كل شهر؟!.

تبقى هناك أيضا نقطة مهمة جدا.. الشجاعة الغريبة التي تمتلكها (شذى).. لا أدري لماذا تذكرت تلك الدراسات التي أجريت على بعض الجنود الأمريكان العائدين من حرب (فيتنام) والذين أصبحوا يعيشون حالة ذعر دائم وتوتر وقلق لهول ما رأوا هناك من تعذيب وقتل وتمثيل في الجثث.. حيث تبين من تلك الدراسات أن هناك منطقة في الدماغ يطلق عليها اسم (قرن آمون) أو (الحُصين) وهي تلعب دورا حيويا في

الذاكرة وتخزين المعلومات.. وقد قام العلماء بتصوير أدمغة هؤلاء الجنود بواسطة الرنين المغناطيسي.. فتبين أن منطقة (قرن آمون) لديهم قد تغير حجمها وأصبح صغيرا مقارنة مع الشخص العادي الذي لم يعانِ من أي اضطرابات نفسية في حياته.. هذا يعني أن الخوف المتواصل الذي تعرض له هؤلاء الجنود أدى إلى تغيير بنية أدمغتهم وبالتالي حالتهم النفسية*.

بشيء من الخيال.. هل نستطيع القول أن هوس (شذى) لمشاهدة أفلام الرعب قد ساهم بحدوث تغييرات عكسية لما حدث لهؤلاء الجنود بمنطقة (قرن آمون) في دماغها فأصبحت بهذه الشجاعة الغريبة؟!.. كيف أصيب الجنود بالخوف والاكتئاب والقلق بينما ازدادت شجاعة (شذى)؟!.. ربما لأنها تشاهد أفلام الرعب وهي تعلم أنها تجلس آمنة في بيتها على عكس الجنود الذين عاشوا رعب الحروب والدماء والأشلاء واقعا؟!!.. لا أعلم إن كان كلامي هذا صحيح طبيا.. فهذا خارج مجال تخصصي.. إنني أستخدم فقط خيالي وثقافتي في هذا المجال للإجابة على تلك الأسئلة.

على كل حال.. سواء كان استنتاجي صحيحا أم لا.. تبقى (شذى) فتاة شجاعة جدا وتثق بنفسها إلى حد لا يصدق..

---

* معلومة حقيقية.. والاسم العلمي لـ (قرن آمون) هو (hippocampus).

والثقة بالنفس هي إحساس الشخص بقيمة نفسه بين من حوله.. فتترجِم هذه الثقة كل حركة من حركاته وتجعله يتصرف بشكل طبيعي دون قلق أو خوف من تقييم الآخرين لتصرفاته.. عموما.. لو كانت قصة (شذى) حقيقية.. فإنني أجزم أنها فتاة صالحة كونها تكبدت كل هذا العناء لتطلب مني إبلاغ الشرطة ولم تقبل أن تنسى الأمر وكأنه لم يكن.. هل ستكبر لتكون امرأة صالحة؟!.. لا أعلم.. لكني أعلم جيدا أنها تختلف عن كل فتاة قابلتها في حياتي بشجاعتها وجرأتها.. لقد كانت بحق حالة نادرة جدا!!!.

عزف على أوتار الكون!!!

تحكيها: لمار

العمر 18 عاماً

عزيزي القارئ.. قبل أن نبدأ بأحداث هذه القصة.. دعني أطرح عليك تساؤلا هاما.. ما الذي يجعلك تصدق أي قصة تسمعها؟!.. هل ستصدقها إذا كنت تثق في الراوي؟!!.. أم ستصدقها إذ كان عقلك يستوعبها ويراها واقعية وممكنة الحدوث؟!!.. لكن.. هذا سيقودنا إلى سؤال آخر.. من الذي يحدد ما هو ممكن الحدوث وما هو غير الممكن؟!!.. من الذي يحدد الواقع والخيال؟!!.. عقلك؟!.. ومنذ متى كان العقل مقياسا للمصداقية؟!!.. فهناك العديد من الاختراعات والاكتشافات العلمية التي لا يصدقها عقل والتي ظنها العالم حتى زمن قريب محض هراء.. ستقول إن عقلك أفضل المقاييس المتاحة مهما خدعك ومهما كان قاصرا؟!!.. لكن عقلك لن يجيبك على تساؤلات هامة حول واقعك.. فما هي حقيقة ما تعرف؟!.. ما هي حقيقة العالم من حولك؟!!.. ما هي حقيقتك أنت؟!!.. لماذا لا تكون أنت جزءا من عالم آخر أكبر من عالمك؟!.. إنها تساؤلات مهمة قد لا تعني لك شيئا.. لكنها ستعني الكثير في قصتنا هذه.

بدأت أحداث القصة في ساعات الصباح الأولى قبل شروق الشمس بقليل وفي نهاية نوبتي المسائية.. أتحدث هنا عن شروق الشمس مجازا لأن الأمطار تهطل منذ ساعات دون توقف والغيوم تملأ الأجواء تماما مما ساعدني على الاسترخاء

أكثر وأكثر.. كنت أشاهد بعض إعلانات الأفلام الأجنبية على موقع (YouTube) وأستمع إلى صوت الأمطار في الخارج شاعرا بأمان طفولي محبب منتظرا انتهاء ساعات العمل والعودة إلى البيت للنوم.. أمسك بقلمي الزنبركي وأضغطه دون توقف وأنا أنظر إلى شاشة الكمبيوتر.. تك تتك تك تتك تك تتك.. صوت الضغط المستمر على زر القلم.. لو فعلها أحدهم لصرخت به أن يتوقف.. لكن الصوت ليس مزعجا حين يكون صادرا مني ولا أعرف السبب.. بل كان الأمر ممتعا في واقع الأمر.. المشكلة أن إصبعي قد تجمد فجأة.. وسقط القلم من يدي لا شعوريا حين حدث الانفجار!!!.. لا.. ليس انفجارا بالمعنى الحرفي.. لكنه انفجار قياسا بالسكينة التي كنت أعيشها لحظتها.. فقد فُتح الباب فجأة وبقوة لتدخل فتاة في أسوأ حال رأيته في حياتي!!!.. كانت حافية القدمين مبللة بالكامل وكأنها قضت اليوم بأكمله تحت الأمطار الغزيرة التي تهطل في الخارج.. لقد بدت منهارة.. منكسرة.. هشة.. تماما كطائر جريح.. لا أعرف القطرات التي تنزل في كل مكان على وجهها إن كانت بقايا الدموع أم مياه الأمطار.. أم أن الاثنين اختلطا ببعضهما؟!.. أنا لم أرَ في حياتي إنسانا بهذا الذل والانكسار!!!.

كان المنظر مخيفا يشعرك بقسوة هذا العالم!!!.. وكأنك ترى طفلا صغيرا يتعرض للعنف أمامك.. كيف ستشعر حينها؟؟!!..

كيف ستتصرف؟؟!!.. الغريب أنها ما إن دخلت مكتبي حتى انهارت تماما وبدأت تبكي بحرقة وتنتحب وتضع يدها على صدرها وكأنها عاجزة عن التنفس.. إنها.. إنها ترتدي ثيابا خفيفة في هذا البرد القارس!!!.. لماذا؟!.. مهلا.. هل ترتدي بيجامة نوم؟!.. أين كانت تلك المسكينة قبل وصولها إلى هنا؟!!!.

انعقد لساني تماما وشُلّت حركتي بفعل الصدمة.. قبل أن تدب الحياة في جسدي مرة أخرى لأهرع ملتاعا ناحيتها وكأنها حبيبتي التي تركتني منذ سنوات وقد عادت إلي أخيرا.. لم أحتمل أبدا كل هذا الانكسار والضعف.. أمسكت بيدها.. يا إلهي.. إنها متجمدة تماما بفعل البرد.. وربما لو ضغطت عليها بقوة لتهشمت!!!.. هذه الفتاة ستصاب بالحمى.. يجب إسعافها حالا.. ذهبت ناحية الهاتف وطلبت رقم غرفة الممرضات.. ما إن سمعت صوت الممرضة على الطرف الآخر.. حتى صرخت بحدة:

- بطانية وثياب جافة.. بسرعة.. بسرعة.. هناك فتاة في غرفتي بحاجة ماسة إلى ذلك.. لاااااايهم من أيييين.. تصرفيييي بسررررعة.. قلتها وأنا أضع السماعة وسط ذهول الممرضة دون شك كوني لم أتحدث مع أحد في

المستشفى بهذه الطريقة من قبل.

هرعت مرة أخرى ناحية الفتاة.. ثم أمسكت بيديها ورحت أنفخ فيهما محاولا إشعارها ببعض الدفء.. فنظرت إلي بهوان وذل دون أن تنطق.. لأقول لها مطمئنا وقد دمعت عيناي:

- لا عليك يا عزيزتي.. أنت بمأمن الآن ولن يمسك أحد.. لن........

لم أكمل عبارتي.. وكأنها كانت تنتظر أن تسمع كلمات الاطمئنان لتفقد وعيها بين ذراعي من ينقذها!!!.. أصدقكم القول.. لم أحتمل هذا المنظر أبدا.. أنا الشاب الذي أحمل كل هذا التقديس للأنثى.. أنا الشاب الذي لا أحتمل رؤية دمعة في عين فتاة.. كان هذا يفوق احتمالي.

مددت يدي محاولا الوصول لعلبة المحارم الورقية وأخذت منها ما يكفي لمسح دمعتي التي انحدرت لا شعوريا.. ربما يكره بعضنا الإنسان القوي.. لكن من العسير أن نكره الإنسان الضعيف.. خاصة لو كان فتاة!!!.. إنها جميلة.. جميلة جدا.. من النادر أن ألتقي بفتاة ملائكية الملامح إن صح التعبير.. كان هذا ما يدور في ذهني وأنا أنظر إليها فاقدة الوعي بين ذراعيّ وقد تحرك شيء في أعماقي بكل تأكيد.. لو التقط لي أحدهم صورة الآن لأصبحت غلافا رائعا لرواية رومانسية!!!.

تبخرت خواطري تلك مع صوت شهقة قوية.. نظرت ناحية عتبة الباب.. وإذا بممرضتين إحداهما ممسكة بثياب بيضاء وبطانية.. كانتا تنظران للفتاة بعدم فهم.. أمرتهما دون شرح أو توضيح أن تأتيا بسرعة لتخلعا عنها ثيابها المبللة وتستبدلانها بالجافة.. ثم خرجت من الغرفة مباشرة.

ظللت واقفا عند باب مكتبي ملتاعا قلقا.. وكأنني الزوج الذي ينتظر ولادة زوجته كما نشاهد في الأفلام العربية القديمة.. مشكلتي أنني أتعامل مع كل حالة على أنها حياة أو موت.. وهذا ما يجعلني أموت مرات عديدة في حياتي!!!.. الدقائق تمر ببطء شديد.. قبل أن تخرج الممرضتان أخيرا وعيناهما تحملان نظرات استفهام لا حصر لها.. لكني تجاهلتهما تماما لأدخل الغرفة مرة أخرى وألقي نظرة على الفتاة وقد أصبحت ترتدي رداء أبيض بسيط للغاية هو المتاح في المستشفى.. لا تزال فاقدة الوعي على الأرض وقد قامت الممرضتان بوضع بطانية فوقها ووسادة صغيرة تحت رأسها.

لن أتركها ملقاة على الأرض بهذه الطريقة.. طلبت من الممرضتين أن تجلبا السرير النقال لإدخال الفتاة إحدى غرف المستشفى بصورة غير رسمية كوني لم أعثر على أي إثبات شخصي لها.. دقائق قليلة لتحضر 4 ممرضات حملن الفتاة

وهي لا تزال فاقدة الوعي.. ثم قمن بوضعها على السرير وأخذها للغرفة.

اتصلت بعدها بالطبيب الباطني المناوب وطلبت منه ضرورة الحضور وفحص حالة الفتاة الصحية.. وقد تم كل شيء بسرعة لحسن الحظ.. حيث اتضح أن الفتاة تعاني من بدايات الحمى بالفعل.. لكننا تداركنا الموقف لحسن الحظ.. إذ حُقنت ببعض المضادات الحيوية مع مهدئ يجعلها تنام لساعات إضافية.. كما قام بعلاج قدميها الرقيقتين اللتين جرحتا كثيرا مما يوحي أنها كانت تمشي حافية لمسافة طويلة!!!.. هذه المسكينة بحاجة إلى راحة تامة.. فقد كان جسدها يعاني إرهاقا شديدا كما أكد لي الطبيب الباطني بنفسه والذي أوصى بعدم إزعاجها إلى أن تستيقظ بنفسها.

استمعت إلى نصيحته وآثرت أن أتركها لتنام.. ثم طلبت من الممرضة ألا تسمح لأحد في الدخول لغرفة الفتاة دون إذن مباشر مني.. هناك الكثير لنتحدث عنه.. الكثير لأعرفه عنها.. يا إلهي.. لقد أسرتني هذه الفتاة تماما وسرقت قلبي بضعفها وهوانها.. مشكلتي أنني أشعر دوما بحاجة ماسة لمن يحتاج إلي!!!.

نظرت بعدها إلى ساعتي.. ووجدت أن نوبتي المسائية قد انتهت منذ حوالي ساعة.. كنت متعبا بالفعل.. دعكم من أن

وجودي الآن لا هدف منه طالما الفتاة نائمة بعمق.. وهي عموما لن تستيقظ قبل 8 ساعات على أقل تقدير بسبب الحقنة المهدئة.. لذا قررت العودة إلى شقتي لأنال قسطا من النوم.. على أن أعود إلى المستشفى حال استيقاظي.. أريد أن أكون أول من تقع عيناها عليه حين تستيقظ من سباتها.

خرجت من المستشفى بذهن مشغول مرهق غير مبال بالأمطار التي لم تتوقف بعد.. حيث رحت أقود سيارتي في الشوارع التي بدأت تمتلئ بالسيارات.. إلى أن وصلت إلى شقتي بعين نصف نائمة.. فخلعت ثيابي وارتميت على الفراش لأغرق في سبات عميق فجأة دون سابق إنذار وهو ما لم يحدث لي من قبل.. لكن الإرهاق والأمطار والفتاة و.. لا أعلم.. فقد نمت!!!.

لحسن الحظ أن ساعتي البيولوجية أيقظتني بعد حوالي 6 ساعات لأجد أن الساعة تتجاوز الواحدة ظهرا بقليل.. لا بأس على الإطلاق خاصة وأنني نسيت أن أضبط المنبه.. ذهبت بعدها لأخذ الحمام الساخن المعتاد.. وارتديت ثيابي سريعا لأتجه أولا إلى جمعية (الشامية) حيث اشتريت ساندويتشا خفيفا رحت ألتهمه أثناء الطريق على عجالة.. الغيوم ما زالت تغطي الأجواء مما منحني شعورا رائعا بالاسترخاء رغم قلقي الشديد على تلك الفتاة الغامضة.

وصلت إلى المستشفى أخيرا.. لا.. لم أذهب إلى مكتبي.. فساعات عملي لم تبدأ بعد.. بل توجهت مباشرة إلى غرفة الفتاة.. لحسن الحظ لم تستيقظ حتى الآن.. تنفست الصعداء والتقطت نفسا عميقا.. ثم دخلت الحمام لأغسل فمي ويدي من بقايا الساندويتش.. لآتي بعدها بكرسي وأجلس بجانب الفتاة.. و.. رحت أتأمل ملامحها بهيام.. أعشق منظر الفتاة حين تكون نائمة.. يكون لها حينها سحرا يذيب قلوب أعتى الرجال.. إنها البراءة بعينها.

صدرها يعلو ويهبط بهدوء ينم عن السكينة التي تعيشها أثناء نومها.. لماذا أرتجف؟!.. أخشى أن أكون قد تحولت إلى مراهق.. هل أحببتها؟!.. لا أعرف.. لكن لو أحببت كل فتاة في ورطة فأنا نفسي في ورطة!!!.. عموما.. لا تهم مشاعري الآن.. المهم أنها بحال أفضل كما تبدو لي.. سأوقظها دون الاستماع لنصيحة الطبيب الباطني.. آمل أن تكون قد نالت كفايتها من الراحة.

قلت بصوت خافت للغاية وبحنان بالغ:

- عزيزتي.. استيقظي أرجوك.. أنت بمأمن الآن.. لن يمسك أحد.. استيقظي.. أرجوك.

ظللت أردد هذه الكلمات حتى فتحت الفتاة عينيها ببطء

شديد.. و.. قالت بصوت ملائكي عذب:

- هل.. هل كنت أحلم؟!.. هل هو كابوس.. مهلا.. أين.. أين أنا؟!.

قلت مبتسما بتعاطف شديد محاولا كسب ثقتها:

- لا أعرف من أنت وما تعرضت له حتى أجيب على تساؤلاتك.. أنت حاليا في مستشفى الطب النفسي وأنا طبيبك المعالج.. هل تذكرينني؟!.. تستطيعين الوثوق بي.. بل وأقسم لك إنني أهل للثقة وما ستقولينه لي لن يخرج أبدا من هذه الغرفة.

يبدو أنها تذكرتني.. إذ ارتخت ملامحها قليلا.. ثم راحت تتأوه وهي تحاول النهوض من مكانها.. فساعدتها وقمت برفع النصف العلوي من سريرها كي تتمكن من النظر إلي مباشرة.. سألتها بتعاطف:

- هل أنت جائعة؟!.. هل تريدين أن تأكلي أو تشربي شيئا؟!!.

ردت بخفوت:

- ربما.. ربما فيما بعد!!!.



أومأت برأسي متفهما وأنا أسألها باهتمام:

- ما اسمك يا عزيزتي؟!.

وكأن سؤالي أصابها بالصميم.. إذ اغرورقت عيناها بالدموع فجأة وهي تقول:

- (لمار).. لكني لست واثقة من ذلك!!!.

(لمار).. اسم نادر جدا.. إنه يعني (ماء الذهب) على ما أظن*.. أنت كذلك بالفعل يا عزيزتي.. لكن.. غمغمت مستغربا:

- مهلا.. تقولين إنك لست واثقة من اسمك؟!.

انهمرت دموعها لتقول بصوت مرتجف:

- لست واثقة من شيء يا دكتور.. إنني.. إنني تائهة تماما.

قلت بقلق:

- هل تعانين من فقدان الذاكرة؟!.. هل نسيت بعض تفاصيل حياتك؟!!.

ردت وهي تهز رأسها نفيا:

---

* حقيقة

- على العكس تماما.. إنني أتذكر كل شيء.. لكنني لا أعلم إن كان ما أتذكره هو الحقيقة!!!.. لقد بدأت أشك حتى في قواي العقلية.

بلغ فضولي مبلغه.. لأقول بلهفة:

- أرجوك أن تشرحي لي كل شيء حتى أفهم.. سأساعدك مهما كان حجم مشكلتك.

مسحت دموعها بيديها وأرجعت شعرها إلى الوراء.. ثم نظرت إلي نظرة خاوية قبل أن تقول وهي تسرح بعينيها بعيدا:

- لا أعرف من أين أبدأ يا دكتور.. إنني أعيش فوضى لا أفهمها.. أشعر وكأنني.. وكأنني عشت حياتين لفتاتين مختلفتين!!!.

عزيزي القارئ.. عادة لا يصدق الطبيب النفسي القصص الغريبة ويظن مباشرة أن صاحبها مصابا باضطرابات عقلية.. أما أنا فغالبا ما أفترض العكس من مبدأ: ((كل متهم بريء حتى تثبت إدانته)).. وربما لاحظتم هذا من بعض تجاربي السابقة.. فلن أدين هذه الفتاة لمجرد أن كلامها غريبا غير مألوف.. لذا حاولت أن أحثها على الحديث وأنا أطلب منها أن تخبرني بقصتها بالتفصيل.. فوضعت يدها على جبينها وكأنها

تسترجع بعض المعلومات الهامة.. ثم قالت بخفوت شديد:

- أنا أبلغ من العمر 18 عاما.. أعيش حياة طبيعية للغاية مع والديّ وشقيقي الذي يصغرني ببضع سنوات.. ومع جدي وجدتي أيضا.. إن أسرتنا نموذج للأسرة السعيدة.. فأبي يحب أمي كثيرا.. وأمي تعامل جدي وجدتي كوالديها تماما.. كنت أقول دوما إنني لن أترك بيتنا هذا أبدا ولن أحتمل فراق أحد منه.. فكل من يعيش فيه له مكانة خاصة جدا في قلبي.

دمعت عيناها مرة أخرى وكأن الأمور لن تعود أبدا كما كانت!!!.. ثم أكملت لتقول:

- لقد وقعت في حب زميلي في كلية العلوم.. شاب رائع مجتهد مهذب جدا يحمل طموحا لا ينتهي.. حيث استمرت علاقتي به شهورا قليلة.. لكن.. يبدو أنه من المستحيل أن تكون الأمور دوما بهذه الروعة.. لا بد أن تظهر تلك النقطة السوداء على لوحة حياتك البيضاء الجميلة.. فقد اكتشف حبيبي أنه مصاب بسرطان الدم وفي مراحل متأخرة منه!!!.. ورغم ذلك حاول مقاومة المرض ببسالة يحسد عليها.. بل وكان يعدني بأنه سيبقى معي إلى الأبد وسيعيش من أجلي فقط!!!.

يا عزيزتي.. لو كنت لي وأصبت بالسرطان.. فسأنتزع الخلايا السرطانية من جسدي بالملقط من أجلك أنت فقط.. لم أحتمل دموعها التي لا تزال تنهمر دون توقف.. لأول مرة في حياتي أجد نفسي ضعيفا بهذه الصورة الغريبة.. ناولتها منديلا من علبة المحارم الورقية بجانب سريرها.. فأخذته مني ودفنت وجهها فيه للحظة.. قبل أن تكمل:

- لكن المرض كان أقوى منه رغم كل شيء.. إذ تلقيت اتصالا هاتفيا صباح أمس من شقيقته لتخبرني أنه فارق الحياة.. وقد أقسمت لي إن اسمي كان آخر ما طرأ على لسانه!!!.. وكأنه يعتذر على الوعد الذي قطعه لي بالبقاء معي إلى الأبد ولم يتمكن من الالتزام به.. لا يمكنك تخيل حالة اليأس والقهر والحزن التي مررت بها حينها.. لقد بكيت طوال الأمس واستنزفت طاقتي وجهدي في الحزن وأنا أتذكر كيف ذبل حبي الوحيد وانتهى قبل أن يبدأ.. في حين تجلس أمي بجواري تحاول أن تهدئ من روعي وترجوني أن آكل شيئا بعد أن ضللت طوال اليوم على هذا الحال.. قبل أن تمر الساعات ويتأخر الوقت وأنا جالسة على فراشي أنظر إلى السقف بشرود حزين.. لتأتي أمي مرة أخرى وتتوسل إلي أن أنام على الأقل.. فامتثلت لها بطريقة آلية قبل أن تقبل جبيني وتحتضنني بحنان

ثم تطفئ الأنوار على أمل أن أستسلم للنوم.. لكني ظللت مستيقظة تحت اللحاف وقد تبللت أجزاء كثيرة منه بالدموع.. أتذكر مكالماتنا الهاتفية.. أتذكر لحظاتنا الجميلة والمستقبل الذي خططنا له معا.. تتردد تلك الخواطر في ذهني وأنا أغلق عيني شيئا فشيئا معلنة عن انتهاء ليلة موت حبي الوحيد.. كان من الغريب أن أصاب بالنعاس.. ربما هو الجوع والحزن والإرهاق الشديد.. يا إلهي.. تبدو تلك الحياة بعيدة جدا.. وكأنها ذكريات مضت عليها سنوات طويلة ولم تحدث في الأمس فحسب!!!.

كنت أستمع إليها وعلامات التأثر تملأ ملامحي!!!.. ثم.. قالت فجأة ببطء شديد وكأنها وصلت لأصعب جزء من قصتها:

- أقسم لك إن ما سأقوله لك هو تماما ما حدث.. دكتور.. مهما بدت غرابة قصتي.. فلتصدقني أرجوك.

ربت على كتفها مطمئنا أطلب منها الاستمرار في الحديث.. لتكمل:

- في لحظة استيقاظي من النوم.. شعرت بأنني مرهقة جدا وكأنني لم أنم أصلا.. وجسدي بدا لي ضعيفا هشا.. ثم.. هذا البرد الشديد.. لماذا أشعر بالبرد؟!.. فتحت عيني

سريعا بعد أن أحسست أن هناك شيئا غير عادي يجري حولي.. لأكتشف أنني مستلقية على الأرض في مكان غريب!!!.. لم أكن على سريري.. بل ولم أكن في بيتنا أصلا!!!.. فلا يوجد لدينا هذا السقف الغريب في البيت.. كيف وصلت إلى هذا المكان؟!.. وما هو هذا المكان أصلا؟!.. دار بذهني تساؤل سخيف.. هل فارقت الحياة حزنا على حبيبي؟!.. لا.. لا يمكن أن يكون هذا إحساس الميت.. نهضت من على الأرض بذعر لأكتشف أنني في مكان بدائي تطلب الأمر لحظات إضافية لأستوعب أنه ليس سوى خيمة صغيرة!!!.. كيف وصلت من فراشي الدافئ في البيت إلى هذه الخيمة؟!!.. أنظر حولي بقلب يخفق بصوت مسموع.. أحاول أن أعرف ما يجري لي.. أين أنا؟!.. ما الذي حدث بالضبط؟!.

قالت هذا الكلام وهي تحيط نفسها باللحاف وكأنها تطلب المزيد من الدفء والأمان.. ثم أكملت أمام نظرات الاهتمام التي كنت أرمقها بها:

- أثناء لحظات الضياع تلك.. سمعت أصواتاً غريبة تنبعث من الخارج.. صراخ وضحك جنوني لا أفهم سببه.. فخرجت من الخيمة بخطوات مرتجفة وأسنان تصطك

من شدة البرد.. لأفاجأ أنني وسط مخيم صغير والأمطار تهطل عليه من كل مكان!!!.. وتلك الأصوات ليست سوى لمجموعة من الشبان الذين يجلسون في خيمة أخرى أكبر حجما فيتحدثون ويمزحون بصوت مرتفع وبكلمات سمجة للغاية.. هل أذهب إليهم وأطلب مساعدتهم؟!.. كيف سأشرح لهم سبب وجودي هنا إن كنت أنا نفسي أجهل ما حدث؟!.. ربما سأطلب منهم فقط أن يسمحوا لي بالاتصال بأسرتي.. ولكن.. ماذا سأقول لأبي؟!.. كيف أفسر له وجودي بثياب النوم في مخيم مع مجموعة من الشبّان؟!.. لا أعلم.. إنني بلا ثياب لائقة.. وبلا حذاء.. وبلا وسيلة نقل.. وفي وسط الصحراء كما يبدو.. هناك مخيمات متناثرة على مسافات بعيدة نسبيا.. التساؤلات تتساقط مع مياه الأمطار لتملأ رأسي.. كيف وصلت إلى هنا؟!.. أين أنا تحديدا؟؟!.. في النهاية.. لم أجد بدا من اللجوء إلى هؤلاء الشباب آملة أن أجد فيهم النخوة لمساعدتي.. فمشيت بخطوات حافية مترددة إلى خيمتهم وجسدي ينتفض بوضوح من شدة البرد والمطر والرعب والذهول مما أمر به.. لأصل أخيرا عند عتبة خيمتهم.. و.. مع الأسف.. لم أنتبه إلى أنهم في حالة غير طبيعية إلا عندما رأوني.. أنا لا أعرف رائحة الخمر.. لكن تلك الرائحة التي ملأت أجواء

الخيمة لا يمكن أن تكون لشيء آخر سواه!!!.. خاصة مع أصواتهم المائعة وضحكاتهم الهستيرية التي تكشف لك بوضوح أن الخمر أفقدهم عقولهم تماما.. عندها فقط أدركت أنني في مأزق آخر جديد وأنا لم أستوعب المأزق الأول بعد!!!.. إذ توقفت ضحكاتهم فجأة ليسود الهدوء المكان سوى من صوت الأمطار.. جميعهم يحدقون بي ببلاهة وأنا ما زلت متسمرة في مكاني عند عتبة الخيمة.. أحاول أن أتنحنح.. أحاول أن أنطق لأطلب مساعدتهم.. لكن الخوف جمدني تماما وأنا أرى نظرات أحدهم التي يتطاير منها الشرر.. أسمعه يتحدث بطريقة مائعة توحي بحالة السكر التي يمر بها وهو يخبر أصدقاءه أنني هدية نزلت عليهم مع الأمطار!!!.. ثم.. نهض فجأة وهو يصرخ بانتصار ويخبر الجميع بصوت مرتفع بأنه سيبدأ.. يبدأ بماذا؟!.. أنت تعرف الجواب بالطبع.. لا يمكن أن أصف لك شعوري بالتقزز وهو يضع يده على جسدي ويمسكني من ثيابي ليجرني إلى الداخل.. لكنني تداركت الأمر بسرعة ودفعته بكل قوتي.. لحسن الحظ كان ضعيفا هشا بسبب تأثير الخمر.. فسقط على الأرض مباشرة.. ولم أنتظر لأرى ما سيحدث بعدها.. بل تركت ساقي للريح ورحت أركض حافية في الصحراء والأمطار تضرب ثيابي الخفيفة من كل

ناحية.. أركض وأركض دون أن أعرف وجهتي.. ألتفت خلفي بهلع.. هل سيطاردونني؟!.. لا أعتقد أن حالة السكر ستسمح لهم.. ولا أعتقد أن الخروج بسياراتهم وسط هذه الأمطار حلا متاحا كما يبدو.. ربما لهذا لم يخرج أحدهم لملاحقتي.. جسدي تجمد تماما من شدة البرد.. هناك أشياء كثيرة تجرح قدمي الحافية.. لكن الخوف كان أكبر من الألم.. انتبهت فجأة بعدها إلى أنوار الشارع التي بت أراها قريبة نسبيا.. إلى أن وجدت نفسي أخيرا قريبة من الشارع العام ومن منطقة (الدوحة)* تحديدا!!!.. أنا أسكن في منطقة (الجابرية) فكيف نمت هناك لأستيقظ هنا؟!.. لغز لا أملك له جوابا.. لكني على الأقل شعرت حينها بشيء من الأمان من هؤلاء الأوغاد.. فتوقفت قليلا لألتقط أنفاسي.. ثم بدأت أمشي مرة أخرى على الطريق الساحلي بخطوات لاهثة متقطعة والأمطار تغسل ثيابي دون توقف.. أفكر بأفراد أسرتي.. كيف سأخبرهم بما جرى.. وكيف سأصل إليهم أصلا؟!!.. لقد كان كل شيء يدل على أن الوقت متأخر للغاية..

---

* للقراء الأعزاء خارج (الكويت)، (الدوحة) المقصودة في القصة هي منطقة سكنية في (الكويت) وليست عاصمة دولة (قطر).

فالشريط الساحلي بدا خالياً تماماً من السيارات.. هل أدخل منطقة (الدوحة) السكنية وأطرق باب إحدى البيوت؟!.. هل أبحث عن المخفر؟!.. لا يمكن أن أستمر في المشي إلى بيتنا في منطقة (الجابرية)؟!.. المسافة بعيدة جدا كما تعلم!!!.. إنها المرة الأولى في حياتي التي يشل فيها الخوف تفكيري تماما ويجعلني أبحث عن حلول معظمها متاح فعليا لكني لا ألجأ لأي منها.. فالصدمة كانت أقوى مما يمكن احتماله.. أصل لمنطقة (الصليبخات) وما زلت مستمرة في المشي.. قدماي المتجمدتان تدوسان على أشياء مختلفة بعضها مؤلم فعلا.. حصى.. قطع زجاج مبعثرة.. أتربة.. وكل ما قد يجرح قدميك ويصيبك بآلام لا حصر لها.. إلى أن فوجئت أخيرا بعد حوالي ساعتين بأنني أمام مستشفى الطب النفسي!!!.. فدخلته مباشرة غير مصدقة أنني وصلت إلى مكان سأعثر فيه على من يساعدني بكل تأكيد.. ثم مشيت في ممرات المستشفى التي بدت خالية تماما وسببت لي المزيد من الخوف و.. أنت تعرف ما حدث بعد ذلك.

كيف سأرد عليها؟!.. ما تقوله هذ الفتاة مستحيل تماما وغير منطقي.. سألتها بشك:

- (لمار).. المعذرة.. لكني بشر.. ومن أبسط حقوقي أن أطلب تفسيرا لقصتك التي تتحدى العقل والمنطق.. كيف تفسرين ذهابك إلى الفراش في بيتك في (الجابرية) ومن ثم استيقاظك فجأة لتجدي نفسك في الصحراء بالقرب من منطقة (الدوحة) كما تقولين؟!!.

قالت وهي تطرق برأسها يأساً:

- وهل يستطيع أي إنسان تفسير أمر كهذا يا دكتور؟!.. لو كان هناك تفسير منطقي لما كانت قصتي بهذه الغرابة.

رددت بصدق:

- (لمار).. عزيزتي.. إن ما تقولينه مستحيل.. هناك فجوة ضخمة في أحداث قصتك.

نظرت إلي بحزن.. ثم أشارت بكفيها وكأنها لا تملك ما تقوله!!!.. هذا غريب.. أنا لم أسمع في حياتي قصة كهذه.. هل الفتاة مختلة عقليا؟!.. لا.. لن أحتمل أن يكون تحت هذا الرأس الجميل عقل خاوٍ.. هل تكذب لسبب ما؟!.. لا أعلم.. سألتها عن رقم هاتف بيتها للاتصال بأسرتها على الأقل وإنهاء الأمر بغض النظر عن غرابة القصة.. فشهقت (لمار) بعنف وكأنها تذكرت فجأة.. لتقول بكلمات سريعة:

- يا إلهي.. أسرتي!!!.. لقد أنساني ما حدث كل ما يتعلق بأمرهم.. إنهم يموتون قلقا علي الآن دون شك.. لا أعرف ما سأقوله لهم.. أرجوك يا دكتور دعني أتصل بهم.

قلت بحزم:

- سأتصل أنا.

أخرجت هاتفي النقال من جيبي واتصلت بالرقم الذي أملتني إياه.. نظرت إلى ساعتي لا شعوريا وأنا أستمع إلى الهاتف يرن.. كانت الساعة تقترب من الثالثة عصرا.. سيسبب اتصالي هذا مشكلة.. بل مشاكل عديدة.. سيطرح الأب تساؤلات كثيرة على (لمار) أن تجيب عليها.. وستكون حينها في مأزق حقيقي.. فهذه القصة لا يصدقها عقل.. ولو كانت (لمار) فتاة عابثة فسيكون هذا أغبى عذر تختلقه في حياتها!!!.. عموما.. الباب مفتوح على مصراعيه لكل الاحتمالات وسنعرف كل شيء الآن.. صوت رجال يسأل باحترام عن هوية المتصل.. تنحنحت.. وقلت بهدوء:

- السيد (......)؟!

رد بالإيجاب.. لا أعرف كيف أخبره بالأمر.. عرفته بنفسي وأخبرته أنني طبيب من مستشفى الطب النفسي.. ثم سألته

إن كانت لديهم ابنة مفقودة.. فسكت للحظة.. ليجيب بالنفي!!!.. هذا غريب.. سألته مرة أخرى إن كانت لديهم ابنة اسمها (لمار).. فقال بحذر:

- نعم.. لدي بنت اسمها (لمار)!!!.

سألته مستغربا:

- ألم تقل للتو أنه لا توجد لديكم ابنة مفقودة؟!!.

رد بالمقابل:

- ابنتي ليست مفقودة.. إنها تجلس معي الآن!!!.. لماذا تسأل؟!.. ومن أنت تحديدا؟!.

هناك أمر غير مفهوم.. هل تحاول (لمار) انتحال شخصية فتاة أخرى مثلا؟!.. لا أعلم.. قلت بحذر:

- إنني أتصل بك لأن هناك فتاة تجلس الآن بجانبي في المستشفى وتقول أنها ابنتك (لمار)!!!.

رد ضاحكا:

- مستحيل.. ابنتي (لمار) تجلس أمامي في هذه اللحظة تحديدا.. إنك مخطئ يا دكتور.

ثم.. تغيرت نبرة صوته وهو يسألني:

- هل الفتاة الموجودة معك تحاول انتحال شخصية ابنتي؟!.

سكت طويلا دون أن أعرف كيف أرد عليه.. ثم.. تذكرت أمرا هاما قد يحل هذا اللغز.. طلبت من الأب أن يغلق الخط وسألتقط صورة لـ(لمار) -إن كان هذا اسمها الحقيقي- من هاتفي وأرسلها له عله يتعرفها.. فوافق مباشرة وقد تملكه فضول شديد كما يبدو.. أغلقت الخط والتقطت صورة سريعة للفتاة وهي تسألني باستغراب عما يحدث.. لكني لم أخبرها بشيء.. بل أرسلت الصورة مباشرة إلى الأب.. تطلب هذا لحظات قليلة قبل أن أتصل به مرة أخرى.. ليقول بذهول شديد:

- أنا لم أرَ هذه الفتاة من قبل رغم أنها تشبه ابنتي كثيرا!!!.. قد تكون مجرد نصابة.. أو مجنونة.. ألست في مستشفى الطب النفسي؟!.

لا أعلم لماذا شعرت بالإهانة.. حتى إنني سألته بشيء من الحدة:

- إذاً كيف تعرف هذه الفتاة رقمك وتصر على أنها ابنتك؟!!.

كنت أتحدث و(لمار) تحاول أخذ الهاتف من يدي بعد أن

فهمت أن المتحدث ينكر معرفته بها تماما.. لكني سمعت الأب يغمغم:

- لا أعلم.. إنه أمر غريب بحق.. عموما أنا أؤكد لك مرة أخرى.. هذه الفتاة لا تمت لنا بأي صلة رغم أنها تشبه ابنتي كثيرا كما أخبرتك!!!.. لا أنكر هذا.

عندها تخاذلت يدي الممسكة بالهاتف.. فأخذته الفتاة مني وهي تقول باستنكار:

- أبي ما الذي تقوله؟!.. هذا أنا.. أنا (لمار) ابنتك!!!.

حاول أن يقنعها أنها مخطئة كما يبدو.. لكنها راحت تبكي وتتساءل عما دهاه وتطلب أن تتحدث مع والدتها.. و.. يبدو أنه لم يرتح كثيرا لهذا الإلحاح.. إذ أغلق الخط في وجهها فجأة ليتركها حائرة ضائعة تماما.. فسقط الهاتف من يدها وهي تنظر إلى الأمام مصدومة.. لقد بدأت تشك في قواها العقلية كما يبدو!!!.. هذا واضح.

ما زلت أتساءل.. هل هي مجرد نصابة انتحلت شخصية ابنة ذلك الرجل لسبب ما؟!!.. لكن.. لا يمكن أن تتصرف بهذا الغباء وتنتحل شخصية فتاة موجودة حاليا مع أهلها ثم تطلب مني الاتصال بهم والتحدث مع الأب!!!.. لقد بدأت أشك في كل ما

قالته لي.. أستطيع أن أسلمها للشرطة كوني لا أعرف شيئا عن هويتها.. لكن.. أعترف لكم صراحة.. احم.. احم.. لم يطاوعني قلبي!!!.. كان جمالها ورقتها طاغيين فشعرت أنني أريد البقاء بجانبها لأطول وقت ممكن.. لذا.. ارتأيت أن أقوم بهذا الإجراء فيما بعد وأن أمنح نفسي بعض الوقت.. ربما سأتمكن من كشف حقيقة ما يحدث بنفسي.

حاولت بعدها لأكثر من ساعة أن أهدئ من روعها وسط نظرات الصدمة والذهول والدموع التي راحت تتساقط من عينيها بلا توقف.. ثم قررت التصرف بطريقة عملية.. إذ نهضت من مكاني.. وطلبت من (لمار) -إن كان هذا اسمها بالفعل- أن تأخذ حماما ساخنا لتشعر بالانتعاش.. ووعدتها بأنني سأرسل بمن يشتري لها بعض الثياب على نفقتي الخاصة.. كما أخبرتها أنها ربما تعاني من فقدان الذاكرة.. أو اختلاط الذكريات في ذهنها مما جعلها تختلق قصة كاملة غير حقيقية -وإن كانت مقتنعة تماما بأحداثها- أمر كهذا ممكن الحدوث.. ولا ننسى الاحتمال الأخير القائم وهو أن الفتاة مختلة عقليا.

نهضت من فراشها وهي تنظر حولها بضياع وتغمغم بكلمات توحي بأنها بدأت هي نفسها تشك بقواها العقلية كما يبدو.. تماما كحال من يكتشف أن حياته بأكملها ليست كما كان

يظنها.. و.. توقفت عند عتبة باب الحمام لتقول بانكسار:

- لقد.. لقد وعدتني ألا تتخلى عني.. هل أنت صادق في وعدك؟!.. هل تستطيع مساعدتي بالفعل؟!.

فتاة تنظر إليك بهذه الطريقة وتخبرك أنك أملها الوحيد في العالم.. كيف سترد عليها؟!.. بالطبع يا عزيزتي أستطيع مساعدتك.. أستطيع مساعدة كل البشر.. أومأت برأسي متعاطفا.. فدخلت الحمام أخيرا وتركتني في غرفتها.. عندها رفعت سماعة الهاتف.. وطلبت من إحدى الممرضات أن تلتقيني في مكتبي بعد قليل لأسلمها بعض المال كي تخرج وتشتري ثيابا تصلح لـ(لمار).. ولم أنسَ بقشيشاً محترماً حتى تفعل الممرضة ذلك بضمير وتنتقي ثيابا جيدة.

بعد حوالي 3 ساعات.. كانت (لمار) تجلس في غرفتها مرتدية ثيابا لا بأس بها وقد استعادت الكثير من عافيتها.. لكنها ظلت متوترة قلقة تائهة ومصرة بنفس الوقت على قصتها وعلى أنها ابنة ذلك الرجل الذي أنكر معرفته بها.. أما أنا فتركتها قليلا وتوجهت إلى مكتبي.. كنت أفكر في الجانب الآخر لهذه المشكلة والخاص بي!!!.. إذ أخشى كثيرا أن ينتبه زملائي أو حتى مدير المستشفى بوجود فتاة في إحدى غرف المستشفى وهي لا تحمل ملفا أصلا وليس لديها أي إثبات شخصي.. فحالات

كهذه يتحتم علي فيها إبلاغ الشرطة مباشرة.. لذا نستطيع أن نقول إنني كنت أخالف القانون مخالفة صريحة!!!.. ولو كشفوا الأمر فسأكون في مأزق حقيقي لا أعلم كيف سأخرج منه.. مهلا.. ربما يمكنني استغلال علاقتي ببعض الضباط بصورة غير رسمية.. إذ تربطني علاقات جيدة ببعضهم.. فهناك تعاون مستمر بين مستشفى الطب النفسي ووزارة الداخلية.. وأنا لم أطلب من هؤلاء الضباط أي خدمة من قبل.. سأتصل بأحدهم وأطلب منه أن يستعلم عن (لمار).. لن أخبره بتفاصيل ما حدث حتى لا يتحول الأمر لبلاغ شخصي مما يعني حتمية خروج الفتاة من المستشفى وتوجهها إلى المخفر.

أمسكت بهاتفي النقال ورحت أبحث في الأرقام إلى أن عثرت على رقم ذلك الضابط.. فاتصلت به مباشرة.. لحسن الحظ رد على مكالمتي مرحبا.. فألقيت عليه تحية سريعة وطلبت منه أن يبحث عن بيانات لفتاة تحمل هذا الاسم -بعد أن أخذت منها اسمها الثلاثي- وأخبرته أن الأمر يتعلق بمشروع زواج.. فضحك كثيرا وانهمرت علي تبريكاته وكلمات المجاملة المعتادة.. ثم وعدني بالاتصال بعد ساعات قليلة ليبلغني بكافة التفاصيل.

ذهبت بعدها إلى غرفة (لمار) لأتحدث معها عن كل أمور

حياتها محاولا أن أستشف منها ما قد ينير لي الطريق ويكشف لي سرها.. لم يكن هناك أي جديد لتقوله.. الفتاة فقدت حبها الوحيد كما علمنا منها.. فنامت ليلتها في بيتها بمنطقة (الجابرية) واستيقظت في مكان آخر بعيداً تماماً وفي قلب المخيمات القريبة من منطقة (الدوحة).. حيث تمكنت من الهرب من مجموعة من الشبان العابثين الذين حاولوا الاعتداء عليها قبل أن تصل إلى المستشفى.. إنها مقتنعة تماما أن هذا ما حدث لها بالفعل رغم استحالة التفاصيل.

و.. لحسن الحظ أن ذلك الضابط التزم بوعده.. فقد اتصل بي بعد ساعتين تقريبا ليخبرني بكل المعلومات التي أردت معرفتها عن (لمار).. إنها مواطنة عادية جدا سجِلها خال تماما من أي جرائم.. وأسوأ ما فعلته في حياتها هو بعض المخالفات المرورية!!!.. بل وأرسل لي صورة لها عبر هاتفه النقال.. نظرت إلى الصورة باهتمام شديد.. يا لي من غبي.. فـ (لمار) الموجودة في الصورة هي ابنة ذلك الرجل الذي أنكر تماما معرفته بالفتاة الموجودة معي الآن والتي تدعي أنها هي (لمار)!!!.. لكني نسيت ملاحظة هامة من الأب تذكرتها للتو حين أخبرني أن الفتاة التي أرسلت له صورتها تشبه ابنته كثيرا لكنها ليست هي.. إن الفتاتين تتشابهان كثيرا بالفعل.. هل هما شقيقتان مثلا؟!.. أي منهما يا ترى هي (لمار) الحقيقية؟!!.. ولو كان

الأمر كذلك فلماذا يتبرأ منها الأب؟!.

عموما.. هناك حقيقة واحدة مؤكدة اكتشفتها للتو بعد أن رأيت الشبه الواضح بين الفتاتين.. الفتاة الموجودة معي الآن ربما تكون صادقة في بعض كلامها.. لكن الأمر يتطلب المزيد من المعلومات.. فكرت أن أزور والدها -كما تدّعي- وأعرف منه المزيد من التفاصيل لعلّني أكتشف سبب التشابه المريب بين ابنته وهذه الفتاة!!!.. لا يمكن أن تكون هذه صدفة.. هناك سر حتما.. لكن ما هو؟!.

عزيزي القارئ.. لن أدخل معك في تفاصيل ما حدث في الأيام الثلاثة التالية.. إذ لم يستجد فيها شيء سوى أنني ذهبت مع (لمار) لمقابلة الرجل الذي ادعت أنه والدها.. حيث وافق مشكورا على لقائنا.. بل وقابلنا ابنته أيضا.. فبدا التشابه واضحا بالفعل بين الفتاتين بالشكل وفي بعض التصرفات أيضا!!!.. الفارق الوحيد أن هناك اختلافا في السن بينهما يصل إلى حوالي سنتين.. المذهل في الأمر أن (لمار) الموجودة معي كانت تعرف الكثير عن أفراد تلك العائلة.. بل وتعرفتهم جميعا.. حتى أن لقاءها بهم كان مؤثرا للغاية.. فهي تقسم أن هؤلاء هم أهلها.. بينما أجدهم جميعا مذهولين مصدومين مما يحدث.. حتى أن والدة (لمار) الحقيقية قد احتضنت الفتاة

بقوة وبكت كثيرا بعد أن شعرت بشفقة شديدة تجاهها.. تخيل أن يأتي إليك طفل صغير وهو يبكي ويقسم إنك والده.. في حين أنت تعرف أنه ليس ابنك.. من المؤكد أنه سيحرك عواطفك كثيرا وستشعر بالأسف نحوه.. المهم أن لقاءنا بالرجل وأسرته لم يقدم لنا الكثير سوى زيادة الريبة والشك والذهول والتساؤلات بكل ما يتعلق بهذه القصة.. وأن هناك لغزا رهيبا نجهل تفاصيله ويفوق كثيرا فكرة أن تكون الفتاة الموجودة معي نصابة أو كاذبة أو حتى تعاني من مرض نفسي محدد!!!.. دعكم من مشكلتي الشخصية التي ظلت تتفاقم وتؤرقني كثيرا.. فأنا لم أسجل دخول (لمار) إلى المستشفى بصورة رسمية حتى الآن كما تعلمون.. وكلما طال بقاؤها هنا بصورة غير رسمية.. سيصبح موقفي أكثر سوءا أمام إدارة المستشفى.. لقد مضى على وجودها 4 أيام وهي تشغل واحدة من الغرف دون علم أحد سوى بعض الممرضات اللاتي أثق بهن وسأحميهن دون شك لو كُشِف الأمر.. كنت قلقا بالفعل ولا أعرف ما يجب فعله.

لذا فقد وضعت حدا لمخاوفي تلك بعد أن قررت إبلاغ مدير المستشفى وبعد أن وجدت اللغز يكبر ويكبر دون أي بادرة أمل في العثور على إجابات.. سيوبخني المدير كثيرا.. لكن أعتقد أن هذا كل ما سيفعله.. لأنني طبيب مستقيم

لم أرتكب أي خطأ من قبل ويعلم الجميع بعطائي وجهدي في عملي.. إنني أراهن على سمعتي لإنقاذي من هذا المأزق الذي وضعت نفسي فيه.. نعم.. لقد قررت الإبلاغ عن الفتاة في اليوم التالي فحسب مانحا نفسي فرصة أخيرة في الساعات القادمة لحل اللغز المحيط بها.. آمل أن أكتشف إن كانت كاذبة.. أو مختلة عقليا.. أو تحمل وراءها قصة غير مألوفة بالفعل.. والواقع أنني كنت أميل للاحتمال الثالث.. خاصة بعد أن التقيت بالرجل الذي ادعت أنه والدها.. المعذرة يا عزيزتي.. لقد أقسمت أن أساعدك.. لكن ما أفعله خطأ كبير ومخالفة صريحة لكل القوانين والأعراف.. وربما تحقيقات الشرطة ستنهي الأمر في حال أخذوا بصمات الفتاة وتمكنوا من كشف هويتها الحقيقية.

كنت أردد هذا الكلام في نوبتي المسائية وقد شعرت بالراحة لقراري.. الساعة تقترب من الواحدة فجرا وأنا أحاول أن أمنح نفسي فرصة أخيرة للتفكير بتفاصيل هذه القصة.. لكني لم أجد الوقت لأفكر.. إذ سمعت فجأة طرقات هادئة جدا على الباب.. فسمحت للطارق بالدخول متوقعا أنه شخص ما سيطلب استشارة نفسية أو يحمل في جعبته واحدة من تلك القصص الغريبة كما يحدث غالبا في تلك الأوقات.. لكن.. عندما فتح الباب.. وجدت رجلا في منتصف الأربعينيات ربما..

هذا غريب.. لم يزرني يوما أحد في هذا العمر ليطلب استشارة نفسية في مثل هذا الوقت المتأخر.. أو ربما جاء طالبا استشارة تخص أحد أبنائه؟!.. لا أعلم.. لكن.. ملامح الرجل ليست عربية كما هو واضح.

ابتسمت وأنا أنظر إليه.. قبل أن يبتسم بالمقابل ويتحدث بإنجليزية واضحة ليقول:

- مساء الخير دكتور.

أجبته باللغة الانجليزية أن أهلا وسهلا به.. وسألته إن كنت أستطيع تقديم أي مساعدة له.. فطلب مني أن أسمح له بالجلوس لأن حديثه سيطول على حد قوله!!!.. أشرت له بيدي أن يجلس.. ثم.. رفعت سماعة الهاتف وأنا أسأله إن كان يود أن يشرب شيئا.. لكنه أشار إلي بكفه أن أضع السماعة وكأن لا وقت لديه لتلك المجاملات.. فامتثلت لرغبته ورحت أنظر إليه منتظرا أن يخبرني عن سبب زيارته في هذه الساعة.. كان يبدو عليه التردد الشديد وكأنه يحمل قصة عسيرة التصديق.. أرى تلك النظرات كثيرا بأعين المراهقين والشباب من الجنسين.. لكني لم أرها يوما في عين رجل يكبرني سنا.

التفت إلي فجأة قاطعا تسلسل خواطري ليقول بلكنة أمريكية لا يمكن أن أخطئها:

ما زلت أفكر بما سأقوله لك وبوقع ما ستسمعه مني.. فلا أعلم كيف سأقنعك بقصتي؟!.. خاصة وأنك طبيب نفسي معتاد على الأرجح إلى الاستماع لقصص غريبة من المختلين عقليا دون أن تصدق منها حرفا.

بدا ارتباكه الشديد واضحا مما تسبب لي بشيء من الذهول.. للحق أقولها فإنني أعاني من عقدة (الخواجة) الشهيرة كما يقول إخواننا المصريون.. والمقصود بها هي عقدة النقص أمام كل رجل أشقر.. إنه أمريكي خارق ينتمي إلى دولة خارقة علميا وتكنولوجيا وثقافيا و.. إلخ.. لذا كان من الغريب بالفعل أن يكون هو المرتبك الذي لا يعرف كيف يبدأ الكلام.. لكن يبدو أنه حسم أمره أخيرا.. إذ تنهد بعمق وهو يقول:

- حسنا.. أنت طبيب وهذا بالتبعية يعني أنك شخص على مدى لا بأس به من الثقافة العامة.. والمفترض ألا تنكر ما تسمعه فقط لأنه لا يتماشى مع ما تعرفه وسمعت عنه.. أليس كذلك؟!.. دعني أسألك أولا وقبل كل شيء.. ما هي معلوماتك عن الفيزياء يا دكتور؟!.

بدا سؤاله هذا غريبا وعاما للغاية.. ما الذي سأقوله له؟!.. كيف سأجيب؟!.. لكني أجبته مبتسما أن الفيزياء هي عبارة عن دراسة الظواهر الطبيعية ومحاولة تفسيرها.. الغريب أنه

نظر إلي بشيء من الإعجاب.. ثم أردف باهتمام شديد:

- ماذا تعرف عن فكرة السفر عبر الزمن؟!!.

ابتسمت مستغربا مرة أخرى لهذا السؤال.. فمططت شفتي وأنا أقول:

- ما يعرفه عامة الناس.. هل جئت لزيارتي في وقت كهذا لتطرح علي أسئلة متعلقة بالفيزياء والسفر عبر الزمن يا سيدي؟!!.

تجاهل سؤالي تماما ليقول بغموض:

- دكتور.. لو نظرت إلى الفضاء الشاسع ورأيت إحدى النجوم التي تبعد عنا بمسافة 5 سنوات ضوئية.. ماذا ستقول لو أخبرتك أن هذا النجم قد انفجر منذ بضعة شهور مثلا ولم يعد له وجود؟!.. إذا كنت لا تدرك فكرة السفر عبر الزمن ومفهوم سرعة الضوء فإنك سترى سؤالي غبيا وستستنكر الأمر تماما على اعتبار أنك ترى النجم بعينيك مضيئا لامعا.. لكن لو كنت على دراية بفكرة السفر عبر الزمن فستعلم أن النجم الذي يبعد عنا بمسافة خمس سنوات ضوئية سيصل ضوئه إلى الأرض بعد خمس سنوات وهذا يعني أنك لا ترى حاضر النجم

بعينك المجردة.. بل ترى ماضيه وكيف كان عليه قبل خمس سنوات.. هذا في واقع الأمر -وبشيء من المرونة- هو سفر عبر الزمن.. سفر إلى الماضي*.

نظرت إليه بمعنى أن ما يقوله جميل تماما لكنه لا يعنيني.. ويبدو أنه فهم نظراتي تلك.. لذا قرر اختصار الحديث ليقول برجاء يشوبه بعض التوتر:

- إنني هنا من أجل (لمار).. الفتاة التي جاءت المستشفى منذ أيام قليلة!!!.

كان هذا كافيا لأنتفض بقوة وأسأله بعدائية واضحة:

- كيف.. كيف عرفت بوجودها؟!.

---

* الكلام المذكور صحيح تماما.. فقد اتضح لعلماء الفلك أن المساحات الشاسعة في الفضاء لا يمكن أن تقاس بالأميال أو الكيلومترات.. وإلا وجدنا أرقاما خيالية تتكون من مليارات الأصفار سنعجز حتى عن قراءتها!!!.. ولا توجد أي مبالغة في ذلك.. لذا ظهر مصطلح جديد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.. مصطلح (السنة الضوئية).. ويعنى المسافة التي يقطعها الضوء لو انطلق في الفضاء لمدة سنة كاملة.. علما بأن سرعة الضوء في الثانية الواحدة فقط تساوي حوالي (300 ألف كيلو متر)!!!.. أي أن الضوء يقطع مسافة 25 مليارا و862 مليونا و801 ألف و 818 كيلو مترا في السنة الواحدة!!!.. المشكلة أن هذا الرقم الهائل والمزعج يساوى وحدة فلكية واحدة فقط في قياس المسافات الكونية!!!.. فلو أن إحدى النجوم تبعد عنا بمسافة 3 سنوات ضوئية مثلا.. فهذا يعنى أن وصولنا إليه يحتاج إلى مركبة فضائية تنطلق بسرعة الضوء لمدة 3 سنوات كاملة دون توقف.

قال وهو يحدق بعيني مباشرة:

- لقد أخبرتني الممرضات في الخارج بأمر (لمار).. لا تخشَ شيئا.. إنني هنا لمساعدتك.. أرجوك أن تستمع إلي جيدا.. ستدخل معي في متاهات كثيرة لكنك في النهاية ستفهم.. يجب فقط أن يتسع نطاق تفكيرك لتصدق ما ستسمعه مني.

الممرضات اللعينات!!!.. كنت دائما أقف إلى جانبهن وأعاملهن بكل احترام.. كيف يفشين السر بهذه الطريقة؟!!.. سيكون انتقامي شنيعا.. لكن الرجل لم يمنحني فرصة للتفكير بهذا الانتقام.. بل أكمل قائلا:

- ما أريد أن أقوله لك هو أن (لمار) ليست من عالمك!!!.

لا أعرف لماذا شعرت أنه يهين عقلي.. بل وكدت أرد عليه بسخرية كونه يمارس حيلة غبية لا يمكن أن تنطلي على أحد.. لكني تداركت نفسي بسرعة.. وتذكرت أنني آخر من يجب أن يكذّب شيئا قبل أن يفهم تفاصيله بعد كل ما رأيته في حياتي.. لذا قلت للرجل بجمود:

- لن أتهمك بالكذب قبل أن أستمع إليك.. هذه طبيعتي حتى وإن سخرت مني في أعماقك.. أكمل من فضلك.

رد بجدية لم أتوقعها:

- دكتور.. علميا وفيزيائيا فإن السفر عبر الزمن ممكن جدا.. وإن كان هناك عدد كبير من العلماء يرونه مستحيلا من ناحية التطبيق.. خاصة حين يتعلق الأمر بالسفر إلى الماضي.. والسبب هو استنادهم لنظرية أطلقوا عليها اسم (نظرية السببية)*.. هل سمعت عنها؟!.

أومأت برأسي إيجابا وأنا أنظر إليه بوجوم.. فأكمل قائلا:

- جميل جدا.. أنت توفر علي الكثير من الشرح.. حسنا..

---

* (نظرية السببية) هي نظرية فلسفية أقرب من أن تكون علمية.. وتتحدث عن أنه لو تمكن المرء من السفر عبر الزمن إلى الماضي وأحدث تغييرا ما.. فسيؤدى هذا بطبيعة الحال إلى حدوث موجة متزايدة من التغييرات يمكن أن يتغير معها شكل العالم بأكمله في النهاية.. فإذا قام شخص باستخدام آلة زمن ليسافر إلى الماضي ويقتل (هتلر) في طفولته على سبيل المثال حتى يجنب العالم ويلات الحرب العالمية الثانية.. فإن هذا سيغير مصير العالم كله بتوازناته وأعداد سكانه وقدراته التكنولوجية والعلمية.. ثم ماذا لو سافر شخص آخر بعده إلى الماضي وأنقذ (هتلر) مثلا؟!.. وجاء بعدها ثالث ليسافر إلى الماضي البعيد ويغير مسار أحد الحروب التاريخية؟!.. عندئذ سيرتبك التاريخ كله على نحو أشبه بالعبث.. لهذا تنص تلك النظرية على أن فكرة السفر عبر الزمن وإلى الماضي تحديدا مستحيلة.. إذ سيكون هناك شيء ما يجهله العلم حتى الآن يمنع تغيير الماضي.. وهو ما أطلقوا عليه اسم (نظرية السببية).. لكن المدافعين عن فكرة السفر إلى الماضي يقولون إنه أمر ممكن جدا كما تشير إليه كل قوانين الفيزياء ولكن المسافر إلى الماضي سيكون مشاهدا للأحداث وليس مشاركا فيها.. تماما كما تشاهد فيلما قديما.. أو كما ترى نجما بعيدا في السماء انفجر منذ شهور مثلا لكن ضوء الانفجار لم يصلك بعد عبر الفضاء فتظن أنه ما زال موجودا في مكانه.

هناك أمر تجهله ويجهله معظم الناس.. فالسفر إلى الماضي ممكن جدا.. بل وحدث مرات عديدة.. لهذا أنا و(لمار) هنا!!!.. بالمناسبة.. هذه الفتاة يجب أن تخرج من المستشفى برفقتي.. إنني الوحيد الذي أملك حمايتها لأنني أعرف جيدا تفاصيل ما جرى لها.

قلت بعدائية واضحة:

- (لمار) لن تخرج من المستشفى إلاّ على جثتي!!!.

رد بطريقة ودية تماما لانت معها ملامحي:

- ستسمح لها بالخروج بكامل رضاك بعد أن تسمع قصتي بالكامل دون أن تقاطعني.. أرجوك استمع إلي.. أنا هنا لمساعدتك.

هذه العبارة الأخيرة أنا من أرددها دوما لمرضاي.. من الغريب أن يقولها هو.. لكني عموما خرست تماما وتركته يتحدث.. ليسألني:

- دكتور.. كم عدد الأبعاد في هذا العالم؟!.

أجبت بثقة:

- 4 أبعاد.. لماذا تسأل؟!.

وضع إصبعه أمامي بانتصار ليقول:

- خطأ.. هناك نظرية شهيرة يعرفها علماء الفيزياء جيدا ويطلقون عليها اسم (نظرية الأبعاد)* حيث اكتشفوا من خلال دراسات طويلة أن عالمنا هذا يحوي أبعاداً كثيرة وليست 4 فقط.

حسنا.. لم أدرك هذه الحقيقة.. هززت رأسي موافقا كون المعلومة قد وصلت.. ثم سألته:

---

* (نظرية الأبعاد) (Dimensions Theory) هي نظرية حقيقية وضع حجر الأساس لها العالم الكبير (ألبرت آينشتاين).. فقد كان المعروف أن الأبعاد ثلاثة فقط.. وهي الطول والعرض والارتفاع.. ثم أضاف (آينشتاين) الزمن كبعد رابع.. وهنا أجريت دراسات كثيرة تحدّث فيها العلماء عن إمكانية وجود أبعاد أخرى كثيرة.. وأن كل بُعد منها له ذبذبة خاصة به.. لهذا لا يستطيع المرء أن يحتك بالأبعاد الأخرى إلا إذا توفرت له طاقة هائلة وإمكانيات تكنولوجية ضخمة لا نمتلكها حاليا.. لاحظوا أننا لا نتحدث عن كواكب أخرى.. بل عن عوالم موجودة على نفس كوكبنا.. بمعنى آخر.. نحن لا نحيا وحدنا في الفراغ الذي يحتله كوكبنا.. وإنما تحتل الفراغ نفسه عوالم كثيرة مجهولة العدد.. وكل منها لا يشعر بوجود العوالم الأخرى بكل ما فيها من حيوان ونبات وجماد.. ويقول العلماء إن تلك العوالم أقرب لنا من ملابسنا التي تحتك بجلودنا!!!.. لكننا لا نشعر بها لأنها تخضع لقوانين فيزيائية مختلفة.. الفكرة غريبة بالفعل وتبدو سخيفة ومعقدة للوهلة الأولى.. إلا أنها نظرية حقيقية تماما لها ما يدعمها وإن لم يثبت صحتها حتى الآن.

- إذا كنت تقول بأنك بالفعل سافرت عبر الزمن.. فلماذا لا يأتي آخرون؟!.. لماذا لا يأتي أحد غيرك من المستقبل ومعه ما يثبت كلامه من تكنولوجيا المستقبل مثلا من معدات وأجهزة؟!!.. ثم ما علاقة الأبعاد بالسفر عبر الزمن؟!.. أنا لا أفهم.

قال باهتمام دون أن يجيب على أسئلتي بصورة مباشرة:

- يجب أن تعلم أولا أن المرء لا يستطيع السفر إلى الماضي وإلى زمن يوجد فيه كطفل صغير مثلا.. هذا مستحيل تماما.. فلا يمكن أن تتواجد بمكانين في آن واحد.. لذا فإن السفر إلى الماضي ممكن فقط إذا عدت إلى زمن يسبق ولادتك.. لكن ما لا يعرفه أحد هو أنك عندما تسافر إلى الماضي فإنك ستبدأ في بناء خط زمني جديد سيتشكل بدوره في بُعد جديد.. لتبدأ مجريات أحداث البُعد بالتغيير بسبب وجودك فيه.. دعني أوضح لك الصورة أكثر.. لنفترض أن الزمن في حياتك بأكملها هو من (A) إلى (B).. حيث (A) يمثل حاضرك و(B) هو مستقبلك.. وعندما تتمكن من السفر إلى الماضي.. ستكون حينها قد بدأت بخط زمني جديد.. إذ لن يكون مستقبلك حينها (B).. بل سيكون (C) على سبيل المثال.. هل فهمتني الآن؟!.

بدأت أفهم ما يريد قوله بالفعل.. وبدا هذا واضحا على ملامحي كما يبدو.. لذا أكمل بحماس:

- الكثيرون في المستقبل البعيد يسافرون إلى الماضي بعد اختراع آلات زمن بتكنولوجيا مختلفة.. لكن كل شخص سافر إلى الماضي يكتشف أنه قد قام بتشكيل خط زمني جديد في بُعد جديد ستتغير أحداثه تدريجيا عن الخط الزمني الذي جاء منه.. هكذا تتشكل الأبعاد يا دكتور.. أي أن الأحداث بين الخطين الزمنيين تزداد تباعدا واختلافا مع الوقت.. فلا يمضي قرن آخر حتى يصبح كل بعد عبارة عن عالم مختلف تماما عن الآخر بأحداثه السياسية والاقتصادية وتركيبته السكانية.. لهذا تجد في كل بُعد أحداثا تاريخية مختلفة عن البعد الآخر.. فهناك بُعد انتصر فيه (هتلر) مثلا.. وآخر استمر فيه استعمار (بريطانيا) لـ(أمريكا).. بل وقد يكون هناك بُعد لم يظهر فيه البشر أصلا إذا كان أحدهم قد سافر إلى الماضي السحيق قبل ظهور الديناصورات وأحدث تغييرا جذريا فيه فتغير مجرى تاريخ الخط الزمني بأكمله.. وهكذا*.

---

* كل ما قيل هو نظرية علمية حقيقية يعتنقها عدد كبير من العلماء لكن لم تثبت بصورة قاطعة حتى الآن.

رواية متكاملة الجوانب فعلا!!!.. أنا لم أفهم الفيزياء في حياتي كما فهمتها الآن.. لذا سألته بصوت يشوبه الذهول:

- ولكن كيف يتم بناء خط زمني كامل في بعد جديد بسبب سفر شخص واحد إلى الماضي؟!.. نحن نتحدث عن أرض أخرى بجميع كائناتها وجبالها وبحارها.. إلخ.. بل نتحدث عن كون آخر بأكمله!!!.

يا إلهي.. إنني أوجه له هذا السؤال وأشعر في قرارة نفسي بأنني أميل لتصديق كلامه!!!.. رد على سؤالي باهتمام شديد ليقول:

- بل نفس الكون ونفس الأرض التي نعيش عليها.. ولكن في بُعد آخر بذبذبة مختلفة لا نشعر بها كما قلت لك.. أجبني أولا حتى تفهم أكثر.. هل تعرف (نظرية الأوتار) يا دكتور؟!.

نظرت إليه بجهل.. فقال مباشرة:

- إنها نظرية فيزيائية شهيرة تقول إن كل ما هو موجود في هذا الكون من أصغر جزيء وحتى أكبر مجرة يتكون من عنصر واحد فقط.. خيوط مهتزة متحركة دقيقة جدا من الطاقة أطلق عليها العلماء اسم (أوتار).. فكما

أن وتر الكمان يستطيع أن يعطي تشكيلة كبيرة من النغمات الموسيقية بحسب درجة اهتزازه.. تعطي أوتار الكون أشكال أخرى مختلفة إذا عرفنا كيف نتحكم بها.. بعبارة أخرى فإن الكون كله عبارة عن سيمفونية عظيمة متمثلة بكل تلك النغمات التي تستطيع أوتار الطاقة إصدارها.. وعندما تسافر إلى الماضي فإنك تحدث تغييرا هائلا في هذه الأوتار وتعطي لحنا كونيا جديدا.. هذا اللحن الجديد هو البُعد!!!.. هكذا تتشكل الأبعاد.. ففي كل مرة يسافر شخص إلى الماضي فإنه يعبث في تلك الأوتار مما يتسبب بتشكيل خط زمني جديد في بُعد جديد.. كلمة السر هي (نظرية الأوتار)*.

سألته بغباء:

- تقول إنك عندما تسافر عبر الزمن فإنك تعبث بالأوتار كما تنص تلك النظرية.. لذا فإنك تحدث نغمة جديدة يتشكل على ضوئها خطاً زمنياً في بُعد جديد.. وتبدأ

* نظرية حقيقية تماما لكنها لا تزال في مرحلتها (الجنينية) إن صح التعبير.. وهي تكشف لنا صورة جديدة لم نكن نعلمها عن الكون.. المشكلة هي أننا لا يمكننا التأكد حاليا من وجود تلك الأوتار لصغرها الشديد وعدم وجود أي أجهزة تستطيع رصدها.. لكن افتراض وجودها يجيب على أسئلة كثيرة في علم الفيزياء والفلك.. لهذا يرجح العلماء أن يتم إثبات تلك النظرية في المستقبل.

بعدها الأحداث تتباعد بين الخط الزمني الأصلي الذي جئت أنت منه والخط الذي صنعته بسفرك عبر الزمن.. حسنا.. كيف تتباين الأحداث ليكون هناك بُعدا انتصر فيه (هتلر).. وآخر ما زالت فيه (بريطانيا) تحتل (أمريكا).. وآخر لم يظهر فيه البشر أصلا على حد قولك؟!.. كيف تتباين الأحداث وتتغير بهذه الصورة الضخمة بين البُعدين لمجرد سفر شخص واحد فقط إلى الماضي؟!.. هذا تأثير بالغ الصغر ويكاد لا يذكر!!!.

قال مستغربا وكأنها معلومة سهلة يفترض أن أعرفها:

- إنه (تأثير الفراشة)* يا دكتور.. ألم تسمع عنه؟!.

---

* (تأثير الفراشة) (Butterfly Effect) هي نظرية شهيرة تتحدث عن أن هناك أحداثا صغيرة تجري في حياتنا ونظن أنها تافهة جدا لا تستحق الذكر.. لكنها تسبب مع مرور الزمن تغييرات هائلة تنتهي بنتائج وخيمة.. ودائما ما نسمع تلك العبارة حين يحاول أحدهم شرح النظرية: ((إذا قامت فراشة بتحريك جناحيها في البرازيل.. فإنه سيترتب على ذلك حدوث إعصارا في الصين)).. قد يبدو لك الكلام تافها في البداية.. لكنك إذا تتبعت أحداث العالم بدقة.. فستجد أن الكثير من الحوادث الضخمة تحدث بسبب أحداث صغيرة تافهة غير ملحوظة لنا.. ومصطلح (تأثير الفراشة) عموما استوحاه العلماء من قصة للكاتب الشهير (راي برادبوري) عن رجل سافر عبر الزمن إلى الماضي السحيق في زمن الديناصورات.. وأثناء تجواله بين الديناصورات.. داس على فراشة صغيرة كانت تقف وسط الأوحال.. حادث تافه جدا بالطبع.. لكن الرجل حين يعود إلى الحاضر يكتشف أن كل شيء حوله قد تغير.. وحتى شكل المباني ولون السماء.. فالتغيير التافه الذي أحدثه في الماضي=

=السحيق قد تراكم على مدى ملايين السنين ليؤدي إلى تغييرات هائلة ومؤثرة على المستقبل البعيد.. والنظرية تتماشى إلى حد كبير مع تعبيرنا العربي (معظم النيران تأتي من مستصغر الشرر).. وهناك فيلم شهير يشرح تلك النظرية بطريقة رائعة ولكن بصورة غير مباشرة.. وهو فيلم (Contagion).. ففي هذا الفيلم ينتشر فيروس مجهول المصدر في كل أنحاء العالم ويتسبب بقتل الملايين دون أن يعرف أحد مصدره.. وفي نهاية الفيلم ينكشف السر.. إذ نرى أحد العمال في الصين وهو يقود جرافة (بلدوزر) لشق الطرق وتمهيدها.. حيث يصطدم بشجرة كان يقف عليها مجموعة من الوطاويط.. فتقع الشجرة وتهرب الوطاويط خوفا.. إحدى هذه الوطاويط كانت تحوي فيروسا مجهولا حصلَت عليه بطفرة وراثية.. المهم أن هذا الوطواط -وأثناء هروبه- عثر على شجرة موز.. فقضم قطعة صغيرة من الموز وحملها في فمه ليطير بعيدا ويقف على أنبوب مياه موجود على سقف حظيرة صغيرة للخنازير حتى يلتهم تلك القطعة.. وأثناء التهامه لها.. تسقط من فمه قطعة صغيرة جدا من بقايا الموز لتقع وسط الحظيرة.. فيلتهمها أحد الخنازير ليحمل بدوره الفيروس.. ثم يقوم أحد المطاعم بشراء مجموعة خنازير من تلك الحظيرة.. وفي المطعم نرى الطباخ وهو ينظف الخنزير الذي التهم تلك القطعة.. ولكن.. أثناء عملية التنظيف يناديه أحد زملائه ويطلب منه أن يلتقي بسائحة أمريكية كانت تريد التقاط صورة تذكارية مع الطباخ الذي سيطبخ لها الخنزير.. فيمسح يده بثيابه ويخرج ليلتقي بها ويصافحها لينقل لها الفيروس.. ثم تسافر الأمريكية إلى بلدها في اليوم التالي.. وهناك يبدأ الفيروس عمله فينتشر المرض ليموت بعدها ملايين الناس.. وفي (الصين) ينشر الطاهي الفيروس أيضا ليصبح الوباء عالمي.. كل هذا بسبب جرافة اصطدمت بشجرة موز وهرب منها وطواط.. حادثة صغيرة ممكنة الحدوث في عالم الواقع استغرقت بضعة أيام وغيرت مجرى العالم.. فكيف بحادثة صغيرة أخرى مر عليها ملايين السنين؟!.. تخيلوا حينها حجم التغييرات التي ستبنى عليها!!!.



بالطبع.. سمعت عن تلك النظرية كثيرا.. أومأت برأسي إيجابا.. فقال بانتصار:

- هذه النظرية تفسر كيفية تباعد الأحداث شيئا فشيئا بعد وصول المسافر إلى الماضي ليبني خطا زمنيا جديدا.

قلت وقد بدأت -لا شعوريا- أصدق كلامه وأتفاعل معه:

- إذاً أنت تقول إنك انتقلت إلى الماضي.. وانتقالك هذا شكل خطا زمنيا جديدا.. لكن.. كيف سافرت عبر الزمن إلى الماضي؟!.. كيف تمكنت أنت وغيرك في المستقبل من صنع آلة زمن؟!.. أعلم أن الطاقة التي ستحتاجها ضخمة جدا لا يمكن أبدا الحصول عليها.. ثم إنك لم تجبني حين سألتك إن كنت قد جئت بمعدات أو أجهزة تثبت أنك قادم من المستقبل!!!.

أجاب بسرعة ملوحا بيديه وكأنه ينفي عن نفسه تهمة:

- مهلا.. مهلا.. مهلا.. أنا لم أقل إنني من المستقبل.. أنا لست من المستقبل ولم أصنع أي آلة زمن!!!.

قلت في حيرة:

- إذا ما الذي تريد قوله؟!.

رد موضحا:

- ما فعلته هو أمر مختلف تماما.. لقد صنعت جهازا خاصا ينقلني بين الأبعاد.. بين الخطوط الزمنية التي شكلها المسافرون عبر الزمن.. فانتقلت إلى البعد الذي تعيش أنت فيه الآن.. هل تفهمني؟!.. عالمك هذا بأكمله هو مجرد خط زمني تشكل في بُعد جديد بعد أن سافر إليه شخص ما من المستقبل.. إن الجهاز الذي صنعته يقوم بتفكيك جزيئات جسدي وتغيير ذبذباته.. ومن ثم نقله بعد ذلك إلى بُعدكم هذا حيث عادت جزيئات جسدي لتتشكل وتتجسد فيه من جديد.. تماما كما يحدث مع أجهزة الفاكس.

غمغمت باستغراب:

- أنت تتحدث عن الانتقال الآني*!!.

رد بإعجاب:

- بالضبط.. لقد استخدمت الانتقال الآني معتمدا على علم

---

* الانتقال الآني هو مصطلح يُطلق على انتقال الجسم المادي عن طريق تفكيك جزيئاته من مكان.. بحيث يعاد استقبالها وإعادة تجسيدها إلى مكان آخر.. كما يحدث تماما عند إرسال الفاكس.. وهناك بالفعل تجارب عديدة في هذا الشأن حققت نجاحات محدودة.. إلا أن نتائجها مشجعة جدا كما يرى العلماء.

يطلق عليه اسم (تكوين الأشكال)*.. هذا العلم ساعدني كثيرا للعثور على وسيلة لتفكيك ذرات جسدي ومن ثم نقلها -عبر جهاز صنعته بنفسي- إلى بعد آخر.. وهو البعد الذي أتواجد فيه الآن معك!!!.. أعلم أن الخيال العلمي يتحدث دوما عن السفر عبر الزمن أو إلى كواكب أخرى.. لكن قلة يجهلون أن هناك سفرا عبر الأبعاد أيضا.. بل قلة يعلمون أن هناك أبعاداً أخرى على كوكب الأرض أصلا.

* (تكوين الأشكال) (Morphogenesis) هو علم حقيقي اكتشفه (آلان تورينج) (Alan Turing) وهو عالم رياضيات شهير بريطاني الجنسية توفي في منتصف القرن الماضي.. وقد اشتهر بعقليته الفذة حين نجح في الحرب العالمية الثانية بفك شفرات الجيش الألماني وكان نقطة تحول في انتصار الحلفاء في الحرب.. لقد كان (آلان تورينج) أول من يقحم الرياضيات في علم الأحياء.. إذ كان يمتلك مقدرة رهيبة على رؤية الأنماط المخفية عن عيوننا.. فطرح تساؤلات لم يطرحها أحد من علماء الأحياء قبله.. منها تساؤلاته الشهيرة عن كيفية أن تكون كل خلايا الجنين متشابهة ثم تتجمع بعد ذلك وتتشكل شيئا فشيئا لتصبح مختلفة عن بعضها بعضا.. فيتحول بعض منها إلى عين وأخرى إلى أنف.. وأخرى إلى ساق.. إلخ.. تماما كما تنظّم حبيبات الرمل نفسها إلى كثبان رملية وغبار رغم أن كلها حبيبات رملية متشابهة في النهاية.. والأمر شبيه بما يحدث مع باقي أجنة الكائنات الحية أيضا.. كتشكل الخلايا لتظهر البقع على البقرة.. أو الخطوط على الحمار الوحشي.. أو النقط على الزرافة.. إلخ.. لذا قام (آلان تورينج) بابتكار معادلات رياضية معقدة في عام 1952 لوصف كيفية حدوث عمليات تتسبب بها مواد كيميائية وراثية داخل الجسم لتتشكل خلايا أجنة جميع الكائنات الحية وتنظم نفسها بنفسها ليظهر كل منها بالشكل الذي نعرفه.

بهت تماما لكلامه.. لكنه أكمل بحزن شديد:

- المشكلة أن الكثيرين حاولوا الانتقال عبر الأبعاد باستخدام الانتقال الآني لكن انتقالهم لم يكن مثاليا لعدم درايتهم التامة بعلم (تكوين الأشكال).. لهذا كانت تحدث أحيانا أخطاء بيولوجية مؤسفة أثناء تجميع جزيئات الإنسان وتشكلها مرة أخرى.. لقد قرأت أثناء بحثي عبر شبكة المعلومات في هذا البُعد عن ما حدث في قرية (Wooplit) التي تقع في مقاطعة (Suffolk) البريطانية.. حيث شهدت تلك القرية في القرن الثاني عشر ظاهرة غريبة لم يفهمها أحد آنذاك.. حين خرج من أحد الكهوف القريبة طفلان ذوا بشرة خضراء بشكل غريب وملحوظ أمام مرأى عدد كبير من الفلاحين.. لقد كان هذان الطفلان نتاج تجربة فاشلة قام بها أحد العلماء حين نقلهما إلى هذا البُعد.. إذ لم تتجمع جزيئاتهما مرة أخرى كما يجب مع الأسف.. فمات الولد سريعا بعد وصوله ببضعة أيام وماتت الفتاة بعده بسنوات قليلة*.

---

* واقعة حقيقية مذكورة في عشرات المراجع العلمية.. والمذهل في الأمر أن لون بشرة الطفلين وشعرهما كان أخضر داكن بلون الزرع وكانا يرتديان ثيابا غريبة مصنوعة من مادة مجهولة.. أما ملامحهما فقد كانت شبيهة جدا بالملامح الآسيوية.. لذا فقد أصيب أهل القرية بصدمة مروعة وهم يحدقون بالطفلين بذهول شديد.. وما زاد الموقف توترا هو بكاء الطفلين الشديد والخوف الذي كان واضحا على ملامحهما =

=خاصة وأن عمريهما لم يكن يتجاوز الـ 7 أعوام في أفضل الأحوال.. الأمر أثار شفقة أهل القرية كثيرا.. فاقتربوا منهما لتهدئتهما.. في حين حاول البعض التحدث إليهما إلا أن الطفلين بدا وكأنهما لم يفهما شيئا.. بل وتفوها بكلمات غريبة لم تكن تنتمي إلى أي لغة معروفة.. وأمام كل هذا الغموض.. سارع الفلاحون إلى القاضي الذي كان أكثر الناس علما وثقافة في القرية والذي أصيب بدوره بدهشة شديدة عند رؤيته لهذين الطفلين.. إلا أنه تصرف بحكمة عندما طلب من أهالي القرية أن يتركوهما في منزله على أن يقوم برعايتهما بنفسه.. وعبثا حاول معرفة اللغة التي يتحدث بها الطفلان.. إلا أنه عجز عن ذلك تماما.. كما حاول بدوره إطعامهما لكنهما استمرا في رفضهما للأكل.. إلى أن اكتشف أنهما يحبان الفاصوليا كثيرا.. فأصبحت هي طعامهما الوحيد، ولكن الصبي لم يحتمل هذا الوضع السيئ، فأصيب بهزال عام أدى إلى موته بعد فترة بسيطة، أما بالنسبة للفتاة فقد أصيبت بحزن واكتئاب شديدين بسبب موت الصبي وظلت على هذا الحال لفترة طويلة، لكنها مع مرور الوقت بدأت تتأقلم مع الحياة في القرية.. وكان القاضي يحاول بشغف أن يعلمها اللغة الانجليزية حتى يستطيع أن يكشف عن الغموض المحيط بظهورهما الغامض ولون بشرتهما الغريب.. وبعد فترة.. بدأت الفتاة تتحدث الإنجليزية بالفعل.. إلا أنها قد ضاعفت من الغموض المحيط بقصة ظهورها مع الصبي -الذي اتضح أنه شقيقها- عندما ذكرت بأنها دخلت معه أحد الكهوف في عالمها وهناك سمعا صوتا جميلا شبيها بالجرس يأتيهما من مسافة بعيدة داخل الكهف.. فتتبعا ذلك الصوت ولكنهما ضلا طريقهما في متاهات الكهف.. إلى أن وجدا المخرج الذي أوصلهما إلى هذا المكان.. وبعد حوالي خمس سنوات من ظهورها.. توفيت الفتاة.. وقام أهل القرية بدفنها قرب شقيقها.. وعلى الرغم من غرابة هذه القصة التي قد لا يصدقها البعض.. إلا أنها حقيقية تماما ذكرتها العديد من المراجع العلمية المعتمدة والسجلات الرسمية على الرغم من كل ما ينقصها من توضيح.. فمن هما هذان الطفلان؟!.. وأين هو عالمهما؟!.. ومن أين لهما بهذه البشرة الخضراء الغريبة؟!.. وكيف وصلا إلى تلك القرية؟!.. أسئلة كثيرة ظلت دون إجابة.. ومع الأسف لم يكن الطب الشرعي في ذلك الوقت متطورا بما فيه الكفاية مما كان سيكشف الكثير من الأمور المتعلقة بهذا اللغز.. كما أن المسئولين في الماضي كانوا يكتفون بتوثيق المعلومات الأساسية فقط من الوقائع، دون ذكر التفاصيل الدقيقة منها، والتي كانت ستساهم كثيرا دون شك في مساعدة العلماء في إيجاد تفسير لهذه الحادثة التي تتحدى المنطق.. لقد خرجت إحدى النظريات التي تقول بأن هذين الطفلين قد أتيا من بعد آخر، أو من كوكب آخر، وقال البعض إنهما من عالم الجن، إلا أن كل ما ذكر كان مجرد نظريات، لم يتم إثبات أي منها حتى يومنا هذا.

استمعت إليه بذهول غير مصدق أنه يعرف هذه القصة.. لقد قرأت عنها أثناء تعلقي بكتب عالم ما وراء الطبيعة في فترة مراهقتي وها هو يعيدها إلى ذاكرتي!!!.. يا إلهي.. هذا الرجل على وشك إعطائي قصة محكمة بالفعل.. مهلا.. تذكرت أمرا هاما.. سألته وعلامات التفكير بادية على ملامحي:

- من هذا الوغد الذي يخاطر بحياة طفلين بريئين ليسافرا معه إلى بُعد مختلف؟!.. بل ولماذا خاطرت أنت بحياة فتاة بريئة لا دخل لها بتجاربك وجلبتها معك؟!!.

أسعده كثيرا اقتناعي التام بقصته.. بالطبع يا صديقي.. فما رأيته في حياتي يجعل عقليتي مختلفة تماما عن أي إنسان آخر.. المهم أنه قال بسرعة وكأنه ينفي عن نفسه تهمة خطيرة:

- أنا لم أتعمد أخذ (لمار) معي.. فأنا كنت مقيم في (كويت) أخرى موجودة في بُعد آخر كوني أحتاج إلى كمية ضخمة من الطاقة الشمسية التي تغذي جهازي.. طاقة كهذه لا أحصل عليها إلا من خلال بلد مشمس طوال العام.. لهذا اخترت (الكويت) الموجودة في بُعدي.. وقد كنت أقطن في البيت المجاور لبيت (لمار).. فوصل إليها تأثير الجهاز ونقلها معي كونها كانت على مسافة قريبة.. فطريقة عمل جهازي تتمثل بصنع مجال كبير من الطاقة تتفكك

فيه جزيئات جسدي ومن ثم يتم نقلها إلى بُعد جديد كما أخبرتك.. المشكلة أن الجهاز العصبي لـ(لمار) -والذي يحوي كمية محدودة من الكهرباء كحال جميع الكائنات الحية- عمل كإشارة استقبال وتأثر بمجال الطاقة الذي صنعه جهازي لتنتقل معي دون علم مني!!!.. تماما كما يؤثر جهاز إرسال الانترنت على نطاق محدد.. أما بخصوص الطفلين الأخضرين فيبدو أنهما قد انتقلا دون قصد.. تماماً كما حدث مع (لمار)!!.

مططت شفتي وأنا أسأله:

- لكن لماذا (لمار) تحديدا هي التي انتقلت معك وليس أفراد أسرتها مثلا كونهم كانوا جيرانك وفي نفس محيط نطاق الطاقة الذي صنعه جهازك كما تقول؟!.

قال بذهول حقيقي وكأنه تذكر حقيقة ما:

- لم أعرف إجابة هذا السؤال إلا ليلة أمس فقط.. لقد تأثرت (لمار) فقط بحقل الطاقة الذي صنعه جهازي.. لأنها.. لأنها.. كانت على وشك الموت لحظة انتقالي إلى بُعدكم!!!!.

نظرت إليه بغباء دون أن أفهم.. فأكمل باهتمام شديد:

- نعم يا دكتور.. لقد كانت (لمار) تلفظ أنفاسها الأخيرة لحظة انتقالي إلى هذا البُعد.. أعتقد أن تأثير جهازي يتفاعل مع الكهرباء التي تنبعث من الجهاز العصبي لجميع الكائنات الحية القريبة منه والتي تكون على وشك الموت.. هذا ما أكّدته حساباتي.. لقد كانت (لمار) على وشك الموت حينها.. وهذا ما جعل الكهرباء المنبعثة من جهازها العصبي متجانسة لسبب لا أفهمه مع حقل الطاقة الذي صنعه جهازي.. فانتقلت المسكينة معي.

هل يعقل هذا؟!.. هل كانت (لمار) تلفظ أنفاسها الأخيرة كما يقول؟!.. ربما.. فالحزن الشديد الذي مرت به ليلة موت حبيبها قد يكون أصابها بنزيف داخلي.. أمر كهذا وارد جداً.. بل وقد يحدث أيضاً في حالة الفرح الشديد*.

سألته مرة أخرى:

- ولكن.. أنت لم تكن على وشك الموت ومع ذلك انتقلت إلى بُعدنا هذا!!!.. كيف؟!.

أجاب موضحا:

- لقد كنت أنا في قلب حقل الطاقة الذي صنعه جهازي..

* حقيقية.

فتفككت جزيئات جسدي لأنتقل إلى بُعدكم بصورة اعتيادية.. أما (لمار) فكانت على مسافة بعيدة نسبيا وعلى حدود حقل الطاقة هذا.. هناك فارق.. وكما ذكرت لك.. الأمر يشبه جهاز إرسال موجات الانترنت التي تضعف قوتها تدريجيا كلما ابتعدت عنها.. ويبدو أن قوة الحدود الخارجية لحقل الطاقة الذي صنعه جهازي تناسبت فيزيائيا وبصورة لا أفهمها مع كل من هم في نطاقه وكانوا على وشك الموت.. ولم يكن هناك أحد على وشك الموت لحظتها سوى (لمار).. فانتقلت معي!!.

سكت قليلا ثم قال بغموض:

- ألم تسأل نفسك يا دكتور لماذا تُكتشف أنواع جديدة من الكائنات الحية بين الحين والآخر؟!.. إنها في الواقع كائنات قادمة من أبعاد أخرى.. فقد كانت على وشك الموت وتصادف وجودها على بعد مسافة قريبة من أشخاص انتقلوا عبر الأبعاد.. فانتقلت تلك الكائنات معهم دون قصد.. أدرك جيدا أن كلامي هذا لا يشرح لك لماذا عاد الذين كانوا على وشك الموت إلى الحياة مرة أخرى كما حدث لـ(لمار) ولغيرها حال انتقالهم للبُعد الجديد.. فهذا لغز لا أعرف له حلا حتى الآن!!.. ربما يتعرضون

أثناء عملية الانتقال غير المقصودة إلى صدمة فيزيائية -إن صح التعبير- أنعشت جهازهم العصبي وأعادتهم إلى الحياة أثناء وصولهم لبُعد جديد.. تماما كما يحدث عندما نصعق الميت بالكهرباء ليعود قلبه إلى العمل!!!.

هذه.. هذه قصة غريبة.. لا.. إنها ليست غريبة.. بل لها طابع ومذاق لا أستطيع أن أصفه أو أستوعبه للوهلة الأولى.. عوالم مختلفة كل منها يقع في بُعد مختلف لكن جميعها على كوكب الأرض؟!!.. وكل من هذه العوالم تَشَكّل بسبب سفر أحدهم عبر الزمن إلى الماضي مما تسبب بالتبعية ببناء خط زمني جديد؟!!.. و.. أمام استغرابي الذي لم يتوقف.. سألته للمرة الأخيرة:

- لماذا تفعلون هذا.. لماذا تنتقلون عبر الأبعاد أصلا؟!.

قال بشيء من الحزن:

- في البداية كان السفر عبر الزمن إلى الماضي محاولة من البعض لتغيير أحداثه.. ثم استوعب كل مسافر أنه في واقع الأمر يصنع خطاً زمنياً جديداً يكوّن بُعدا جديدا.. من هنا جاءت فكرة السفر عبر الأبعاد والتي يمارسها الكثير من العلماء دون علم عامة الناس.. بالنسبة لي فقد تنقلت بين الأبعاد كثيرا إلى أن قررت الاستقرار في هذا البُعد تحديدا..

لقد كنت أبحث عن واقع أجمل من واقع عالمي.. فالبُعد الذي ولدت فيه وأتيت منه تدور فيه حرب أهلية طاحنة في (الولايات المتحدة الأمريكية) منذ مدة طويلة.. أما هنا فالأمر مختلف تماماً كما تعلم.. وهذا ما جعلني أقرر أن أعيش في هذا البُعد الذي انتقلت إليه منذ 4 أيام فقط.. إنه أفضل العوالم بالنسبة لي.

قلت مغمغما:

- لكن.. هذا الانتقال المستمر من بُعد لآخر سيسبب لك تداخلات في الأحداث قد تصيبك بالجنون.. أي الأبعاد تلك هو العالم الأصلي؟!.

تنهد وهو يقول:

- لا أحد يعلم!!!!.. بل ولا أحد يعلم عدد الأبعاد أصلا.. هناك العشرات منها.. وفي كل بعد تجد العالم فيه مختلفا تماما.. شخص واحد يعود إلى الماضي.. فيصنع خطاً زمنياً جديداً في بُعد جديد تحدث فيه تغييرات هائلة تشرحها لنا نظرية (تأثير الفراشة).. فتتباعد أحداث الزمن الذي جاء منه مع الخط الزمني الجديد الذي قام ببنائه.. ليصبح كل عالم ذا واقع مختلف عن العوالم الأخرى مع مرور السنوات.

سألته باهتمام:

- وكيف حال (الكويت) في البُعد الذي ولدت فيه قبل بداية تنقلك عبر الأبعاد؟!.

سؤال يبدو ساخرا سخيفا.. لكنه أجاب بصدق:

- أفضل حالا.. أفضل حالا بكثير!!!!.

كنت أشعر أنني على وشك أن أقضي أياما مع هذا الرجل لأفهم منه المزيد من التفاصيل.. هناك أمور كثيرة أحتاج إلى فهمها.. لذا حاولت استغلال الوقت لأطرح أكبر عدد من الأسئلة.. و:

- حسنا.. هناك نقطة هامة جدا لم أفهمها.. كيف يحدث أن تتواجد (لمار) هنا في المستشفى.. في حين الرجل الذي ادعت أنه والدها لديه ابنة أخرى اسمها (لمار) أيضا وتشبه كثيرا تلك الموجودة في المستشفى لكنها تكبرها بعامين؟!!.

أجاب مبتسما:

- الأمر معقد قليلا.. حسنا.. دعني أشرح لك بهذا المثال البسيط.. هناك شخص من المستقبل البعيد سافر إلى الماضي.. وإلى عام 1980.. فقام بالتبعية بتشكيل خط

زمني جديد في بُعد جديد هو الذي وُلدت فيه (لمار) الموجودة في المستشفى الآن.. وهناك شخص آخر سافر إلى الماضي وإلى عام 1978.. حيث قام هو الآخر بتشكيل خط زمني جديد وبُعد جديد هو الذي ولدت فيه (لمار) الأخرى.. لقد أصبح لدينا هنا خطان زمنيان في بعدين مختلفين كما ترى.. لكن الفارق الزمني بينهما بسيط للغاية.. لذا فإن الاختلافات بين البعدين ليست كبيرة حتى الآن كونها بدأت منذ أقل من 35 عاماً.. لكن مع مرور السنوات والقرون ستتباعد أحداث كل بُعد عن الآخر تدريجياً.. تماما كما تخبرنا نظرية (تأثير الفراشة) الشهيرة.. فوالدة (لمار) الموجودة في المستشفى الآن والتي جاءت معي من بُعد آخر أنجبتها عام 1993 مثلا.. أما والدتها في هذا البُعد فقد أنجبتها عام 1991.. هناك اختلافات جينية طفيفة وظروف مختلفة تحدث بين ولادة وأخرى لذا ستتشابه الفتاتان كثيرا لكن ليس إلى درجة التطابق.. فنحن لا نتحدث عن الاستنساخ هنا.. ولو أن والدة (لمار) في هذ البعد قد تزوجت من رجل آخر مثلا لما تشابهت الفتاتان إلى هذه الدرجة.

حسنا.. هذا الكلام سيصيبني بالصداع.. كنت أظن أن فكرة السفر عبر الزمن معقدة.. لكن اتضح الآن أنها تصلح كقصص

أطفال مقارنة مع السفر عبر الأبعاد!!!.. حاولت أن أفهم أكثر.. فسألت الرجل الذي لم أعرف اسمه بعد:

- لكن كيف تختار موقع انتقالك؟!.. ما الذي يمنع أن تكون في (الكويت) وتنتقل لبعد آخر فتجد نفسك في (هولندا) مثلا.. ثم.. كيف عرفت أن (لمار) في مستشفى الطب النفسي أصلا؟!!.

أجاب مباشرة:

- المشكلة أنني لا أستطيع تحديد أو اختيار مكان وصولي في البُعد الذي سأنتقل إليه.. لكن عموما فإن جهازي ينقلني إلى البُعد الجديد وبمسافة قريبة نسبيا من النقطة التي سافرت منها في بُعدي الأصلي.. لقد انتقلت إلى هذا البُعد لأجد نفسي في منطقة (اليرموك) وتفاجأت من قراءات جهازي أن هناك شخصا آخر انتقل معي ولكنه تجسّد في منطقة (الدوحة).. إن خريطة العالم لا تتغير كثيرا بين الأبعاد.. إلا في تلك التي سافر فيها أحدهم إلى الماضي السحيق وأحدث تغييرا جذريا في تاريخ الخط الزمني.. أما الأبعاد التي انتقلت إليها لم أجد فيها تغييرات بيئية ومناخية ضخمة.. ربما لأن من صنعوا تلك الخطوط الزمنية لم يسافروا إلى الماضي البعيد.. بل إلى

50 عاما مضت مثلا.. أو أكثر قليلا.. ففي كل بعد انتقلت إليه أجد دوما (الكويت) و(بريطانيا) و(استراليا).. إلخ.. أما عن كيفية معرفتي بوجود (لمار) في المستشفى فقد ذهبت إلى نقطة تجسّدها في منطقة (الدوحة) كما أشار جهازي.. وظللت أجول المنطقة لبضعة أيام لم أتوقف فيها إلا للراحة.. المشكلة أنني لم أكن أعلم إن كان من انتقل معي إلى هذا البُعد رجل أم امرأة أو حتى كائن حي آخر.. لكني كنت مصرا على التأكد من هويته والعثور عليه.. ربما بسبب تأنيب الضمير كونه وجد نفسه في واقع آخر لا يعرفه سيجعله يشك حتى في قواه العقلية.. في النهاية.. تذكرت أن مستشفى الطب النفسي ليس بعيدا عن منطقة (الدوحة).. وبإمكان من انتقل معي أن يصل إليه بعد ساعات قليلة من المشي.. هذا ما قادني إلى المستشفى.. فسألت الممرضات عند وصولي إن كان هناك شخص مريب قد زار المستشفى في الأيام الأربعة الماضية.. لتخبرني إحداهن عن وجود فتاة في سن المراهقة وصلت إلى المستشفى في ظروف غريبة جدا منذ أيام قليلة.. لكنها سكتت فجأة وكأنها تذكرت أنها ليس من المفترض أن تقول شيئا كهذا.. وأمام إلحاحي.. طلبت مني زيارة غرفتك والتحدث إليك.

سألته بحدة غير مقصودة:

- أين هو جهازك هذا الذي ينقلك عبر الأبعاد؟!.

أخرج من جيبه جهازا صغيرا لم أرَ مثله في حياتي.. جهاز بحجم الهاتف النقال لكنه شفاف ويحوي نقاط زرقاء وخضراء وكأنه.. وكأنه من عالم آخر.. أو فلنقل من بُعد آخر!!!!.. ليقول بعدها الرجل وعيناي تحدقان في الجهاز باهتمام:

- دكتور.. أستطيع أن أعيش في هذا البُعد بعد أن قررت الاستقرار فيه إلى الأبد كونه أفضل الأبعاد بالنسبة لي كما أخبرتك.. إنني على قدر لا بأس به من الثراء.. وأنتقل بين الأبعاد بعد أن اشتريت بكل أموالي قطع من الألماس أخبئها في جيبي كونها أسهل نقلا.. وأعتقد أيضا أنني أستطيع أن أهتم بأمر (لمار).. فلن يفهم هذه الفتاة سواي.. لأنني من عالمها ومصلحتها أن تأتي معي.. هل تستطيع أن تخرجها من المستشفى يا دكتور؟!!.

غمغمت قائلا:

- إنني لم أسجل دخولها للمستشفى أصلا حتى الآن.. ولا يعلم أحد بوجودها هنا سواي مع بعض الممرضات اللاتي أثق بهن.

تنفس الصعداء وهو يقول:

- هذا رائع.. رائع.. أرجوك إذاً دعها تخرج معي إن كنت تريد مصلحتها.. سأهتم بها كثيرا.. سأتمكن من استخراج هوية لها في (الولايات المتحدة الأمريكية).

وجدت نفسي لا شعوريا أمسك بسماعة هاتفي وأطلب رقما داخليا.. لحظات قبل أن ترد الممرضة على الطرف الآخر لأقول لها بلهجة آمرة أن تأتي بـ(لمار) فورا.. وأثناء ذلك.. سألت الرجل وما زال عقلي تحت تأثير الصدمة:

- ماذا عن السفر إلى المستقبل؟!.. هل يحدث نفس التأثير؟!.. هل يتشكل بسببه خط زمني جديد في بُعد جديد؟!.

رد ببساطة:

- السفر إلى المستقبل لا يعبث بقوانين الفيزياء كما يفعل السفر إلى الماضي.. لذا من السهل أن أسافر إلى المستقبل.. لكن السفر إلى الماضي هو المشكلة.. هو الذي تتشكل بسببه خطوط زمنية أخرى في أبعاد جديدة.. وعموما فأنا لم أسافر عبر الزمن من قبل.. سواء للماضي أو المستقبل.. فلا أعلم الكثير عن ذلك.. إن الانتقال عبر الأبعاد أسهل

نسبيا من السفر عبر الزمن لاعتبارات فيزيائية كثيرة.

تنهدت بعمق وأنا أقول:

- لا أعلم إن كانت (لمار) ستصدقك.. لكن يبدو أن لا خيار لديها سوى هذه القصة.. فهي تفسر لنا كل شيء!!!.

سكت دون أن يرد.. لحظات قليلة من الصمت غرق فيها عقلي في تساؤلات لا تنتهي.. حيث شعرت برغبة عارمة في الهروب من واقعي لأبحث عن واقع أفضل كما فعل هذا الرجل.. لكني تراجعت في اللحظة الأخيرة مع الأسف ولا أعرف لماذا!!!.. ثم.. دخل الملاك غرفتي فجأة.. أعني (لمار) طبعا.. فطلبت منها الجلوس والاستماع إلى كلام الأمريكي جيداً مع ترجمتي المستمرة لكل ما يصعب عليها فهمه.

وقد تطلب الأمر بضع ساعات لتوضيح ما حدث لها وسط استنكارها الشديد في البداية.. ثم ذهولها.. قبل أن تقتنع أخيرا بعد أن وجدت أن هذا التفسير يحمل إجابات واضحة لكل ما مرت به.. لتردف بعدها باهتمام وكأنها تتذكر شيئا:

- قبل أن أخلد إلى النوم في تلك الليلة.. شعرت بشيء ما يتغير في جسدي.. شيء لم أتمكن من قياسه أو معرفته.. وكأنني أتجه إلى نوم عميق لا قرار له!!!.. يبدو أن هذا

شعور من يقترب من الموت.. أتذكر أيضا عندما أفقت فجأة في ذلك المخيم.. كنت جائعة جدا.. مرهقة جدا.. لكني تناسيت تلك المشاعر مع الخوف والذهول اللذين سيطرا علي حينها.

قال الأمريكي مباشرة:

- ما شعرت به هو بسبب تفكيك جزيئات جسدك ومن ثم انتقالك إلى بعد آخر.. إنه شعور طبيعي ينتابني أنا أيضا أثناء الانتقال بين الابعاد.. لقد كنت تموتين قبلها بلحظات وعلى وشك أن تلفظي أنفاسك الأخيرة لسبب أجهله.. لكن جهازي أنقذ حياتك دون قصد.

قلت بعدها بجدية:

- (لمار).. لا أستطيع أن أبقيك في المستشفى إلى الأبد.. كما أن هذا الرجل يستطيع مساعدتك.. إنه يبدو لي جديرا بالثقة.. ستذهبين معه وسيهتم لأمرك.. أعتقد أنك كنت على وشك الإصابة بنزيف داخلي كما يبدو.. وهو ما يحدث أحيانا جراء الحزن الشديد أو الفرحة الشديدة.. وهذا أمر مفهوم تماما.. فقد كنت تعيشين لحظات حزينة جدا بسبب وفاة الشاب الذي أحببته.. لكن ذلك الجهاز نقلك إلى هذا البُعد وأنقذ حياتك دون أن نعرف

كيفية حدوث ذلك بصورة دقيقة.

هزت رأسها إيجابا بعد أن استوعبت الفكرة بأكملها.. ثم سألتنا فجأة باهتمام:

- هل سأعود إلى عائلتي؟!!.

لقد فاتني أن أطرح هذا السؤال على الأمريكي.. لكنه قال بأسف شديد:

- المعذرة يا صغيرتي.. لا نستطيع أبدا العودة إلى نفس البُعد مرة أخرى.. لم أتوصل لكيفية عمل ذلك حتى الآن.. كل بُعد أغادره يعجز جهازي عن إعادتي إليه!!!.

شحب وجهها للحظة.. ثم اغرورقت عيناها بالدموع.. لتدفن وجهها بين راحتي يديها وتغرق في بكاء يمزق القلوب.. فسكتنا طويلا لرهبة الموقف.. قبل أن يقول الأمريكي متعاطفا:

- لا شك أن أفراد أسرتك قد استيقظوا من النوم في اليوم التالي ولم يعثروا عليك.. سيبحثون عنك طويلا دون جدوى.. لكنهم على كل حال كانوا سيعثرون عليك ميتة في فراشك لو لم تنتقلي معي دون قصد.. على الأقل أنت لا تزالين على قيد الحياة هنا.

نظرَت إليه بجمود للحظات.. ثم مسحت دموعها لتنهض من مكانها وتتجه إلي بوجه شاحب حزين.. صافحتني وهي تشكرني بانكسار على ما فعلته من أجلها.. ثم صافحت ذلك الأمريكي وألقت عليه ذات كلمات الشكر والامتنان.. لتقول بعدها مصدومة:

- أنا.. لا أعرف أحداً هنا غيركما.. لا أملك سوى أن أستمع إليكما.

ابتسمت لها بتعاطف شديد.. لينهض الأمريكي وهو يشكرني بدوره بحرارة.. قبل أن يخرجا من غرفتي ومن حياتي بأكملها.. هكذا بكل بساطة!!!.. تأتي فتاة مجهولة للمستشفى وتجعلني أدور معها في دوامة من الألغاز لبضعة أيام.. قبل أن يدخل مكتبي رجل أجنبي لم أره في حياتي ليخبرني بقصة مذهلة لا تصدق غيرت نظرتي للكون بأكمله!!!.. ثم يخرج مغادرا معها وكأن شيئا لم يكن!!!.

هذا يعيدني إلى السؤال الذي طرحته في مذكراتي السابقة.. هل أنا الطبيب النفسي الوحيد الذي يمر بقصص كهذه؟!.. أم أن زملاء المهنة يمرون بقصص أشد غرابة ربما لكنهم لا يفصحون عنها أبدا؟!.. سؤال سيظل معلقا إلى الأبد كما يبدو.. خاصة وأن مهنة الطب النفسي تحتم عدم كشف أسرار المرضى كما قلت مرارا.

وضعت رأسي على مكتبي أفكر في كل هذه الغرائب التي رأيتها في عملي!!!.. أفكر إن كنت سأرى المزيد وأسرد لكم أجزاء أخرى من مذكراتي هذه أم لا.. إنني أغرق باستمرار في بئر عميق من التساؤلات التي لا تنتهي عن حقيقة هذا العالم.. عن حقيقة الكون بأكمله.. فكلما أعرف أكثر.. كلما أكتشف قلة ما أعرفه في تناقض مستمر لا يتوقف!!!.. أشعر أحيانا أن الشيء الوحيد الذي أنقذ الأرض حتى الآن من الدمار الشامل هو إدراك الإنسان أنه لا يوجد مكان آخر يلجأ إليه!!!.. لكن قد يتغير الأمر.. فما الذي يمنع أي حاقد من أن يدمر بُعدا بأكمله وينتقل هو إلى بعد آخر ليبدأ به من جديد؟!.. أمر كهذا بات ممكنا.. خاصة بعد ما عرفته في تجربتي هذه وبعد كل ما قاله لي ذلك الأمريكي عن انتقاله عبر الأبعاد.

لقد تعلمت منه سرا هائلا ومفهوما جديدا كنت أجهله.. مفهوم (نظرية الأوتار).. تلك الأوتار الدقيقة التي يتشكل منها الكون.. والتي يتلاعب فيها البشر فيصنعون أبعاداً أخرى من خلال سفرهم عبر الزمن إلى الماضي.. أبعاداً تحوي عوالم مختلفة متداخلة ببعضها لكنها منفصلة في نفس الوقت كما عرفنا في هذه القصة الغريبة.. وكما شبه ذلك الأمريكي الأمر بالأصابع التي تعزف على أوتار الكمان لتمنحنا لحنا مختلفا في كل مرة.. لكن العزف هنا يختلف تماماً.. لأنه يتم على قيثارة كونية.. وعلى أوتار الكون!!!.

إصدارات المؤلف:

1) وراء الباب المغلق (2000)
2) خلف أسوار العلم (2002)
3) الأبعاد المجهولة (2004)
4) الأبعاد المجهولة 2 (2006)
5) في الجانب المظلم (2008)
6) حكايات من العالم الآخر (2008)
7) 17 (2008)
8) زيارات ليلية (2009)
9) رسائل الخوف (2010)
10) بعد منتصف الليل (2012)
11) منطقة الغموض (2012)
12) حالات نادرة (2012)
13) حالات نادرة 2 (2013)
14) حالات نادرة 3 (2014)
15) الأبعاد المجهولة 3 (2014)
16) متحف الأرواح (2015)
17) حالات نادرة 4 (2016)
18) قصص.. لا يسمحون لي بنشرها (2017)
19) مخطوطات مدفونة (2018)
20) ملاذ (2018)
21) المُعقَّد (2019)
22) حالات نادرة 5 (2020)
23) جرعة زائدة (2020)

للتواصل مع المؤلف

Email : **kuwaiti27@hotmail.com**

Twitter : **@Abdul_Alrifaee**

Instagram : **abdul_alrifaee**

Snapchat : **alrifaee**

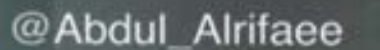
Youtube : **www.youtube.com/aalsayed1973**



حالات نادرة (3)

هل دخلت مستشفى الطب النفسي في (الكويت)؟!.. الكثيرون لم يفعلوا.. وربما أكون من المحظوظين الذين يدخلونه بصورة يومية بحكم مهنتي كطبيب نفسي.. فلا أنكر أن هناك متعة في الاستماع لمشاكل الناس ومحاولة إيجاد الحلول لها.. خاصة مشاكل المراهقات.. إذ لا يخفى عليكم أننا نعيش في مجتمع ذكوري صارم يمارِس فيه الرجل (وأد البنات) فكريا وعاطفيا.. وهذه التقاليد نتيجتها الطبيعية أن يكون معظم (زبائني) من فئة المراهقات بسبب تراكم الضغوطات عليهن من الجميع.

ما الذي يجعلني أنشر مذكراتي باستمرار؟!.. ربما لأن الأفكار في رأسي شبيهة بالخفافيش التي تعيش في الكهوف المظلمة.. إذ تقبع هناك نائمة بهدوء حتى يأتي أي إزعاج ليوقظها فتملأ الكهف صخبا .. وها أنا أملأ الأوراق صخبا بعد أن اكتظ رأسي بالمشاكل التي تنهال على مسامعي باستمرار والتي تتجاوز كثيرا قصص الحب أو الخلافات العائلية المعتادة.. أعتقد أن من قرأوا مذكراتي السابقة يتفقون معي في ذلك.. لهذا أعود إليكم مجددا لأتحدث عن مشاكل المراهقات.. والحالات النادرة منها.. بجزئها الثالث!!!



 abdul_alrifaee

